الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ _ شعبة الدراسات العليا

" تأثيرات الثورة الصناعية في بريطانيا في التطور التاريخي لأوضاع سوريا– الشام الاقتصادية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر"

(مشروع بحث أُعدَّ لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب الحديث والمعاصر)

إشراف

أ.د نجاح محمد

إعداد الطالبة

صفاء وجيه مرشد

١٤٤٢هـ / ٢٠٢٠م

فهرس المحتويات

رقم الصفحة

المقدمة: حول اختيار موضوع البحث وأهميته وإشكاليته وأهدافه ومنهجيته والتعريف بأبرز مصادره. ٨

الفصل الأول التمهيدي : موجز عن أبرز الأوضاع السياسية والاقتصادية الدولية والعثمانية والعربية والمحلية حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر:

أولاً : موجز عن أبرز الأوضاع الدولية المعنية، ومنها بريطانيا، في الميادين السياسية والاقتصادية من النهضة الأوروبية والكشوف الجغرافية حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر: ١٣

١ _ النهضة الأوروبية والكشوف الجغرافية وتراجع القوة العربية المهيمنة عالمياً، وتشكل النظام الأوروبي الاستعماري وقواه. ١٣

أ_ النهضة الأوروبية والكشوف الجغرافية . ١٣

ب_ متغير الضعف والتراجع للقوة العربية المهيمنة عالمياً. ١٥

ج_ تشكل النظام الأوروبي الاستعماري وقواه . ١٦

٢_ أوضاع القوى الدولية المعنية من تشكل النظام الأوروبي الاستعماري حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر : ١٧

أ_ الأوضاع السياسية والاقتصادية في بريطانيا من تشكل النظام الأوروبي الاستعماري حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر. ١٧

ب_ الأوضاع السياسية والاقتصادية في فرنسا من تشكل النظام الأوروبي الاستعماري حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر. ١٩

ج_ التنافس البريطاني _ الفرنسي حتى بداية الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر. ٢١

٣_ روسيا سياسياً واقتصادياً حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر. ٢٣

ثانياً: موجز عن أبرز أوضاع السلطنة العثمانية في الميادين السياسية والاقتصادية حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر: ٢٤

١_ موجز عن أبرز أوضاع السلطنة العثمانية من الناحية السياسية حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر. ٢٤

٢_ موجز عن أحوال السلطنة العثمانية من الناحية الاقتصادية حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر. ٢٦

ثالثاً : موجز عن أبرز الأوضاع السياسية والاقتصادية في الوطن العربي ومنه سوريا _ الشام حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر: ٢٨

١_ موجز عن أبرز الأوضاع السياسية للوطن العربي وبخاصة سوريا _ الشام حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا. ٢٨

٢_ موجز عن أبرز الأوضاع الاقتصادية للوطن العربي وبخاصة سوريا _ الشام حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا . ٣٠

الفصل الثاني : موجز عن قيام الثورة الصناعيّة البريطانية وتأثيراتها الداخلية والعالمية: ٣٣

أولاً : ماهيَّة الثورة الصناعيّة في بريطانيا وعوامل قيامها في القرن الثامن عشر: ٣٤

١_ ماهيَّة الثورة الصناعيّة وبخاصة في بريطانيا . ٣٤

٢_ عوامل قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا . ٣٦

أ_ العوامل السياسية . ٣٦

ب_ العوامل الاقتصادية والاجتماعية . ٣٦

ج_ العوامل العلمية . ٣٧

د_ تأثير الحضارة العربية والاختراعات الفنية والصناعيّة في بريطانيا. ٣٩

ثانياً : مظاهر الثورة الصناعيّة وانعكاساتها الداخلية والعالمية : ٤٦

١_ مظاهر الثورة الصناعيّة في بريطانيا. ٤٦

٢_ انعكاسات الثورة الصناعيّة الداخلية في بريطانيا . ٤٧

أ_ الانعكاسات السياسية الداخلية للثورة الصناعيّة في بريطانيا. ٤٧

ب_ الانعكاسات الاقتصادية الداخلية للثورة الصناعيّة في بريطانيا. ٤٧

ج_ الانعكاسات الاجتماعية الداخلية للثورة الصناعيّة في بريطانيا. ٤٩

د_ الانعكاسات الفكرية الداخلية للثورة الصناعيّة في بريطانيا. ٥٢

هـ_ الانعكاسات المناخية الداخلية للثورة الصناعيّة في بريطانيا. ٥٣

٣_ انعكاسات الثورة الصناعيّة العالمية : الأوروبية والأمريكية: ٥٣

أ_ انعكاسات الثورة الصناعيّة العالمية الأوروبية . ٥٣

ب_ انعكاسات الثورة الصناعيّة العالمية في الولايات المتحدة الأمريكية. ٥٥

الفصل الثالث : تأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية في التطور الاقتصادي التاريخي في سوريا _ الشام منذ بداية الثورة الصناعيّة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحتى بداية دولة محمد علي باشا فيها عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م: ٥٨

أولاً : موجز الواقع السياسي لسوريا _ الشام منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى بداية دولة محمد علي باشا ١٢٤٧هـ/١٨٣١م: ٥٩

١_ موجز الواقع السياسي لسوريا _ الشام منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى حملة علي بك الكبير ١١٨٤هـ/١٧٧٠م . ٥٩

أ_ الحكم المحلي العربي لآل العظم في بلاد الشام والسياسة العثمانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى حملةعلي بك الكبير. ٦٠

ب_ الحكم المحلي العربي لآل الزيادنة والسياسة العثمانية حتى حملة علي بك الكبير ١١٨٤هـ/١٧٧٠م. ٦٤

٢_ موجز الواقع السياسي السوري منذ حملة علي بك الكبير ١١٨٤هـ/١٧٧٠م حتى الحملة الفرنسية عام ١٢١٤هـ/١٧٩٩م. ٦٧

أ_ سوريا _ الشام : حملة علي بك الكبير وتحالفه مع ظاهر العمر ١١٨٤هـ/١٧٧٠م. ٦٧

ب_ سوريا _ الشام بين السلطنة وعلي بك الكبير والأسطول الروسي وظاهر العمر حتى وفاته. ٧٠

ج_ سوريا _ الشام : الواقع السياسي من موت ظاهر العمر حتى الحملة الفرنسية ١٢١٤هـ/١٧٩٩م. ٧٢

٣_ موجز الواقع السياسي لسوريا _ الشام منذ الحملة الفرنسية ١٢١٤هـ/١٧٩٩م حتى بداية دولة محمد علي ١٢٤٧هـ/١٨٣١م. ٧٧

أ_ موجز الحملة الفرنسية على سوريا _ الشام عام ١٢١٤هـ/١٧٩٩م وأبرز نتائجها. ٧٧

ب_ موجز الوضع السياسي لسوريا _ الشام تحت الاحتلال العثماني منذ نهاية الحملة الفرنسية حتى بداية دولة محمد علي ١٢٤٧هـ/١٨٣١م. ٨٠

ثانياً : تأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية في التطور الاقتصادي التاريخي لسوريا _ الشام منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى بداية دولة محمد علي باشا عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م: ٨٥

١_ تأثير متطلبات السياسة البريطانية الاقتصادية بعد الثورة الصناعيّة . ٨٥

٢_ تأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية في السياسة الاقتصادية العثمانية. ٨٦

أ_ ماهيَّة الامتيازات . ٨٦

ب_ الامتيازات البريطانية في السلطنة العثمانية . ٨٧

ج_ نتائج الامتيازات البريطانية على اقتصاد السلطنة العثمانية. ٨٧

٣_ تأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية في التطور الاقتصادي التاريخي لسوريا _ الشام في فترة الاحتلال العثماني حتى بداية دولة محمد علي عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م . ٨٩

أ_ الواقع الاقتصادي وتأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية على قوى وعلاقات الإنتاج في سوريا _ الشام في فترة الاحتلال العثماني حتى عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م . ٨٩

ب_ الواقع الاقتصادي وتأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية على الزراعة في سوريا _ الشام في فترة الاحتلال العثماني حتى عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م. ٩١

ج_ الواقع الاقتصادي وتأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية على الصناعة في سوريا _ الشام في فترة الاحتلال العثماني حتى عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م. ٩٤

د_ الواقع الاقتصادي وتأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية على التجارة في سوريا _ الشام في فترة الاحتلال العثماني حتى عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م. ٩٧

هـ_ تأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية وردّ فعل التجار والحرفيين عليها في سوريا _ الشام في فترة الاحتلال العثماني حتى بداية دولة محمد علي فيها عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م. ١٠٠

الفصل الرابع : تأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية في التطور الاقتصادي التاريخي لسوريا _ الشام في فترة حكم دولة محمد علي منذ بدايتها عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م حتى نهايتها عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م _ ١٢٥٧هـ/١٨٤١م: ١٠٢

أولاً : دولة محمد علي باشا منذ بدايتها عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م حتى نهايتها عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م : ١٠٣

١_ موجز عن حكم محمد علي باشا ووصوله لحكم مصر وأهم إنجازاته الداخلية والخارجية . ١٠٣

أ_ محمد علي ووصوله إلى حكم مصر . ١٠٣

ب_ موجز عن أبرز إنجازات محمد علي الداخلية. ١٠٤

ج_ أبرز إنجازات محمد علي الخارجية. ١٠٥

٢_ سوريا _ الشام وحملة إبراهيم باشا وتدويل المسألة السورية. ١٠٦

أ_ الأسباب البعيدة والقريبة لحملة إبراهيم باشا على سوريا _ الشام. ١٠٦

ب_ مجريات حملة إبراهيم باشا على سوريا _ الشام وبداية دولة محمد علي سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م. ١٠٩

ج_ تدويل المسألة السورية ومواقف الدول الأوروبية منها. ١١١

٣_ الواقع السياسي في سوريا- الشام وإنجازات دولة محمد علي السياسية ونتائجها بين أعوام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م _ ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م. ١١٢

أ_ الواقع السياسي في سوريا _ الشام وأهم الإنجازات السياسية لحكم محمد علي فيها . ١١٢

ب_ الثورات في سوريا _ الشام ضد الحكم المصري. ١١٤

ج_ أهم النتائج السياسية للحكم المصري في سوريا _ الشام. ١١٦

ثانياً : تأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية في تطور الواقع الاقتصادي لسوريا _ الشام في فترة حكم دولة محمد علي باشا منذ بدايتها عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م حتى نهايتها ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م: ١١٧

١_ تأثير متطلبات السياسة البريطانية الاقتصادية في هذه الفترة (١٢٤٧هـ/١٨٣١م-١٢٥٦هـ/١٨٤١م) والتحالف البريطاني العثماني ضد دولة محمد علي العربية : معاهدة بلطة ليمان. ١١٧

أ_ تأثير متطلبات السياسة البريطانية الاقتصادية في هذه الفترة (١٢٤٧هـ/١٨٣١م-١٢٥٦هـ/١٨٤١م). ١١٧

ب_ التحالف البريطاني العثماني ضد دولة محمد علي العربية : معاهدة بلطة ليمان. ١١٨

٢_ سياسة محمد علي باشا الاقتصادية ومتغيرات الواقع الاقتصادي لسوريا _ الشام وتأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية (١٢٤٧هـ/١٨٣١م-١٢٥٦هـ/١٨٤٠م). ١٢١

أ_ الواقع الاقتصادي والتأثيرات على قوى الإنتاج وأدواته وعلاقاته في سوريا _ الشام في فترة حكم دولة محمد علي باشا فيما بين (١٢٤٧هـ/١٨٣١م-١٢٥٦هـ/١٨٤٠م). ١٢١

ب_ الواقع الاقتصادي والتأثيرات على الزراعة في سوريا _ الشام في فترة حكم دولة محمد علي باشا فيما بين (١٢٤٧هـ/١٨٣١م-١٢٥٦هـ/١٨٤٠م). ١٢٢

ج_ الواقع الاقتصادي والتأثيرات على القطاع الصناعي في سوريا _ الشام في فترة حكم دولة محمد علي باشا فيما بين (١٢٤٧هـ/١٨٣١م-١٢٥٦هـ/١٨٤٠م). ١٢٤

د_ الواقع الاقتصادي والتأثيرات على التجارة في سوريا _ الشام في فترة حكم دولة محمد علي باشا فيما بين (١٢٤٧هـ/١٨٣١م-١٢٥٦هـ/١٨٤٠م). ١٢٥

هـ_ الواقع الاقتصادي والتأثيرات على النقد والنقل في سوريا _ الشام في فترة حكم دولة محمد علي باشا فيما بين (١٢٤٧هـ/١٨٣١م-١٢٥٦هـ/١٨٤٠م). ١٢٨

و_ الواقع الاقتصادي والتأثيرات والوعي الاقتصادي في سوريا _ الشام في فترة حكم دولة محمد علي باشا فيما بين (١٢٤٧هـ/١٨٣١م-١٢٥٦هـ/١٨٤٠م). ١٢٨

ثالثاً : تأثيرات الثورة الصناعيّة : الحصار الاقتصادي والتآمر البريطاني وتدويل المسألة السورية حتى نهاية دولة محمد علي العربية عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م-١٢٥٧هـ/١٨٤١م: ١٢٩

١_ الحصار الاقتصادي والتآمر البريطاني على دولة محمد علي. ١٢٩

٢_ التحالف الدولي وتدويل المسألة السورية. ١٣٠

٣_ التسوية وانسحاب إبراهيم باشا ونهاية دولة محمد علي العربية. ١٣٢

الخاتمة: ١٣٥

الملاحق ١٣٧

المقدمة :

أولاً)_ حول اختيار موضوع البحث وأهميته:

إن العلاقة الجدلية القائمة بين أبعاد التاريخ السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، أي تبادلهما لفعلي التأثر والتأثير، تفسر خطأ الفصل القاطع بينها أثناء دراستها وتحليلها، مع التأكيد على الأهمية الخاصة للجانب الاقتصادي كونه يؤثر بقوة في البنية السياسية والاجتماعية للمجتمع، وبخاصة إذا تعلّق هذا الجانب بحدث اقتصادي هام على المستوى العالمي ومنه الوطن العربي وسوريا– الشام[١] وعلى كل المستويات، وهو الثورة الصناعيّة التي شهدتها بريطانيا ثمَّ بقية الدول الأوروبية، وأدت إلى تغيرات عالمية شاملة على كل المستويات، ومنها تصاعد حركة الاستعمار الحديث والصراعات الدولية وتنامي حركة التحرر العالمية، ومنها حركة التحرر العربية، في مختلف توجهاتها.

إنَّ تعبير الثورة الصناعيّة يطلق على نتاج سلسلة التغييرات الاجتماعية والاقتصادية التي عرفتها بريطانيا في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، والتي تمثلت كما جاء في قاموس المورد، في " تألية الصناعة، أي جعلها آلية"[٢]. وهذا ما أدى إلى بروز أهمية عنصرين اثنين أساسيين: المواد الأولية للصناعة والسوق الاستهلاكية لتصريفها، واللذين أصبحت مهام ضمان توفيرهما الشغل الشاغل للرأسمالية البريطانية، مما يفسر توسعها الاستعماري العالمي للحصول عليهما، ومنه توسعها في الوطن العربي الذي كان خاضعاً، ومنه سوريا– الشام، للاحتلال العثماني.

إنَّ أهمية متغيرات الثورة الصناعيّة، إن كعوامل أو كنتائج، إضافة إلى أهمية المكونات المتعلقة بموضوع هذا البحث ككل بجميع حواملة البشرية والمكانية والزمنية وبخاصة ما تعلق منها بسوريا– الشام وبأوضاعها الاقتصادية في صلاتها الإقليمية والعربية والعالمية، كانت السبب الأساسي في اختياري له.

تتمثل أهمية سوريا– الشام في التاريخ الحديث، في تميز الدور الاستراتيجي لموقعها الجغرافي في مواصلات العالم واتصالاته. أتت أهمية هذا الموقع، سواء على صعيد الخصوصية الإقليمية لها أو على صعيدها بالنسبة للوطن العربي بشكل عام، من حيث كونه متوضعاً في مركز العالم بجميع قاراته الخمس، ومشكلاً لعقدة مواصلاته وصلاته التي لا غنى عنها، وفيه ومنه انطلقت تجمعات هذا

---

(١) _ سوريا– الشام : تمَّ إضافة سوريا إلى مسمى بلاد الشام تمييزاً له عن مضمون مسماها اليوم بعد تجزئة مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠. وسوريا هو الاسم الأصلي والعريق والمتفرد بالوجود التاريخي المستمر منذ القدم وحتى اليوم. انظر نجاح محمد ، كاميليا أبو جبل ، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠٥–٢٠٠٦، ص ٣٣.

(٢) _ روحي ومنير البعلبكي ، قاموس المورد، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٩٠، ص ٢٦٣.

العالم العاقلة إنساناً وحضارةً، ومن خلاله تحركت دوله ونشطت حربياً وسلمياً، وعِبرَه اتصلت الشعوب والأمم فيما بينها برياً وبحرياً. يضاف إلى هذه الأهمية الاستراتيجية لسوريا– الشام أهمية ثرواتها الاقتصادية والبشرية والحضارية عموماً، التي لا مجال للتفصيل بها هنا.

أمّا أهمية المرحلة المعينة بالبحث فتتمثل في أنها قد شهدت تأثيرات الثورة الصناعية البريطانية على سوريا– الشام وما أدت له من انعكاسات تدريجيّة اقتصادية وسياسية، إضافةً إلى العديد من الأحداث التاريخية الهامة ومنها الحكم المحلي للولايات، وحركة ظاهر العمر، وحملة علي بك الكبير (١١٨٤هـ/١٧٧٠م ١١٨٩هـ_ ١٧٧٥م)، وحملة نابليون بونابرت على مصر وسوريا عام (١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م_١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م)، ودولة محمد علي النهضوية في سوريا– الشام بين عامي (١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م_ ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م)، وردود الفعل الداخلية والعربية والعثمانية والدولية.

ومن المتفق عليه أن الحدث الأبرز في تغيرات الثورة الصناعيّة في بريطانيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر هو حدث اختراع المحرك البخاري عام ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م، بداية لموضوع البحث، أما نهايته فقد ارتبطت بحدث لا يقل أهمية وهو حدث إسقاط دولة محمد علي العربية في سوريا– الشام وإنهاء مشروعه النهضوي عام ١٢٥٦هـ_ ١٢٥٧هـ/١٨٤٠_ ١٨٤١م، ليقوى بعدها المشروع الاستعماري في ظل ضعف وغياب شبه كامل لدور السلطنة العثمانية من جهة ووعي وتنامي لليقظة النهضوية واليقظة القومية وبخاصة في سوريا– الشام من جهة أخرى.

ومن الأسباب الهامة الأخرى التي دفعتني إلى اختيار البحث ندرة الدراسات المتعلقة بانعكاسات الثورة الصناعيّة على سوريا– الشام، وتطلعي إلى حل إشكاليات وتحقيق أهداف هامة متعلقة بهذا الموضوع وأقف عند أبرزها فقط.

ثانياً)_ إشكالية البحث وأهدافه:

للبحث إشكاليات عدة أبرزها الآتية:

الإشكالية الأولى: هي حول دور الثورة الصناعية في تخلف اقتصاد سوريا– الشام: فقد تعددت الآراء حول هذا الموضوع فالاتجاه الأول يقلل من دور الثورة في تخلف الاقتصاد السوري. أما الاتجاه الثاني فيضخم دور الثورة الصناعية في التراجع الاقتصادي في سوريا– الشام . وهناك الاتجاه الثالث يبين انعكاسات الثورة الصناعية من كل الجوانب والأبعاد دون تضخيم أو تحجيم لدورها.

الإشكالية الثانية: هي حول دور الحكم العثماني في انهيار الاقتصاد في سوريا– الشام: البعض يضخم هذا الدور بحيث يجعله وحيداً، والبعض ينفيه تماماً، والبعض الآخر يبيّن ما له وما عليه دون أن يهمل بقية العوامل.

الإشكالية الثالثة: هي حول دور سياسة محمد علي في ازدهار سوريا– الشام اقتصادياً: الاتجاه الأول من الآراء يقلل من شأن سياسة دولة محمد علي على الاقتصاد الشامي ودورها في ازدهاره، أما الاتجاه الثاني فيضخم هذا دور لاغياً أي دور آخر. وهناك اتجاه ثالث يبيّن إيجابيات هذه السياسة في الازدهار دون أن يهمل سلبياتها من جهة أخرى.

أما أهداف هذا البحث فهي الإجابة عن هذه الإشكالية وغيرها بالإضافة إلى الإجابة عن تساؤلات هامة أكتفي بذكر أبرزها:

- لماذا بدأت الثورة الصناعيّة في بريطانيا تحديداً؟ ولماذا كان لها انعكاسات هامة على كل المستويات العالمية والعربية وبخاصة في سوريا– الشام.
- لماذا مارست السلطنة العثمانية دوراً سلبياً في حماية الاقتصاد العربي؟
- ما هي أهمية إنجازات محمد علي الاقتصادية في سوريا– الشام، وما هو دورها في مواجهة انعكاسات الثورة الصناعيّة البريطانية فيها؟
- ما هو دور العوامل المحلية السورية في الاقتصاد السوري في المرحلة المعنية بالبحث؟

ثالثاً)_ حول منهجية البحث:

سأوجز منهج البحث الذي سأتبعه من خلال المنطلقات المعرفية والمنهجية الآتية:

المنطلق الأول: هو القناعة بأن النظرة المنهجية العلمية الصحيحة للتاريخ هي التي تؤمن بغائيته وبقوانين جدلية حركته وأحداثه، واستمرارية حركة التطور التاريخي من الماضي عبر الحاضر إلى المستقبل، وهذا ما يفسر حرصي على تقديم الفصل الأول التمهيدي الذي من شأنه الربط بين الأحداث التاريخية المتعلقة بموضوع البحث حول الثورة الصناعيّة وتأثيراتها الاقتصادية في سوريا– الشام ما بين المرحلة المعينة بالبحث، وبين المرحلة التاريخية السابقة لها.

المنطلق الثاني: هو الإيمان بأهمية وجدلية العلاقة بين كل المعطيات الحياتية المجتمعية. وإن تركيزي على المعطيات الاقتصادية لا يعني إهمالي لبقية المعطيات وبخاصة السياسة والاجتماعية.

المنطلق الثالث: هو الإيمان بوحدة التاريخ الإنساني من حيث كونه تاريخاً مترابطاً بفعل وجود علاقة جدلية أي تبادلية لفعلي التأثير والتأثر بين مختلف أقوامه وأممه ودوله وهذا ما يفسر اهتمامي بالأوضاع الدولية إن كان في التمهيد أو في صلب الموضوع.

المنطلق الرابع: هو الإيمان بوحدة التاريخ العربي التي لا تعني وحدة التفاصيل، ونفي التنوع والخصوصية لكلِّ بلد عربي، هذا ممَّا يفسر تركيزي على سوريا– الشام ولا ينفي ضرورة اهتمامي بعلاقتها مع الوطن العربي ككل وبخاصة المشرقي منه.

المنطلق الخامس: هو الإيمان بجدلية الداخل والخارج في فهم الأحداث التاريخية وتحليلها، على أنَّ الداخل هو الأساس، ولا يكون تأثير الخارج إلا من خلاله، مما يوجب على الباحث رفض التضخيم أو التحجيم لأي من العوامل الخارجية والداخلية ومنها عامل المؤامرة، وكما عليه أن لا ينفي دورها في صنع الأحداث، وعليه أن لا يقوم بتضخيمه بحيث يقلل من دور العوامل الذاتية، ملتزماً ببيان الدور الحقيقي لجميع العوامل.

المنطلق السادس: هو القناعة بأن كيفية المنهجية العلمية التي يجب أن أتبعها في هذه الدراسة قائمة على الالتزام بجميع قواعد منهجية البحث العلمي التاريخي القائمة على الرؤية الشمولية والمعالجة الموضوعية المستندة إلى التوثيق والتحليل وإلى صحة الصياغة والتركيب عرضاً ولغةً، وكذلك إلى فهم المضمون النسبي لبعض المصطلحات بمعنى تغيره من مرحلة تاريخية إلى أخرى.

رابعاً)_ تعريف بأبرز مصادر هذا البحث:

اعتمدت في بحثي هذا على مجموعة من المصادر الهامة، من أبرزها: الأوامر السلطانية_ حلب من أرشيف مديرية الوثائق التاريخية في دمشق، حيث تعدُّ مصدراً موثوقاً، وتتضمن مجموعة من القرارات والأوامر الصادرة عن السلطان والباب العالي في استانبول، وتعطي صورة واضحة عن الأوضاع السياسية والاقتصادية لمدينة حلب خاصة ولسوريا_ الشام عامة. إضافة إلى كتاب الحلاق أحمد البديري بعنوان (حوادث دمشق اليومية) الذي عبر فيه الكاتب بعفوية عن هموم الناس وما عانوه من أزمات سياسية واقتصادية وكوارث طبيعية، وتقلبات الزمان والولاة الذين تعاقبوا على حكم ولاية دمشق. ومن المصادر الهامة التي أغنت البحث كتاب محمد كرد علي (خطط الشام) في ستة أجزاء، اعتمدت على الجزء الثاني والثالث والرابع منها. وكتاب محمد المرادي (سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر) وهو كتاب في أربعة أجزاء يعرض سيرة الشخصيات الهامة في القرن الثاني عشر هجري/ الثامن عشر ميلادي، ومن بينهم أهم الولاة والقادة العثمانيين الذين حكموا في سوريا– الشام. كما استفدت من المصدر الأجنبي(The Industrial Revolution) للكاتب البريطانيT.S Ashton الذي كان معاصراً للثورة الصناعيّة البريطانية وكتب عن مراحل قيام هذه الثورة ومظاهرها وانعكاساتها في بريطانيا. بالإضافة إلى مجموعة هامة من المراجع العربية والمترجمة والأجنبية.

وفي ختام هذه المقدمة كل الشكر لله سبحانه تعالى الذي أكرمني في إنجاز هذا البحث، وكل الشكر والامتنان الكبير والاعتراف بالفضل إلى العزيزة بعلمها، والشامخة بتواضعها، والمعطاءة على الدوام، الأستاذة الدكتورة نجاح محمد المشرفة على إعداد رسالتي هذه وعلى ما قدمته لي من عونٍ ورعايةٍ وتوجيهٍ. كما أتوجه بخالص الشكر إلى اللجنة الموقرة المشاركة في مناقشة الرسالة.

الفصل الأول التمهيدي

موجز عن أبرز الأوضاع
السياسية والاقتصادية الدولية والعثمانية والعربية والمحلية
حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر

أولاً) : موجز عن أبرز الأوضاع الدوليّة، ومنها بريطانيا، في الميادين السياسية والاقتصادية من النهضة الأوروبية والكشوف الجغرافية حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر:

برزت العديد من المتغيرات الدولية في التاريخ الحديث الممتد قبل قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر، وسيقف البحث عند أبرزها مما له شأن في موضوعه، وسيبدأ بمتغير النهضة الأوروبية كقوةٍ صاعدةٍ، وثمَّ بمتغير الانحدار العربي، وهيمنة القوى الأوروبية الاستعمارية عالمياً والمنافسة فيما بينها.

١ – النهضة الأوروبية والكشوف الجغرافية وتراجع القوة العربية المهيمنة عالمياً، وتشكّل النظام الأوروبي الاستعماري وقواه:

أ_ النهضة الأوروبية والكشوف الجغرافية :

شهدت أوروبا تغيرات وتحولات على مختلف الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وجاءت هذه التحولات بعد ظلام العصور الوسطى والجهل الذي ساد فيها. ومما يجدر ذكره أن النهضة الأوروبية لم تحدث فجأة بل جاءت على مراحل امتدَّت من القرن الرابع عشر ميلادي حتى القرن السادس عشر ميلادي، وازدهرت مع انتشار التيارات العلمية والعقلانية والإنسانية نتيجة تأثرها بمعطيات الحضارة العربية الإسلامية في أوروبا، التي أشعلت سراج نهضتها من ضياء هذه الحضارة[١].

وقد أسهم العرب في تكوين الفكر الأوروبي في مختلف فروع العلم، من الرياضيات، والفلك إلى الطب والصيدلة والفيزياء والكيمياء والفلسفة والجغرافية والملاحة البحرية وغيرها، وأبلغ من يعبر عن دور هذه المعطيات الحضارية هم الباحثون الأوروبيون أنفسهم. حيث تعترف الكاتبة الألمانية زيغرد هونكه بفضل العرب في حفظ وتطوير العلوم عندما كتبت : " إنَّ العرب لم ينقذوا الحضارة الإغريقية من الزوال ونظموها ورتبوها ثم أهدوها إلى الغرب فحسب، إنَّهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء

---

(١) _ انظر زيغرد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، الطبعة الثانية، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٩، ص٤٠١ . ومحمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، ص٦٤ . ومحمد أحمد، الحضارة الأوروبية الحديثة والمعاصرة، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٧ _ ٢٠٠٨ ، ص٣٧ .

والطبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم والتي سرق أغلبها ونسب للآخرين" [١].

ويؤكد المستشرق غوستاف لوبون فضل العرب على الغرب عندما قال : " إن العرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي، ممدينن له"[٢] .

أما بالنسبة لعوامل النهضة المتعلقة بتطور الواقع الأوروبي، فهي تتعلق أولاً بتراجع النظام الإقطاعي وازدهار روح الإبداع والتفكير، ولا سيما بعد اختراع آلة للطباعة عام ٨٥١هـ/١٤٤٧م مما ساعد على انتشار الكتب والمعرفة بشكل أوسع[٣]، وكذلك بعد نمو رأس المال الوطني وظهور الطبقة البرجوازية وخصوصاً في المدن الإيطالية التي تميزت بالثراء، كونها الوسيط التجاري بين الشرق والغرب، وقد تطورت الملاحة وصناعة السفن التجارية في هذه المدن مستخدمة الخرائط العربية والبوصلة والإسطرلاب العربيان مدّعين فيما بعد أنها اكتشافات أوروبية أو صينية وقد صحّح كل هذا الاستشراق الموضوعي[٤]. وتجدر الإشارة لدور تطور حركة الملاحة وبناء السفن الذي ترافق مع انتشار روح المغامرة والاكتشاف بين الأوروبيين في قيام حركة الكشوف الجغرافية التي تعدّ أهم نتائج النهضة الأوروبية[٥].

وأدى دعم كل من البرتغال وإسبانيا لحركة الكشوف الجغرافية إلى إعادة اكتشاف البرتغال للطريق البحري من أوروبا إلى الهند عبر الدوران حول رأس الرجاء الصالح عام ٩٠٤هـ/١٤٩٨م، وتمكنت إسبانيا من إعادة اكتشاف قارة أمريكية عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م ، ولا بد من توضيح سبب استخدام مصطلح ((إعادة اكتشاف)) لأن هذه المكتشفات كانت جديدة بالنسبة لأوروبا فقط، أما بالنسبة للعرب فقد عرفوا هذه الطرق البحرية والقارات منذ آلاف السنين [٦] .

أما بالنسبة لأهم نتائج هذه الكشوف الجغرافية من الناحية الاقتصادية المتعلقة بموضوع هذا الفصل هي: قيام ثورة تجارية في أوروبا وتدفق المعادن الثمينة إليها، وكانت البرتغال وإسبانيا أولى

---

(١) _ هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ص٤٠١_ ص ٤٠٢ .

(٢) _ غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الطبعة الثالثة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣، ص٥٧٩ .

(٣) _ Vimala, Angelina, History of civics, First press 2007, Published by Pearson Education, India, p53.

(٤) _ هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص٤٨ .

(٥) _ أحمد، الحضارة الأوروبية الحديثة والمعاصرة، ص ٥٦-٥٧.

(٦) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، ص٧٠ .

القوى المستفيدة من ذلك تلتها هولندا وبريطانيا وفرنسا. ونتيجة لتراكم الثروات أنشئت المؤسسات المالية وقامت الصناعات معتمدة على المواد الخام القادمة من المستعمرات التي غدت سوقاً لتصريف المنتجات الأوروبية[١]، وسيطرت علاقات التنافس بين جميع القوى المذكورة، وبخاصة بريطانيا وفرنسا، حيث نشبت العديد من الحروب بينهما طمعاً في الحصول على المستعمرات ومواردها في الفترة السابقة لقيام الثورة الصناعيّة[٢].

أما بالنسبة لأهم نتائج الكشوف الجغرافية المتعلقة بالوطن العربي فهي انتقال مراكز العالم الاقتصادي وخاصة التجاري من الشرق إلى الغرب، بعد أن أصبح البرتغاليون هم سادة البحار والوسطاء التجاريون بدلاً من التجار العرب وتجار البندقية " فكانت بداية النهاية في الهيمنة البرجوازية العربية على التجارة الدولية وبالتالي نهاية النظام العالمي العربي الإسلامي الإعماري لصالح التمهيد لبروز النظام العالمي الأوروبي الاستعماري"[٣]. الذي كان ذروته التنافس الاستعماري الفرنسي – البريطاني وما نتج عنه من انعكاسات على الوطن العربي الذي كان يعيش حالة من الضعف والانحدار .

ب _ مُتغيّر الضعف والتراجع للقوة العربية المهيمنة عالمياً :

على العكس من أوروبا التي كانت تصنع نهضتها في المجالات كافة، كان الوطن العربي قد خضع في معظمه للاحتلال العثماني، وتفاقم التراجع والضعف العربي ليشمل الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية، ومع ذلك، ونتيجة التقدم الكبير الذي أحرزه العرب في العهود الماضية وخصوصاً في المجال الاقتصادي، فقد استمرَّ التفوق العربي زراعياً وتجارياً وصناعياً على الأوروبيين، ولم يبدُ التفاوت في التقدم الاقتصادي بين العرب والأوروبيين حتى أواخر القرن الثامن عشر تاريخ انطلاق الثورة الصناعيّة في بريطانيا حيث تخلف العرب تخلفاً كبيراً عن ركب التطور الاقتصادي العالمي[٤].

والسؤال هنا كيف يمكن للمنطقة العربية التي كانت في الماضي مزدهرة وتتمتع بالرخاء، وتقوم بدور شريان حيوي للمواصلات البرية والبحرية، وامتلكت في العصر الحديث صلات هامة مع أوروبا والعالم، كيف تأتى لها أن تفشل في إحراز التقدم؟ بل تراجعت تدريجياً عن مستواها في النمو الاقتصادي وغيره من المجالات لصالح التطور الأوروبي المتسارع، ويبدو جلياً ارتباط التدهور العربي

---

(١) _ عبد العزيز نوار، جمال الدين محمود، التاريخ الأوروبي الحديث في عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٩٠، ص٧٨ .

(٢) _ Angelina, History of civics, p58 .

(٣) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، ص٧١ .

(٤) _ ليلى الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، مطبعة ابن حيان، دمشق، ١٩٨١ – ١٩٨٢، ص١٩٠ .

بالاحتلال العثماني للمنطقة العربية[١]، حيث تسارعت عملية الانحدار العربي وتمَّ تدمير الاقتصاد العربي على يد القوة العسكرية الإقطاعيّة العثمانية، التي عجزت عن تبني طرق جديدة في الإنتاج والإدارة. إذ نجد أن الفئات العثمانية الحاكمة في الوطن العربي قد انفصلت عن الشعب، إضافة لفساد الحكم والإدارة، والتخفي وراء ستار الدين، لفرض سلطتها وخنق الحريات، إن أهم سمات الحكم العثماني أنه عسكري _ ديني _ إقطاعي[٢]، وقد ساد الإقطاع العسكري وما نتج عنه من علاقات إقطاعيّة مفككة أدت إلى إضعاف وتراجع العلاقات البرجوازية التقدمية التوحيدية، وترافق ذلك مع تدهور ثقافي حيث تراجع تيار الفكر العلمي العقلاني ليسود التيار الديني الذي شجعته السلطات العثمانية الحاكمة، وتميز بانحرافه عن مضمون الدين الصحيح وبالتشجيع على التصوف والبدع والتعصب المذهبي[٣] .

وأدى كل ما سبق إلى تراجع الوطن العربي ومنه سوريا _ الشام، وكانت أبرز الانعكاسات العالمية لهذا الضعف العربي هي الهجمة الاستعمارية عليه للسيطرة على موارده والقضاء على اقتصاده الوطني لصالح التغلغل الأجنبي .

ج_ تشكل النظام الأوروبي الاستعماري وقواه:

أدت حركة الكشف الجغرافي إلى إيجاد جواً من التوتر والمنافسة بين الدول الأوروبية المُستكشِفة، وهذا مما أدى إلى نمو الأطماع الاستعمارية بينها، وظهر النظام الاستعماري والأوروبي الذي تميز بروح السيطرة والاستيلاء على كامل موارد البلاد المكتشفة بما فيهم السكان الذين تعرضوا للتفرقة والعنصرية والتعذيب والاستغلال[٤] .

وقد سعت بعض الدول الأوروبية للتخلص من الاحتكار التجاري الذي فرضه العرب وتجار المدن الإيطالية، لتصبح هي التاجر والناقل والوسيط. وتزعمت هذه الحركة في البداية كل من البرتغال وإسبانيا. وقد ضربت رحلة البحار "فاسكو دوغاما" البرتغالي إلى الهند اقتصاديات العالم العربي، وانتقل المركز التجاري العالمي من حوض البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي. واستخدمت البرتغال القوة العسكرية للسيطرة على النقاط التجارية للعرب في إفريقيا والهند بعد أن كان للعرب الفضل الأسبق في اكتشاف تلك المناطق عبر التجارة معها، وكانت ذروة قوتها انتصار قواتها البحرية على الأسطول

---

(١) _ ز. ي هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، ترجمة مصطفى الحسيني، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٧٣، ص٥.

(٢) _ محمود علي عامر، تاريخ الدولة العثمانية(سياسية _ اجتماعية)، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٦ _ ٢٠٠٧، ص١٠٠ .

(٣) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث(بلاد الشام والعراق)، ص٦٢-٦٣.

(٤) _ عبد الفتاح أبو علية، اسماعيل ياغي، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار المريخ للنشر، الرياض، ١٩٨٥، ص٨٤.

المملوكي في معركة "ديو" البحرية عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م، وبفضل هذا الانتصار سيطر البرتغاليون على البحار الجنوبية مدة قرن تقريباً. ومع نهاية القرن السادس عشر بدأ الضعف يدب في الإمبراطورية البرتغالية لصالح زيادة النفوذ الإسباني(١).

وفي القرن السابع عشر ظهرت قوة أوروبية استعمارية جديدة هي هولندا التي أسست شركة الهند الغربية الهولندية عام ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م، ومنحت حقوقاً تجارية واستعمارية على طول ساحل الهند الجنوبي الشرقي، وأقامت محطات لتجارة الحرير في موانئ الخليج العربي، ومحطة لتجارة البن في مخا باليمن(٢). إلا أنّ النصف الثاني من القرن السابع عشر شهد سلسلة من الحروب بين هولندا وبريطانيا للسيطرة على التجارة والمستعمرات وراء البحار، لذلك كان معظمها حروب بحرية، انتهت بإثبات السيطرة والتفوق البحري البريطاني اللذين استمرا طوال القرن الثامن عشر والتاسع عشر رغم المحاولات الفرنسية الحثيثة انتزاع هذه الريادة، وفرض سيطرتها على أكبر مساحة من المستعمرات الخارجية (٣).

٢ – أوضاع القوى الدولية المعنية منذ تشكل النظام الأوروبي الاستعماري حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر:

أ _ الأوضاع السياسية والاقتصادية في بريطانيا منذ تشكل النظام الأوروبي الاستعماري حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر:

عند وفاة ملكة انكلترا القوية اليزابيث الأولى عام ١٠١٢هـ/١٦٠٣م دون ترك وريث للعرش، استلم تاج انكلترا ملك اسكتلندا جميس السادس تحت اسم جميس الأول، ونتج عن ذلك اتحاد اسكتلندا وانكلترا(٤). وفي عام ١١١٩هـ/١٧٠٧م تمَّ اتحاد كل من انكلترا واسكتلندا وويلز تحت اسم (مملكة بريطانيا العظمى)(٥). وبالرغم من التحديات الداخلية نتيجة حركة الإصلاح الديني واعتناق المذهب (الانجليكي) وهو مذهب متوسط بين البروتستانتية والكاثوليكية(٦) واستمرار الاضطرابات السياسية، استطاعت بريطانيا مواجهة التحديات الخارجية من القوى الأوروبية الطامعة بالتوسع من الإسبان والهولنديين والفرنسيين، ساعدها على ذلك حرصها على امتلاك أسطول بحري قوي كونها جزيرة محاطة بالبحار، وبالتالي كانت سلطاتها تمتد على أراضيها وفي مستعمراتها وراء المحيطات. حيث

---

(١) _ أبو علية، ياغي، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ص٧٠– ص٧٢.

(٢) _ المرجع نفسه، ص ٨٣.

(٣) _ William, Burns, The Brief History of Great Britain, New York, 2009, p125.

(٤) _ I bid, p95.

(٥) _ I bid, p127.

(٦) _ نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٨، ص ١٩٣.

توسعت استعمارياً في الهند وأسست أوائل القرن السابع عشر شركة الهند الشرقية الإنكليزية محققة أرباحاً عالية، وأنشأت أول مستعمراتها في أمريكا الشمالية في مقاطعة(فرجينيا) على يد المهاجرين والتجار البريطانيين منذ عام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م. واستطاعت بريطانيا خلال فترة ١٠٧٦هـ/١٦٦٥م _ ١٠٧٨هـ/١٦٦٧م الاستيلاء على المحطات التجارية الهولندية في إفريقيا، وعلى(امستردام) الجديدة نيويورك حالياً [١] .

وقد اتبعت بريطانيا طوال تاريخها الحديث سياسة المركنتلية (**Mercantilism**)[٢] في استثمار مستعمراتها اقتصادياً والتي تعني احتكارها للتجارة والصناعة مع المستعمرات، فقد أصدرت مجموعة من القوانين لتحقيق ذلك أهمها (قانون الملاحة الأول والثاني سنة ١٠٧١هـ/١٦٦٠م) التي حصرت به تجارة السلع المستوردة على متن السفن البريطانية لا غير، واحتكار تصدير بعض السلع مثل السكر والتبغ إلى بريطانيا حصراً، لتعيد تصديرها إلى أوروبا محققة أرباحاً عالية [٣].

إلاّ أنّ بريطانيا لم تشهد استقراراً سياسياً داخلياً حتى قيام الثورة (الجليلة) (**The Glorious Revolution**)[٤] عام ١١٠٠هـ/١٦٨٨م ضد الملك جميس الثاني الذي عرف بميوله الكاثوليكية، مما دفع إلى اتحاد أعضاء البرلمان البريطاني من حزبي التوريز (**Tories**) والويجز (**Whigs**)، ودعوتهم لملك هولندا (ويليم أورانج) البروتستانتي الذي كان متزوجاً من ماري ابنة جميس الثاني[٥]، ليستلم عرش بريطانيا. وأدت هذه الأحداث إلى ازدهار الحياة البرلمانية، حيث أصدر البرلمان عام ١١٠١هـ/١٦٨٩م (إعلان الحقوق)، التي قيدت سلطة الملك، واشترطت موافقة البرلمان على زيادة الضرائب. وبالرغم من أن البرلمان تشكل من كبار التجار وأثرياء بريطانيا، أي أنه

---

(١) _ ليلى، الصباغ، معالم تاريخ أوروبا في العصر الحديث، منشورات جامعة دمشق، ١٩٨١-١٩٨٢، ص ٣٦٠ – ص٣٦٣ .

(٢) _ المركنتلية: التجّارليّة، وهو نظام اقتصادي ظهر وتجذر في أوروبا ما بين القرن السادس عشر والثامن عشر. ومن أبرز أهدافه تعزيز ثروة الدولة عبر اختزان أكبر قدر من الذهب والفضة ، واحتكار التجارة الخارجية ، وحماية الاقتصاد الوطني عبر فرض رسوم جمركية عالية ولقد كان آدم سميث أول من أطلق على هذا المذهب اسم المركنتلية في كتابه (ثروة الأمم) عام ١٧٧٦م، أنظر موسوعة المورد، مجلد ٧، بيروت، ١٩٨٢،ص١٤.

(٣) _ الصباغ، معالم تاريخ أوروبا، ص٣٦٢ .

(٤) _ الثورة الجليلة : سميت بهذا الاسم لأنها كانت ثورة بلا دماء دعم البرلمان والجيش والأسطول فيها وليم أورانج ضد الملك الكاثوليكي جميس الثاني الذي هرب إلى فرنسا. أنظر:

Burns, The Brief History of Britain, p122.

(٥) _ Jonathon, I.Israel, The Anglo Dutch Moment: Essay on The Glorious Revolution, Cambridge University Press, 1991, p4 .

لم يمثل أطياف الشعب كلهم، لكنه عدّ نواة لأول ملكية دستورية في أوروبا التي حكمتها ملكيات مستبدة ذات سلطة مطلقة غير مقيدة[١].

ومع الاستقرار السياسي والحياة البرلمانية في بريطانيا في ظل حكم الملك وليم، بدأ الصراع الفرنسي _ البريطاني الذي كان أبرز سمات القرن الثامن عشر لتحديد القوى العالمية الأكثر نفوذاً[٢].

ومن الناحية الاقتصادية خلال القرن الثامن عشر حققت بريطانيا نقلات نوعية في الاقتصاد بدت واضحة في مجال تطور الصناعة والتجارة والزراعة والنقل. واستمرَّ التطور في هذه المجالات بوتيرة متسارعة قادت إلى تحقيق ثورتها الصناعيّة في أواخر القرن الثامن عشر[٣].

ب _ الأوضاع السياسية والاقتصادية في فرنسا منذ تشكل النظام الأوروبي الاستعماري حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر:

عانت فرنسا في النصف الثاني من القرن السادس عشر من حروب أهلية دينية بين الكاثوليك والبروتستانت (الهغنونت)، واستمر سفك الدماء والفوضى حتى اعتلى العرش أول ملك من أسرة بوربون وهو هنري الرابع[٤] عام ٩٩٨هـ/١٥٨٩م . حاول هنري السيطرة على الوضع عبر التخلي عن معتقده البروتستانتي واعتناقه الكاثوليكية عام ١٠٠٢هـ/١٥٩٣م، ثمّ قام الملك هنري الرابع بخطوة نحو تعزيز الهدوء الداخلي بإصدار مرسوم(نانت) عام ١٠٠٧هـ/١٥٩٨م، وفيه منح حرية العبادة للهغنونت، وسمح لهم بإقامة محاكمهم الخاصة وحكوماتهم المصغرة في مدنهم الهامة [٥] .

سعى هنري بعد ذلك إلى تحسين الأوضاع الاقتصادية في فرنسا عبر تشجيع الزراعة حيث كانت فرنسا تملك ثروة زراعية هامة مقارنة مع أوروبا. إلا أنه لم يستطع إكمال خطواته الاقتصادية، إذ تم اغتياله على يد متعصب كاثوليكي عام ١٠١٩هـ/١٦١٠م واستلمت زوجته(ماري دي ميتشي) وصاية العرش على ابنها لويس الثالث عشر الذي كان يبلغ تسع سنوات. وقفت ماري في وجه النبلاء الذين

---

(١) _ عبدالعزيز نوار، محمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث في عصر النهضة حتى الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٩٠، ص٢٢٣ .

(٢) _ Burns, The Brief History of Britain, p124 .

(٣) _ Jeremy Black , Ashrot History of Britain , Second Edition , Published by Bloomsbury, London , 2007, p 92.

(٤) _ هنري الرابع: هو هنري بوربون ملك نافار استلم عرش فرنسا من عام ١٥٨٩م حتى ١٦١٠م، تنازل عن مذهبه البروتستانتي عام ١٥٩٤م أرضاءً للشعب الفرنسي لإنهاء الحرب الأهلية الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت. قتل عام ١٦١٠م على يد كاثوليكي متعصب في باريس. انظر حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، ص ٢٥٣- ص٢٥٤، ص ٢٦٤.

(٥) _ Lisa Rosner, John Thiebault, A short History of Europe 1600 – 1815, Published by Rout ledge, London, 2000, p17.

حاولوا مشاركتها السلطة وقامت بحل مجلس النبلاء عام ١٠٢٣هـ/١٦١٤م . لكن تدريجياً استطاع الملك لويس الثالث عشر سحب زمام السلطة من أمه وأصبح صاحب القرار الوحيد معتمداً على رئيس وزرائه الكاردينال (ريشيلو) الذي استلم منصبه من عام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م وحتى وفاته عام ١٠٥٢هـ/١٦٤٢م[١] .

عمل ريشيلو على تعزيز سلطة الملك المطلقة، واهتم بجمع الضرائب مما زاد من واردات الخزينة، كما اهتم بالتوسع الاستعماري وأسس شركات تجارية على خطا الشركات الهولندية والبريطانية، وشجع التوسع الاستعماري في كندا وجزر الكاريبي. ركز ريشيلو على بناء جيش حديث لتحقيق طموح الملك في التوسع في أوروبا[٢]. إلا أن اضطراب الأوضاع الداخلية أعاق تلك المشاريع، حيث حاول الملك لويس الثالث عشر تقليص الامتيازات الممنوحة للبروتستانت وحرمانهم من حاميتهم العسكرية مما أثار أعمال شغب عام ١٠٣٧هـ/١٦٢٧م، دعمت فيها بريطانيا البروتستانت ضد الملك. لكن ذلك لم يمنع من حصار مدنهم وخسارتهم الحرب، وبالرغم من استمرار العمل بمرسوم (نانت) إلا أنه تمّ حرمان البروتستانت من حق الحصول على قوة عسكرية أو حكومات تمثلهم .

ومن المفارقات أن فرنسا دعمت الجانب البروتستانتي في الإمبراطورية الجرمانية المقدسة وإسبانيا وذلك لإضعاف حكومة أعدائها من الكاثوليك. واستمرت تلك الحروب من عام١٠٢٨هـ/ ١٦١٨م حتى عام ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م وسميت بحرب الثلاثين عاماً[٣].

ومع وفاة رئيس الوزراء ريشيلو عام ١٠٥٤هـ/١٦٤٤م، توفي الملك لويس الثالث عشر بعده بسبعة أشهر تاركاً ابنه لويس الرابع عشر الذي لم يتجاوز الخامسة من عمره. وفي عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م اضطر الملك الشاب للهرب من باريس بعد أعمال الشغب التي اندلعت احتجاجاً على ضرائب جديدة وانتشار الفساد والفقر. هذه الحادثة جعلت الملك لويس الرابع عشر أقوى إذ أراد إثبات سلطته المطلقة ولقب (ملك الشمس). حتى أنه لم يعين وزيراً بعد وفاة رئيس وزرائه الشهير مازران عام ١٠٧٢هـ/١٦٦١م، معلناً أنه سيكون رئيس وزراء نفسه وأعلن عبارته الشهيرة " أنا الدولة، والدولة أنا" [٤]. امتلك لويس الرابع عشر حق إلغاء أي قرار صادر عن المحكمة العليا، ولتثبيت سلطته المطلقة عمد إلى إلغاء (قانون نانت) عام ١٠٩٧هـ/١٦٨٥م، وبدأت محاكمة البروتستانت مما دفع حول نصف مليون منهم _أغلبهم من التجار والصناعيين_ للهرب إلى بريطانيا وهولندا وبروسيا، وهذا أضرَّ بالاقتصاد الفرنسي الذي كان يعاني أصلاً من حروب الملك التوسعية ضد

---

(1)_ W.Scott Haine, The History of France, Green Wood Press, London, 2000, p51 .

(2)_ Haine, The History of France, p52 .

(3)_ Colin Jones, The Cambridge Illustrated History of France, Cambridge University Press, United Kingdom, 1994, p1.

(4)_ Haine, The History of France, p57 .

الألمان. وزاد العبء الضريبي على عامة الشعب، لأن الكنيسة والنبلاء كانوا معفيين من دفع الضرائب[١] .

وفي ظل هذه الاضطرابات السياسية والاقتصادية الداخلية، كان على فرنسا أن تواجه منافساً قوياً في أوروبا وفي المستعمرات ونعني بذلك بريطانيا، التي كانت تبني نهضتها السياسية والاقتصادية بخطاً ثابتة.

ج_ التنافس البريطاني الفرنسي حتى بداية الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر:

خرجت هولندا من ساحة الصراع الأوروبي بعد هزيمتها أمام بريطانيا في ثلاثينيات القرن السابع عشر والتي حصلت على مستعمراتها في أمريكا الشمالية. ومع نهاية القرن السابع عشر تركز الصراع بين الدولتين القويتين بريطانيا وفرنسا، وقد استمرت الحروب بينهما على فترات متقطعة من عام ١١٠١هـ/١٦٨٩م حتى عام ١١٧٧هـ/١٧٦٣م . وامتدَّ مجال المواجهة بين الدولتين إلى كافة المجالات : الحروب البرية، والسيطرة البحرية، وفي المستعمرات وما وراء البحار، وفي تجارة العبيد في إفريقيا والأمريكيتين[٢] .

ترجع أسباب هذا التنافس إلى عدة عوامل أبرزها: العوامل السياسية التي تتعلق بأطماع السلطات الملكية في كلا البلدين إلى تقويّة نفوذها من خلال السيطرة على أكبر مساحة من أراضي أوروبا والمستعمرات، والعوامل الاقتصادية لأن توسيع المستعمرات يعود بموارد مادية هائلة. وفي فرنسا كان هذا التوسع الاستعماري يتم بتوجيه من الملك وحكومته، لا من التجار الفرنسيين، وانعكس ذلك في السياسة المركزية للدولة ورقابتها الاقتصادية الصارمة التي أعاقت نشاط التجار. وعلى العكس من فرنسا جاء التوسع البريطاني في المستعمرات نتيجة لنشاط رجال الأعمال في تلك المناطق، الذين حصلوا على دعم الأسطول الإنكليزي الذي بدوره اتبع سياسة مركنتلية في احتكاره التجارة البحرية لمصلحة الاقتصاد البريطاني[٣].

وعلى الرغم من تفوق فرنسا عددياً على سكان بريطانيا، حيث بلغ عدد سكان فرنسا عشرين مليون نسمة مقابل ست ملايين نسمة في بريطانيا، وامتلاكها أسطولاً وجيشاً قوياً، إلا أنها خسرت في

---

(١) _ Antony Aclock, Ashort History of Europe from Greek and Romans to The Present Day, Published by Macnillan Press, London, 1998, p146 – 147 .

(٢) _ William R. Nester, The Great Frontiers War: Britain and France and The Imperial Struggles for North America, Praeger Publisher, London, 2000, p1 _ p2 .

(٣) _ الصباغ، معالم تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ص٣٦٢ .

حروبها الاستعمارية مع بريطانيا[١] ويعود ذلك لقدرة الأخيرة على تمويل حروبها الخارجية على النقيض من فرنسا التي عانت من أزمات مالية حادة، إضافة إلى اتباع بريطانيا سياسة استعمارية تقوم على إرسال أعداد كبيرة من المستوطنين من التجار والمزارعين إلى مستعمراتها. وهذا ما ثبّت أقدامها ووطد نفوذها في تلك المناطق[٢].

وأبرز مظاهر هذا التنافس البريطاني _ الفرنسي حروب عدة أهمها :

١"_ حرب الملك ويليام (١١٠١هـ/١٦٨٩م _ ١١٠٩هـ/١٦٩٧م) : سميت بذلك نسبة لملك بريطانيا ويليام أورانج البروستناني، الذي عادته فرنسا الكاثوليكية، وأدى ذلك إلى توتر العلاقة بين البلدين ونشوب الحرب. وكانت أراضي أمريكا الشمالية والهند وأوروبا مسرحاً لأحداثها. وانتهت بتوقيع صلح(ريزويك) لإعادة الأوضاع كما كانت[٣].

٢"_ حرب الملكة آن (١١١٤هـ/١٧٠٢م _ ١١٢٥هـ/١٧١٣م) : وهي جزء من حروب الوراثة على العرش الإسباني، وقد انتقلت إلى المستعمرات في أمريكا الشمالية حيث هاجمت فرنسا المواقع البريطانية، وردت بريطانيا بمهاجمة المستعمرات الفرنسية في كندا. وانتهت الحرب بعقد صلح (أوترخت) عام ١١٢٥هـ/١٧١٣م الذي تنازلت فيه فرنسا لبريطانيا عن جزء من مستعمراتها في أمريكا الشمالية، كما حصلت بريطانيا على امتيازات تجارية من هذه المعاهدة شملت تخفيض الرسوم الجمركية على بضائعها المصدرة إلى فرنسا[٤].

٣"_ حرب الملك جورج (١١٥٦هـ/١٧٤٣م _١١٦١هـ/١٧٤٨م): مثلت هذه الحرب الوجه الاستعماري لحروب الوراثة النمساوية، وفيها تفوقت بريطانيا في أمريكا في حين تفوقت فرنسا في الهند وانتهت تلك الحرب بمعاهدة " ايكس لاشابيل" التي كانت بمثابة هدنة للحرب القادمة بين البلدين[٥].

٤"- حرب السنوات السبع (١١٧٠هـ/١٧٥٦م _ ١١٧٧هـ/١٧٦٢م) : التي شكلت ذروة التنافس الاستعماري الفرنسي _ البريطاني، وفيها حققت بريطانيا انتصارات حاسمة براً وبحراً على فرنسا، حيث سيطرت بريطانيا على مستعمرات فرنسا في كندا، وتوسعت في الهند وسيطرت على البنغال، وانتهت

---

(١) _ Nester, The Great Frontiers War: Britain and France and The Imperial Struggles for North America, p110.

(٢) _ الصباغ، معالم تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ص٣٦٠ .

(٣) _ عبد الكافي الصطوف وآخرون، دراسات في تاريخ أوروبة في العصر الحديث، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠٦-٢٠٠٧، ص ٣٤٦.

(٤) _ نور الدين حاطوم، تاريخ القرن السابع عشر في أوروبا، الطبعة الأولى، دار الفكر للنشر، دمشق، ١٩٨٦، ص٥٦٢ .

(٥) _ الصباغ، معالم تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ص٣٦٥ .

هذه الحرب بتوقيع "معاهدة باريس" عام ١١٧٧هـ/١٧٦٣م التي كانت لصالح بريطانيا[١] حيث أصبحت أعظم قوة استعمارية عالمية لا تغيب الشمس عن مستعمراتها حول العالم .

وفي ظل جميع هذه التحولات السياسية والاقتصادية في بريطانيا، وتراكم الثروات القادمة من مستعمراتها الشاسعة، وتفوقها العسكري، وامتلاكها أسطولاً بحرياً ضخماً، تشكلت العوامل التي أدّت إلى قيام ثورتها الصناعيّة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، حيث تعدُّ نقطة تحول بالنسبة إليها وإلى أوروبا والعالم عموماً .

٣_ روسيا سياسياً واقتصادياً حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر:

برزت روسيا في أواخر القرن السابع عشر، بعد أن استلم العرش القيصر (بطرس الكبير) (١٠٩٤هـ/١٦٨٢م _ ١١٣٨هـ/١٧٢٥م) الذي وجد روسيا منغلقة ومتأخرة عن أوروبا، وتسودها علاقات إقطاعيّة، واقتصادية متخلفة. لكنَّه بدأ بالتركيز على تقوية الجيش على النمط الأوروبي. وذلك بعد زيارته لأوروبا عام ١١٠٩هـ/١٦٩٧م حيث أحضر معه خبراء أوروبيين في كافة المجالات وقام ببناء أسطول حديث لمواجهة السويد في بحر البلطيق، والأتراك في البحر الأسود، وكان هدفه فتح الطريق أمام روسيا إلى المياه الدافئة (أي التي تصلح للملاحة). وأنشأ عاصمته الجديدة على سواحل بحر البلطيق واسمها (بطرسبورغ). وانتصرت روسيا على السويد في حروب عام ١١١٢هـ/١٧٠٠م _ ١١٣٤هـ/١٧٢١م [٢].

أما من ناحية الاصلاحات الاقتصادية، اهتمَّ (بطرس الكبير) ببناء قاعدة اقتصادية حديثة ومع حلول عام ١١٣٨هـ/١٧٢٥م كان هنالك أكثر من مئتي مصنع ينتج البارود والنسيج والزجاج والجلد. وضاهت روسيا بريطانيا في إنتاج الحديد، ومن أجل تغطية نفقات هذه الإصلاحات، قام القيصر بطرس بتعديل النظام الضريبي حيث أوجد ضريبة على كل فرد بالغ مما زاد عائدات الخزينة[٣].

لكن بطرس الأكبر لم يتأثر بالحياة البرلمانية في أوروبا، وكانت الحرية السياسية معدومة في روسيا وكان القيصر يمتلك سلطة مطلقة. ومع وفاة القيصر بطرس الكبير عام ١١٣٨هـ/١٧٢٥م دون تحديد وريثاً للعرش، تسلمت العرش زوجته كاترين الأولى حتى وفاتها ١١٤٠هـ/١٧٢٧م ، وبعدها سادت فترة من الاضطرابات والدسائس للوصول إلى العرش من قبل أقارب بطرس الكبير حتى استلمت ابنته إليزابيث عام ١١٥٤هـ/١٧٤١م _ ١١٧٦هـ/١٧٦٢م، التي اهتمت في عهدها ببناء

(1)_ Danial Baugh, The Global Seven Years War 1754_1763, Published by Routledge, London, 2014, p62

(2)_ Aclock, Ashort History of Europe, p153 .

(3)_Michael Kort, A Brief History of Russia, Boston University, 2006, p56.

القصور مثل القصر الشتوي الذي هو متحف (الارميتاج حالياً) كما اهتمت بالعلوم وأنشأت جامعة موسكو. وفي عهدها وقفت روسيا إلى جانب فرنسا والنمسا ضد بروسيا في حرب السبع سنوات[١].

وبعد وفاة الملكة إليزابيث ومقتل ابنها بطرس الثالث استلم العرش زوجته الألمانية كاترين الثانية من عام ١١٧٦هـ/١٧٦٢م _ ١٢١٢هـ/١٧٩٦م، وأصبحت روسيا في عهدها دولة قوية[٢] تحسب لها أوروبا ألف حساب، وخصوصاً نتيجة أطماع روسيا في التوسع في الأراضي العثمانية مما جعل فرنسا وبريطانيا في حالة تأهب دائم اتجاه التحركات الروسية .

ثانياً) : موجز أبرز الأوضاع العثمانية في الميادين السياسية والاقتصادية حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر :

تعد السلطنة العثمانية مثالاً جلياً على نظرية ابن خلدون، التي تحدث عنها في مقدمة كتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر" عن أطوار الدول، حيث بدأت من مرحلة القبيلة البدوية وعصبية المجموعة الحاكمة وقوتها، ثم تشكيل الدولة، وبعدها طور الاستبداد والانفراد بالسلطة، ثم الانغماس بحياة المدنية والرفاهية والتبذير، وصولاً إلى طور الضعف والتفكك[٣]. ونقف عند أبرز أوضاعها السياسية والاقتصادية فيما قبل قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا .

١ – موجز عن أبرز أوضاع السلطنة العثمانية من الناحية السياسية حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر :

انتهت فترة القوة العثمانية بعد وفاة السلطان "سليمان القانوني" ٩٧٤هـ/١٥٦٦م بعدما هزّ عروش أوروبا، ووصلت قواته أسوار النمسا، ووطد سلطانه في الشرق والغرب[٤]، واستكمل السيطرة على الولايات العربية ماعدا المغرب. لكنّ السلاطين العثمانيين الذين حكموا بعده انغمسوا في حياة الترف والجواري، وأهملوا شؤون الشعب، فاستشرى الفساد الإداري في البلاد بعدما أسندت مهام السلطان للصدر الأعظم، مما أدى إلى ضعف السلطنة، وترافق ذلك مع فساد المؤسسة العسكرية الانكشارية[٥]

---

(١) _ Kort, A Brief History of Russia, p60_ 61.

(٢) _ I bid, p62.

(٣) _ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١، ص٣٦٧– ٣٦٨.

(٤) _ محمود علي عامر، تاريخ الإمبراطورية العثمانية دراسة تاريخية اجتماعية، الطبعة الأولى، دار الصفدي للنشر، دمشق، ٢٠٠٤، ص٢٤٦ .

(٥) _ الانكشارية : تعني القوات الجديدة، وهي فيالق عسكرية تكونت من أبناء رعاية الدولة الذين تمَّ جمعهم في عمر ما بين السادسة والخامسة عشر من مختلف الولايات العثمانية في أوروبا. وقد قدمت الانكشارية خدمات كبيرة للدولة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ثمَّ فسد نظامها وأثارت مشاكل كبيرة في الدولة العثمانية. وقد تمردت على الدولة فأبادهم السلطان محمود الثاني في مذبحة جرت في الأستانة عام ١٨٢٦م. انظر سهيل–

التي تتالت هزائمها على جبهة أوروبا، وتحولت لأداة داخلية ترهب الشعب، فتثور بعد كل هزيمة خارجية لتحدث اضطرابات داخلية[١].

وعلى العكس من غالبية أوروبا التي كانت تركز السلطة في أيدي الملوك والأمراء، كانت السلطة السياسية تخرج من يد السلاطين العثمانيين. ففي عام ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م منح السلطان محمد الرابع سلطاته التنفيذية لوزيره أحمد كوبرلي، وتوارثت عائلة كوبرلي منصب الصدر الأعظم عقوداً طويلة وعندما حاول السلطان مصطفى الثالث توحيد السلطة السياسية في يده باءت محاولته بالفشل وانتهت بعزله عام ١١١٥هـ/١٧٠٣م[٢].

وتواصل تقلص سلطة السلاطين بشده خلال القرن الثامن عشر لصالح توسع سلطة الأعيان حكام المقاطعات الذين عززوا سلطتهم المحلية متحررين من قبضة السلطة المركزية في استانبول[٣].

وفي ظل هذا الضعف السياسي والعسكري ظهرت أطماع الدول الأوروبية في السلطنة العثمانية، وتحولت الامتيازات، التي منحتها السلطنة العثمانية للأوروبيين في دور القوة وسيلة للتدخل في شؤونها، واكتفت الدول الأوروبية بالامتيازات مؤقتاً لأنها كانت تخوض حروباً في أوروبا مثل حرب الوراثة بالنمسا (١١٥٣هـ/١٧٤٠م _ ١١٦١هـ/١٧٤٨م) وحرب السبع سنوات (١١٧٠هـ/١٧٥٦م _ ١١٧٧هـ/١٧٦٣م) بين فرنسا وبريطانيا. وساد النفوذ الفرنسي في استانبول في هذه الفترة، في حين برزت روسيا باعتبارها العدو الأول للعثمانيين في الشمال، واستمرَّ الصفويون كأبرز عدو للسلطنة من الشرق. وفي عهد السلطان "محمود الأول" (١١٤٣هـ/١٧٣٠م _ ١١٦٣هـ/١٧٥٤م) عقد صلحاً بين روسيا والنمسا من جهة، والعثمانيين من جهة أخرى، بكفالة فرنسا التي عدلت امتيازاتها في السلطنة بحجة الصداقة بين البلدين[٤].

لكن في عهد السلطان مصطفى الثالث (١١٧١هـ/١٧٥٧م _ ١١٨٨هـ/١٧٧٤م) وصلت كاترين الثانية إلى عرش روسيا عام ١١٧٦هـ/١٧٦٢م وشنت حرباً على العثمانيين واحتلت فيها بولندا وحقق

– صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد، الرياض، السلسلة الثالثة، ٢٠٠٠، ص٤١.

(١) _ عامر، تاريخ الإمبراطورية العثمانية دراسة تاريخية اجتماعية، ص٢٨٣ .

(٢) _ Donal Quataert, The Ottman Empire 1700 – 1922, Cambridge, University Press, United Kingdom,2000, p43 .

(٣) _ Dana Sajdi, Ottoman Tulips, Ottoman coffee : Leisure and Lifestyle in The Eighteen Century, I B Tauris Publishers, London, 2014, p5 .

(٤) _ شكيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دمشق، ٢٠٠٠، ص٢٤٦_٢٤٧ .

الروس انتصارات كبيرة، واقتربت سفنهم الحربية من العاصمة استانبول. لكن القوات العثمانية البحرية استعادت زمام المبادرة وطردت الأسطول الروسي من المياه العثمانية[١].

كما عانت السلطنة العثمانية من حركات التمرد الداخلية التي لم تتوقف منذ نشوئها، ويعود ذلك لإهمال السلطنة الشؤون الداخلية لولاياتها، حيث كان همُّها أن توفر هذه الولايات لها الأموال الأميرية والضرائب المستحقة، وأن تضمن استمرار ولاء الولاة لها بغض النظر عن سياستهم مع الرعية وفسادهم أو صلاحهم[٢].

٢- موجز عن أحوال السلطنة العثمانية من الناحية الاقتصادية حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر:

أدت الحروب الخارجية المتكررة، والفوضى الداخلية، وفقدان الأمن، وازدياد الضرائب، وخنق روح الابتكار والتجديد إلى تخلف الزراعة والتجارة والصناعة، فمن الناحية الزراعية لم يتم تحسين أساليب وأنواع المحاصيل، ولم تتواجد خبرات تقنية جديدة، وسيطرت العلاقات الإقطاعيّة التي أدت إلى تأخرها إضافة إلى انتشار الأوبئة والأمراض الخطيرة ، مثل مرض الطاعون الأسود الذي قتل سنة (١١٥٢هـ/١٧٣٩م _ ١١٥٣هـ/١٧٤٠م) ٢٠% من سكان مرفأ أزمير على شاطئ المتوسط، وتكرر الوباء في السنوات المتلاحقة[٣]، وحدثت أيضاً موجات جفاف أو فيضانات أضرت بالزراعة .

أما فيما يتعلق بالتجارة والصناعة في السلطنة فقد لحق بها الضرر الكبير نتيجة لما ذكرنا، إضافة إلى السياسة الاقتصادية للسلطنة التي ارتكزت على تأمين مورد ثابت ووفير ورخيص من المؤن للعاصمة والجيش، والحفاظ على التقاليد الاقتصادية الموروثة، والسيطرة على عوامل الإنتاج المتضمنة الأرض والعمل ورأس المال، ولم تكن زيادة الإنتاج والتصدير ضمن خطط الدولة الاقتصادية[٤]، كما لم تشمل أهداف سياستها الاقتصادية حماية رأس المال الوطني والطبقة البرجوازية لا الكبيرة منها أو الصغيرة ولاسيما الحرفيين وأصحاب المشاريع الصغيرة في ظل اضطراب قيمة العملة وانخفاضها المستمر، وزيادة الضرائب على الصادرات، في حين كانت الواردات الأوروبية لا

---

(١) _ عامر، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، ص ٢٩٤ _٢٩٥ .

(٢) _ محمد، أبو جبل، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، ص ٢٤٤- ٢٤٥.

(٣) _ ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ترجمة أسعد صقر، الطبعة الأولى، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٧، ص٢٤٤ _ ٢٤٥ .

(٤)_ Bruce Masters, Gabor Agoston, Encyclopedia of The Ottoman Empire InfoBase Published, New York, 2009, p192 – 193 .

تخضع إلا لضرائب قليلة نتيجة للامتيازات التي منحتها السلطنة لهذه الدول[١]، وهذا يعني أن السلطنة العثمانية لم تهتم بالتجارة والصناعة الوطنية ولم تحمها جمركياً .

وفي البداية كانت السلطنة تشعر بالتفوق على الأوروبيين، فرفضت الأخذ عنهم أو تقليدهم، ومنحتهم الامتيازات إبان فترة قوتها إثباتاً لتفوقها، بهدف تحقيق أغراض سياسية، لكنها لم تعنَ بانعكاساتها المضرة على الاقتصاد الوطني خصوصاً في طور ضعف السلطنة. ولما كانت الصبغة العسكرية هي أبرز سمات السلطنة طوال تاريخها، فهي لم تول أمور الاقتصاد وتطويره وإدخال التقنية الحديثة كل الاهتمام، ولم نحصل على مرجع يتحدث عن صادرات السلطنة أو وارداتها قبل القرن التاسع عشر[٢].

ولم تمنح حروبها المتواصلة داخلياً وخارجياً حكامها الهدوء والاستقرار لبناء الدولة اقتصادياً، إذ أن الحروب أرهقت الدولة، وترافق ذلك مع ضعف مقدرة السلاطين أنفسهم في الإدارة والحكم، حيث تعرض الكثير منهم للسجن في أقفاص حديدية لسنوات عديدة قبل استلامهم السلطة، أو لانغماسهم في ملذات القصور، ووقوعهم في أحضان الجواري الأوروبيات اللواتي كنّ حريصات على تحقيق أطماع وغايات الدول التي أتين منها[٣].

وبينما استمر تدفق الأوروبيين بالسفر إلى السلطنة العثمانية، على العكس لم يفكر مسلمو السلطنة بالسفر إلى أوروبا أو التجارة فيها[٤]، لأنهم كانوا يعتبرونها كافرة وضالة، وكان التجار الإيطاليون تلاهم الفرنسيون ثم البريطانيون الأكثر في السلطنة خصوصاً في سوريا _ الشام[٥]، ولقد تمتع هؤلاء التجار الأوروبيون بنظام الامتيازات الممنوح من السلطان دليلاً على كرمه، والذي تتنازل فيه السلطنة عن حقوق دينية واقتصادية وقضائية لمصلحة الأوروبيين، وقد بدأ السلطان سليمان القانوني بمنح هذه الامتيازات لملك فرنسا عام ١٥٣٥م ثم عدلت وتوسعت لتشمل انكلترا عام ٩٨٨هـ/١٥٨٠م _ ٩٩٠هـ/١٥٨٣م، ثم هولندا عام ١٠٢٢هـ/١٦١٣م وروسيا والنمسا عام ١١٣٠هـ/١٧١٧م _ ١١٣١هـ/١٧١٨م[٦].

وتنافست هذه الدول للحصول على حقوق ما دعته حق حماية الأقليات الدينية في السلطنة العثمانية، وعلى منح حمايتها لتجار وموظفين من أبناء السلطنة كي تتحكم بها وتستخدمهم لبث

---

(١) _ شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩١، ص٨٩ .

(٢) _ المرجع نفسه، ص١٣٠ .

(٣) _ عامر، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، ص١٢٠ _١٢١ .

(٤) _ عيساوي، تأملات في التاريخ العربي، ص٩٠-٩١.

(٥) _ Philip Hitti, History of Syria, London, 1951, p670 _671 .

(٦) _ هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، ص٦١ .

التفرقة وضرب وحدة السلطنة، ولقد أصبح أصحاب هذه الامتيازات ذوي سلطات واسعة ويتصرفون كأنهم دولة داخل دولة[١].

ثالثاً) : موجز عن أبرز الأوضاع السياسية والاقتصادية في الوطن العربي ومنه سوريا _ الشام حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا في القرن الثامن عشر:

١ – موجز عن أبرز الأوضاع السياسية للوطن العربي وبخاصة سوريا _ الشام حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا :

بدت علامات ضعف السلطنة العثمانية واضحة في القرن الثامن عشر وتمثلت بانتقال السلطة في معظم ولاياتها إلى أسر محلية تتوارث الحكم، كما حدث في ولايات الأناضول وأوروبا والوطن العربي ماعدا الولايات القريبة من السلطة المركزية في العاصمة. ففي العراق كان من يرغب بأن يصبح والياً على بغداد أن يبذل جهده في استانبول لاسترضاء السلطان أو حاشيته للحصول على المنصب. لكن الحال تغير منذ عام ١١٦٣هـ/١٧٥٠م عندما بدأ حكم المماليك، وأصبح أي مملوك يستطيع حكم بغداد إذا تمكن من التغلب على منافسيه وإرضاء الأعيان والعلماء الذين يكتبون عريضة للسلطان يرجون منح الولاية لهذا المملوك[٢].

وفي الحجاز كان شرفاء مكة هم أصحاب السلطة، وتواجد إلى جانبهم والي عثماني يقيم في مدينة جدّة على ساحل البحر الأحمر. أما في اليمن كانت أسرة الأئمة الزيديين هي المسيطرة، ولم يكن الولاة من استانبول سوى ممثلين اسميين للسلطان[٣].

وفي مصر وبسبب موقعها الهام على البحر المتوسط والأحمر، كانت السلطنة ترسل والياً من استانبول، ثمّ تعزله عند اكتسابه الكثير من النفوذ والسلطة، وبالرغم من ذلك كانت معظم الوظائف الكبرى وجمع الضرائب تحت سيطرة الجماعات المملوكية ذات النفوذ الواسع في مصر[٤].

وبالنسبة لولايات المغرب الثلاث، وجدت سلالات حاكمة اعترفت بها استانبول كولاة، بعد أن كانوا قادة جيوش محلية وفرضوا سلطتهم على الأرض، فمنحوا لقب "الباي" في تونس وطرابلس ولقب

---

(١) _ الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص١٨٥ .

(٢) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، ص٤٩٣ .

(٣) _ اسماعيل ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، دار العبيكان للنشر، الرياض، ٢٠٠٣، ص٨٥ .

(٤) _ حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ص٢٦١.

"الداي" في الجزائر، ولقد اشتهرت هذه الولايات بالقرصنة البحرية، وأسر مراكب الدول الأوروبية التي تخوض حروب مع السلطنة، وانتهت هذه القرصنة مع نهاية القرن الثامن عشر[١].

أما فيما يتعلق بأوضاع سوريا _ الشام السياسية التي تم تقسيمها منذ احتلال العثمانيين لها في القرن السادس عشر إلى ثلاث ولايات لتسهيل السيطرة عليها وهي ولاية حلب، ولاية دمشق، ولاية طرابلس، ثم أضيف إليها في عام ١٠٧١هـ/١٦٦٠م ولاية صيدا التي ضمَّت المناطق الساحلية لبلاد الشام (حيفا، عكا، يافا، وغيرها)[٢]. وتفاوتت سياسة العثمانيين في هذه الولايات، بالنسبة لولاية حلب القريبة من العاصمة والتي تقع على طريق رئيسي هام، كان يتم تعيين ولاتها من قبل الحكومة مباشرة[٣]، ووجد فيها منصب نقيب الأشراف الذي يتمتع بسلطة عالية ويحمل العلامة الخضراء .

أما في دمشق التي كانت محط اهتمام السلطان العثماني باعتبارها مركز لتجمع قافلة الحج ذات الأهمية الكبيرة للمسلمين، وذات مركز تجاري هام، وبعد أن شهدت دمشق أحداث دامية بسبب نزاع الإنكشارية السلطانية (القابي قول)[٤] والإنكشارية المحلية (اليرليه)[٥]، ومع ازدياد النفوذ المحلي في بلاد الشام الذي ترافق مع ضعف السلطة العثمانية في القرن الثامن عشر، برزت أسرة آل العظم الذين تولوا الحكم في سوريا لمدة ستين عاماً[٦].

وفي ولاية طرابلس الشام كان يتم تعيين والي عثماني، في حين دعمت الحكومة العثمانية الأسر الإقطاعيّة في لبنان بعضها ضد بعض لتحكم السيطرة عليها، وكانت هذه الأسر تتوارث الحكم في مناطقها مثل آل أرسلان في الشوف، وبني حرفوش في البقاع، وبني عساف في كسروان[٧].

---

(١) _ حوراني، تاريخ الشعوب العربية ، ص٢٨٦ .

(٢) _ ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، ص١٠٧ .

(٣) _ حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ص٢٨٦ .

(٤) _ القابي قول :لفظ مركب بمعنى الباب، وقولي بمعنى عبيد، أي عبيد الباب ويطلق على مجموع جنود الدولة العثمانية الذين يشكلون فرق المشاة والخيالة العاملين بأجر. انظر صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص ١٧٢.

(٥) _ الانكشارية (اليرليه): أي المحلية وجاءت نتيجة الاندماج بين الانكشارية وأهالي دمشق عبر الانخراط في الأنشطة الاقتصادية أو المصاهرة. انظر محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، ص٢١٠-٢١١.

(٦) _ ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، ص١٠٣ .

(٧) _ المرجع نفسه، ص٨٤ .

٢_ موجز عن أبرز الأوضاع الاقتصادية للوطن العربي وبخاصة سوريا _ الشام حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا:

كان الوطن العربي لا يزال يعيش تحت ظلال ازدهار اقتصاده الماضي، الذي كان مسيطراً فيه على طرق التجارة البحرية والبرية على الصعيد العالمي، ولاسيما مع أوروبا، لكنه راح يتدهور تدريجياً نتيجة عدة عوامل أبرزها :

أ _ ازدياد قوة الدول الأوروبية وتركيزها على تحقيق مصالحها القومية في بناء اقتصاد قوي .

ب _ الضعف التدريجي للسلطنة العثمانية الذي مكّن الدول الأوروبية من الحصول على امتيازات اقتصادية، أضعفت الاقتصاد داخل السلطنة عموماً وفي الولايات العربية خصوصاً .

وهكذا كانت بداية نهاية الهيمنة البرجوازية العربية الإعمارية على التجارة الدولية لمصلحة الهيمنة الأوروبية الاستعمارية(١). وترافق ذلك مع سوء السياسة الاقتصادية العثمانية في الولايات العربية، لأن الدوائر الحكومية العثمانية صبّت اهتمامها على خلق ظروف مناسبة لسحب أكبر قدر من الأموال للإنفاق على الجيش، وعلى الطبقة الحاكمة، وازداد سلب الولايات العربية الخاضعة للحكم العثماني بسبب إخفاقات الجيش المتتالية، وكان يطلب من الأثرياء تغطية نفقات الحروب العثمانية كما توضحه إحدى الوثائق المرسلة من العاصمة استانبول إلى ولاية حلب(٢).

وكانت الدولة العثمانية تعتبر نفسها المالك الحقيقي لكل الأراضي الزراعية، فاقتطعت لجنودها أرضاً لتأمين مرتباتهم وجمع الضرائب منها. أما في فترة ضعف السلطنة استطاع كبار رجال الدولة والقصر والولاة امتلاك أراضي كثيرة(٣). وعانى الفلاحون من ظلم أصحاب الأراضي وكثرة الضرائب ويذكر المفكر " ابن خلدون " أضرار الضرائب وارتباطها بمراحل قوة الدولة وضعفها فكتب مايلي : "الجباية في أول الدولة تكون قليلة الذرائع، كثيرة الجملة، وآخر الدولة تكون كثيرة الذرائع، قليلة الجملة، وتكون الدولة قليلة الحاجات لعدم الترف وإذا انغمسوا بالنعيم والترف يكثرون الوظائف ويكرهون الفلاحين على دفع الضرائب"(٤) وهذا هو حال الدولة العثمانية وسياستها في الولايات العربية. وترافق ذلك مع تضخم نقدّي في السلطنة، نتيجة تدفق الفضة والذهب من المستعمرات إلى أوروبا، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار في الدول التي تصدّر نقداً فضياً كما هو حال السلطنة العثمانية التي كانت تعتمد

---

(١) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث، ص٧١ .

(٢) _ أوامر سلطانية حلب، دار الوثائق التاريخية في دمشق، مجلد ١٢، ص٦-٧، وثيقة رقم ٧، ربيع الأول ١١٨٨/١٧٧٤ .

(٣) _ عبدالكريم غرايبه، سوريا في القرن التاسع عشر، دار الجيل للطباعة، دمشق، ١٩٦٢، ص٢٩ .

(٤) _ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ص٣٤٤ .

على (الأقجة)[١] كوحدة نقدية أساسية والتي كانت تزن أربعة غرامات، وبدأ وزنها يتناقص تدريجياً حتى سنة ١٨١٨/١٢٤٣ في عهد السلطان محمد الثاني فلم تعد تُضرب هذه العملة[٢].

وأثّر هذا التضخم أيضاً على أصحاب الحرف والتجار الذين عملوا على كنز أموالهم خوفاً من تعسف السلطات العثمانية، وعانوا من منافسة التجار الأوروبيين الذين تمتعوا بنظام الامتيازات والتسهيلات الاقتصادية والحماية من الحكومة العثمانية . وفي ظل حكومة دينية إقطاعيّة عسكرية خففت روح الابتكار لدى الشعوب العربية، ولم تشجع المشاريع الإنتاجية، واقتصر الاقتصاد لديهم على منع الغش والحث على الأمانة والقسط في الميزان[٣].

وبالرغم من كل ما سبق وبفضل الموقع الاستراتيجي للوطن العربي حافظت مدنه الرئيسية على انتعاش اقتصادي نسبي حتى بدايات القرن الثامن عشر، فكانت القاهرة مركز تجاري هام واستمر ازدهار ميناء جدة على البحر الأحمر حيث كانت تصله سفن التوابل القادمة من الهند[٤]. واستمرت القوافل التجارية تصل من الشرق عبر العراق إلى مدن سوريا الشام ثم إلى أوروبا[٥].

وبالنسبة لأوضاع سوريا _ الشام الاقتصادية حتى قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا، عانت سوريا_ الشام من بطش وسوء سياسة حكومة الاحتلال العثماني بشكل أوضح من بقية أجزاء الوطن العربي وذلك لقربها من مركز العاصمة، وتراجعت الزراعة في المناطق الخصيبة وعلى أطراف الصحراء السورية بسبب الفوضى وغزوات البدو المتكررة في القرن السابع عشر[٦]. وازدادت الهجرة إلى المدن التي عانت من سوء الإدارة العثمانية، وظلم الولاة الذين أهملوا ولاياتهم بسبب عدم استقرار الولاة في مناصبهم لفترة طويلة وفقدانهم الدافع الوطني لتشجيع الاقتصاد، ومثال على ذلك ما حدث عندما طلب تجار حلب من والي طرابلس اعمار (ميناء اللاذقية) الذي يتبع لولاياته من أجل تسهيل نقل البضائع من وإلى حلب فكان رد الوالي " ماذا يهمني حالة اللاذقية بعد عشر سنين فقد كنت

---

(١) _ عبدالكريم رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، مكتبة نوبل، دمشق، ٢٠٠٢، ص٢٦٢ .

(٢) _ صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص٢٠.

(٣) _ عيساوي، تأملات في التاريخ العربي، ص١٢٦.

(٤) _ خليل اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد الأرناؤوط، الطبعة الأولى، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢، ص١٩٧ .

(٥) _ الأمير عبدالعزيز الحسيني، تاريخ سوريا الاقتصادي، دمشق، ١٩٢٣، ص١٤٢-١٤٣ .

(٦) _ Bruce Masters, The Arab of The Ottman Empire 1516-1918, Cambridge University Press, London, 2013, P74

البارحة بمرعش وربما أكون غداً في جدة، فلماذا أحرم نفسي الحاضر لتأمين فائدة مستقبلية لست أميناً عليها"[١].

وكانت مدينة القدس قليلة السكان وحمص وحماة تعانيان الانحطاط الاقتصادي، في حين حافظت دمشق على نوع من الازدهار المالي بفضل قافلة الحج الشامي، ولكن عانى سكانها من ارتفاع الأسعار المتواصل وهذا ما ذكره الحلاق أحمد البديري " إن ارتفاع الأسعار ظل مستمراً في دمشق ليشمل أسعار (العلق) الذي يستخدمه الحلاقون في سحب الدم"[٢].

أما حلب استمرت مزدهرة بفضل موقعها الجغرافي وارتباطها بالأناضول ومن ثمّ أوروبا[٣]، ووصلت إليها قوافل التجارة من الهند عبر العراق، كما قصدها التجار الأجانب من البندقية وأوروبا، إلا أنَّ الضرائب العثمانية أثقلت كاهل أهلها وتجارها كما تبين ذلك وثيقة عثمانية بأمر سامي لإحضار شيخ التجار في حلب إلى الأستانة لأنه لم يدفع الضرائب المترتبة عليه وامتنع عن ذلك[٤].

إن التراجع العثماني الاقتصادي المتواصل المترافق مع سياسة القهر والقمع وما شهدته سوريا _ الشام من كوارث وأمراض ومجاعات وحروب أدى إلى انحطاط تدريجي أصاب كافة مناحي الحياة بدأت تظهر ملامحه منذ القرن الثامن عشر.

---

(١) _ الحسيني، تاريخ سوريا الاقتصادي، ص ١٤٨.

(٢) _ أحمد البديري الحلاق، حوادث دمشق اليومية، تنقيح محمد سعيد القاسمي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٨، ص ٢٢٧.

(٣) _ الحسيني، تاريخ سوريا الاقتصادي، ص١٣٨-١٣٩.

(٤) _ أوامر سلطانية حلب، دار الوثائق التاريخية في دمشق، مجلد ١٢، ص ١٥، وثيقة ١٨، جماد الثاني ١١٨٨هـ/١٧٧٤م.

الفصل الثاني

موجز عن قيام الثورة الصناعيّة البريطانية
وتأثيراتها الداخلية والعالمية

أولاً) : ماهيَّة الثورة الصناعيّة في بريطانيا وعوامل قيامها في القرن الثامن عشر :

١ – ماهيَّة الثورة الصناعيّة، ماهيتها في بريطانيا :

اختلف المؤرخون حول ماهيَّة الثورة الصناعيّة وتاريخ انطلاقها، واتَّفق معظمهم أنَّها لم تكن حدثاً مفاجئاً، بل كانت نتيجة تحولات تدريجية في الاقتصاد الحديث خصوصاً وفي الاقتصاد على مرّ التاريخ عموماً. وبعض المؤرخين يرجعون جذورها إلى آلاف السنين ويتحدثون عن العصر الحديدي حوالي ١٠٠٠ ق.م وكيف مازال الحديد المستخدم في صناعة الصلب عنصراً مؤثراً في الثورة الصناعيّة في العصور الحديثة[١]. وبالتأكيد من الخطأ إنكار دور التواصل الحضاري بين الشعوب لتحقيق الإنجازات الإنسانية المتقدمة، لأنَّ الحضارة هي علاقة جدلية من تأثير وتأثر تدفع التطور البشري على مختلف الصعد .

وإذا كانت وجهة النظر السائدة في أوروبا ترى في الثورة الصناعيّة البريطانية أسطورة ذاتية المنشأ والنمو، وتبالغ في دور العبقرية الأوروبية أو ما أسمته (أسطورة الغرب) التي تعتبر الثورة الصناعيّة أرقى إنتاج العقل الأوروبي[٢]، فهذا أمر مبالغ فيه من وجهة النظر التاريخية. فبالرغم من جميع العوامل الداخلية التي مهدت لقيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا، لا يمكن أن تؤدي إلى ولادة الاختراعات من العدم دون توفر أرضية علمية وتجارب سابقة، ولا بد أن نتساءل كيف يمكن لأوروبا أن تنهض من لا شيء بعد ظلام العصور الوسطى لتحقق نهضتها ثمَّ ثورتها الصناعيّة، فنجد أنَّ ذلك التقدم تمَّ عبر اتصالها بحضارات المشرق العريقة، وقد أشرنا في التمهيد إلى دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية في القرنين الرابع والخامس عشر ميلادي والتي نقلت أوروبا عنها خلال هذه الفترة أهم الاختراعات الهندسية والصناعيّة وكيفيّة استخدام مصادر الطاقة الطبيعية من الرياح والمياه [٣]. قد عرف العرب الآلات الميكانيكية وصناعة النسيج والفخار والصلب قبل الغرب بعدة قرون، ولا نبالغ إذا اعتبرنا مخترعات الثورة الصناعيّة البريطانية ما هي إلا إعادة اكتشاف

---

(١) _ Tim, MC.Neese, The Industrial Revolution, Milliken Published Company, Missouri, 2000, p1.

(٢) _ جورج قرم ، تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب ، ترجمة رلى ذبيان ، دار الفارابي، بيروت ، ٢٠١١، ص ١٧٠_ ١٧١.

(٣) _ Salim, AL_Hassani, The Journey of Automatic Machines in Muslim Civilization. www.muslim heritage.com/article/

للآلات العربية. إلا أنَّ نقطة التحول بالنسبة لهذه الآلات التي تمَّ إعادة اختراعها، هي استخدام الطاقة البخارية في تشغيلها مما سرّع عملها وإنتاجها وأدت إلى تغير حياة البشرية بطريقة ثورية[١] .

لذلك جاءت تسمية الثورة الصناعيّة لتعبر عن التغيرات الجذرية التي حدثت تدريجياً في بريطانيا وأوروبا والعالم، على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكانت نتيجة لجهود الإنسان المتواصلة لإيجاد مصادر طاقة جديدة وآلات متطورة غيرت أساليب الإنتاج والحياة، وأحلت الآلة محل العمل اليدوي .

وتعدّ الثورة الصناعيّة في بريطانيا نتاجاً لمجموعة من الثورات والتحولات في القطاع الزراعي والديمغرافي وفي مجالات المواصلات والنقل والتجارة. وتميزت هذه المرحلة بزيادة عدد سكان بريطانيا وانتقالهم من الحياة الزراعية إلى المدن الصناعيّة الناشئة، وتفكك العلاقات الإقطاعيّة لمصلحة اتساع دائرة الرأسمالية الحديثة[٢].

أما بالنسبة لتاريخ انطلاق الثورة الصناعيّة في بريطانيا، يرى الباحثون أنَّ شرارة الثورة الصناعيّة كانت اختراع المحرك البخاري سنة ١١٨٣هـ/١٧٦٩م، لكن هناك من يرجعها إلى تجارب الاختراعات الأولى في بدايات القرن الثامن عشر ومحاولات البحث والإخفاق والنجاح، خصوصاً في مجال إيجاد مصادر طاقة جديدة بدلاً من استخدام الخشب وطاقة المياه والرياح، مثل آلة نيوكومن عام ١١٢٤هـ/١٧١٢م التي اعتمدت على البخار الجوي لتحريك مضخات لسحب الماء من المناجم. ثم ظهرت اختراعات جديدة في مجال النسيج بدأت باختراع (جون كاي)(المكوك الطائر) ١١٤٦هـ/١٧٣٣م الذي سرّع عملية حياكة القماش لتأتي بعده عدَّة تحديثات في مجال الغزل جعلت بريطانيا تتصدَّر إنتاج النسيج في العالم[٣].

وأطلق الباحثون على المرحلة الأولى من الثورة الصناعيّة في بريطانيا الدور الأساسي أو المرحلة الأولى، وبالرغم من صعوبة الفصل بين حلقات التاريخ بنسبة محددة، تعتبر ثلاثينيات القرن التاسع عشر نهاية لهذا الدور وذلك مع بدء شمول التغيرات الصناعيّة أوروبا ومع تسارعها فيما بعد، عندما ألغت بريطانيا قرار منع تصدير المكائن من البلاد[٤].

---

(١) _ جويس أبلبي، الرأسمالية ثورة لا تهدأ، ترجمة رحاب صلاح الدين، مؤسسة هنداوي للنشر، القاهرة، ٢٠١٤، ص١٤٠.

(٢) _ Phyllis.Deans, The First Industrial Revolution, Cambridge University Press, Great Britain,1979, p1.

(٣) _ Lionel, Willems, On The Supply Chain in The Fourth Industrial Revolution ,Published by Grain Verlag, 2018, p8.

(٤) _ كارلتون، هيز، الثورة الصناعيّة ونتائجها السياسية والاجتماعية، ترجمة أحمد عبد الباقي، الطبعة الثانية ، منشورات دار المثنى، بغداد، ١٩٦٢، ص١٠٩.

والسؤال هو: لماذا كانت الثورة الصناعيّة في بريطانيا دون غيرها من الدول؟ الجواب سنراه في الفقرات الآتية :

٢ – عوامل قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا :

أ – العوامل السياسية :

إن الاستقرار السياسي الذي ساد بريطانيا منذ الثورة الجليلة عام ١١٠٠هـ/١٦٨٨م التي أدت إلى استقرار الملكية والبرلمان والكنيسة، وجنبت بريطانيا الحروب الأهلية التي سادت في أوروبا، فتح الباب أمام البرجوازية البريطانية لتسيير الشؤون السياسية وفق مصالحها، فيما يتعلَّق باستمرار سياسة الحكومة المركنتلية في التجارة، وتحقيق الوحدة مع اسكتلندا وويلز عام ١١١٩هـ/١٧٠٧م التي وسعت الأسواق المحلية، فضلاً عن سياسة التوسع الخارجية التي أوجدت مستعمرات جديدة في شمال أمريكا والكاريبي وفتحت أسواق جديدة للاستيراد والتصدير(١).

كما أصدرت الحكومة البريطانية قوانين تتعلق بتشجيع الاستثمار وحرية انتقال الأيدي العاملة، وحماية حقوق الملكية لأصحاب الاختراعات مما حفّز الأثرياء على تمويل أصحاب الأفكار الجديدة(٢).

ب – العوامل الاقتصادية والاجتماعية :

وتعد هذه العوامل الأهم في قيام الثورة الصناعيّة وأبرزها هي :

١"_ توفر الأسواق الخارجية، نتيجة للتوسع الاستعماري البريطاني خلال القرنين السادس والسابع عشر في قارة أمريكا وأسيا وإفريقيا، ساعدها على ذلك أسطولها البحري القوي الذي احتكر التجارة الخارجية. وبالتالي توفير أسواق لتصريف الإنتاج وتأمين المواد الأولية والأموال للصناعة البريطانية كان الحافز الأساسي للاختراعات الميكانيكية في الثورة الصناعيّة، لأن إيجاد آلات جديدة تنتج بضائع كثيرة ورخيصة دون سوق تصريف لها عمل غير مجدي اقتصادياً(٣). كما يجب عدم إهمال التجارة البريطانية مع أوروبا أيضاً، والتي حققت أرباحاً عالية وخصوصاً مع دول البلطيق(٤).

---

(١) _ Jeremy Black, Eighteenth Century Britain 1688-1783, Second Edition, Pala grave Macmillian Published, U K, 2008, P43 .

(٢) _ أحمد، الحضارة الأوروبية الحديثة والمعاصرة، ص ٢٠٧.

(٣) _ Arthur Birnie, An Economic History of Europe 1760-1930, First Published 1930, Rout ledge Press, London, 2006, p2 _3.

(٤) _ Ashton.T. S, The Industrial Revolution, Oxford University Press, London, 1980, p47.

٢" _ توفر الأسواق الداخلية: التي ساعدت على تصريف الإنتاج وزيادة الطلب على الإنتاج الصناعي البريطاني.فقد نشطت حركة التجارة والملاحة الداخلية بفضل وجود قنوات مائية تصل أنحاء البلاد ببعضها وخصوصاً قنوات نهر التايمز وذلك سهَّل عملية نقل البضائع والفحم(١).

٣" _ قيام زراعة ذات طابع رأسمالي: اعتمدت على استثمارات زراعية كبيرة لإنتاج القطن وتربية الماشية. حيث تمكَّن كبار الملاكيين من القضاء على الملاكيين الصغار والمستأجرين، وتأسيس مزارع كبيرة وعرف ذلك بحركة "الأسيجة" "**Enclosure**"(٢). التي بلغت ذروتها في القرنين السادس والسابع عشر وساهمت في تحقيق ثورة زراعية اعتمدت على تحسين أساليب الزراعة واستخدام الوسائل الحديثة في المزارع(٣).

٤" _ توفر الأيدي العاملة الرخيصة: بسبب زيادة السكان نتيجة تطور الأوضاع الصحية ومكافحة الأوبئة وتوفر المواد الغذائية من جهة(٤). وبسبب حركة الأسيجة التي أدت إلى هجرة الفلاحين الصغار الذين فقدوا أراضيهم إلى المدن من جهة ثانية، وهذا ما وفر مصدر لليد العاملة في المشاريع الصناعيّة وضمَّن أرباحاً عالية للرأسماليين(٥).

٥" _ تطور التقنية المصرفية: حيث أُحدثت مصارف مالية أكثر تطوراً في بريطانيا لمنح القروض من أجل المشاريع الزراعية والصناعيّة واستثمار رؤوس الأموال.

٦" _ امتلاك بريطانيا المواد الأولية الضروريّة لإنتاج الطاقة البخارية: وهي الفحم الحجري حيث ضمَّت بريطانيا أكبر عدد من مناجم الفحم في أوروبا، إضافة إلى امتلاكها ثروة هامة من الحديد لصناعة الصلب وبناء المصانع(٦).

ج _ العوامل العلمية :

أبرز هذه العوامل هي الثورة العلمية التي شهدتها أوروبا عموماً وبريطانيا خصوصاً في القرن السابع عشر، والتي استمر تأثيرها خلال القرن الثامن عشر، وكان لها دور في تفعيل دور العلم

---

(١) _ George Trevelyan, History of England, Third Edition, London, 1945, p609 .

(٢) _ Ashton, The Industrial Revolution, p24 .

(٣) _ Carlos Sabillon, On The Causes of Economic Growth: The Lessons of History, AL Gora Publishing, New York, 2008, p80 .

(٤) _ الصباغ، معالم تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ص٢٩٧ .

(٥) _ E.K.Hunt, History of Economic Thought, Second Edition, Published by M.Sharp London, 2002, p17 .

(٦) _ Arthur Birnie, An Economic History of The British Isles, First Published 1935,Printed by Routledge, London, 2006, p230.

وتطبيق قوانينه التي أدت لاختراع الآلات الصناعيّة. ولكن إذا عدنا إلى أصول هذه الثورة العلمية في التاريخ، لأدركنا الدور الرئيسي للعلوم العربية في حدوث النهضة الأوروبية وما تلتها من ثورة علمية[١]. وهذا ما أكدته المستشرقة زيغرد هونكة عندما كتبت " إنَّ أرقام العرب وآلاتهم التي بلغوا بها حداً قريباً من الكمال وحسابهم وجبرهم وعلمهم في المثلثات الدائرية وبصرياتهم الدقيقة، كل ذلك أفضال عربية على الغرب ارتقت بأوروبا إلى مكانة مكنتها عن طريق اختراعاتها واكتشافاتها الخاصة أن تتزعم العالم في ميادين العلوم الطبيعية منذ ذلك التاريخ حتى أيامنا هذه"[٢].

وبالتالي يحقّ للحضارة العربية الإسلامية المشاركة في أمجاد الإنجازات العلمية الغربية فقد عرف العالم الإسلامي علوم الرياضيات والفلك والطب وطوّرها قبل الغرب بقرون، وتمّ نقلها إلى الغرب عبر ترجمة هذه العلوم من العربية إلى اللاتينية[٣]. وهكذا كانت الثورة العلمية الأوروبية مجرد استمرار للتطور العلمي الذي بدأ في العالم الإسلامي منذ قرون بعيدة.

أما بالنسبة للعوامل العلمية الداخلية البريطانية التي أدت لقيام الثورة الصناعيّة فهي تتعلق بالقانون الإنكليزي الذي حفظ حق الاختراع والتملك، وشجع البحث العلمي، فقد تأسست الجمعية الملكية منذ عام ١٠٧٣هـ/١٦٦٢م في بريطانيا ودعمت البحث العلمي ولاسيما أفكار "فرانسيس بيكون" التي تؤكد أهمية التجربة العلمية [٤].

واجتمع العلماء من مختلف الاختصاصات، في هذه الجمعية محاولين تطبيق العلوم علمياً على أرض الواقع معتمدين على مقولة "نيوتن" " إنَّ الطبيعة يمكن حملها على العمل من أجل البشر، لأنَّ قوى الطبيعة يمكن فهمها والسيطرة عليها"[٥]. ولولا قوانين الفراغ وقياس ضغط الهواء التي توصل إليها إليها العلماء في القرن السادس عشر والسابع عشر لما استطاع "واط" ابتكار المحرك البخاري [٦]. وأهم ما يميز بريطانيا في القرن الثامن عشر، هو تواصل الابتكارات الصناعيّة، والعمل الدائم على تحسين الاختراعات السابقة من أجل توفير الجهد والمال والوقود[٧].

---

(١) _ George Saliba, Islamic Science and The Making of Europe Renaissance, M I T Press, United State, 2007, p195 .

(٢) _ هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص١٦٣ .

(٣) _ Edward Grant, The Foundations of Modern Science in The Middle Ages, Cambridge University Press, U K, 1996, P171 .

(٤) _ أحمد، الحضارة الأوروبية الحديثة والمعاصرة، ص ٨٦-٨٧.

(٥) _ أبلبي، الرأسمالية ثورة لا تهدأ، ص١٦٣ .

(٦) _ Paul Sharp, Karl Gunnar Persson, An Economic History of Europe, Cambridge University Press, U k, 2015, p107 .

(٧) _ هيز، الثورة الصناعية ونتائجها الاجتماعية والسياسية، ص ١٨.

د _ تأثير الحضارة العربية والاختراعات الفنية والصناعيّة في بريطانيا:

قبل أن نستعرض تلك الاختراعات، لابد أن نوجز ما توصلت له الحضارة العربية من إنجازات علمية وصناعية بارزة دفعت عجلة التطور التقني للبشرية إلى الأمام وأسهمت في تحقيق الثورة الصناعيّة البريطانية .

فالحضارة العربية الإسلامية عرفت الهندسة الميكانيكية، والآلات الهيدروليكية أي التي تدار بواسطة المياه، والصمامات التي تعمل تلقائياً، والتحكم الآلي في مستوى الماء في ملء الأواني، وارتبطت تلك الاختراعات بعائلة (بني موسى) الذين عاشوا في القرن التاسع الميلادي في بغداد، وكان لهم دور أساسي في تأسيس وتطوير العلوم التقنية العربية [١]. كما أبدع العرب في استخدام طاقة الهواء والماء لتحريك الطواحين والساعات والمضخات ذاتية الحركة عبر المكابس[٢].

أما في مجال صناعة النسيج وخاصة القطني منه فقد استمرت أوروبا باستيراد النسيج القطني السوري والمصري طوال القرون الوسطى حتى القرن الثامن عشر[٣].

ولقد عُرِفَ النسيج العربي بألوانه الزاهية وذلك نتيجة تقدمهم في علم الكيمياء واستخدام الأصبغة التي عرفوها منذ زمن الفينيقيين قبل الميلاد الذين اشتهروا بالصباغ الأرجواني[٤].

وأطلق الأوروبيون أسماء المدن العربية على قطع النسيج المصنوعة فيها مثل النسيج (الموسيلين) نسبة إلى الموصل و(الدماس) نسبة إلى دمشق[٥].

وفي مجال صناعة الخزف والفخار، عرف السوريون صناعة الفخار المطلي بطبقة من الزجاج منذ الثالث عشر ق.م وهذا ما أثبتته اللقى الأثرية في (تل عطشانة) في أنطاكية [٦]. واستمرت صناعة صناعة الفخار والخزف بالتطور خصوصاً من القرن السابع ميلادي حتى القرن السابع عشر ميلادي،

---

(١) _ Donald Hill, The Book of Ingenious Devices by The Banu Musa bin Shaker, Translated by Donald Hill, D. Reidel Publishing Company, Dordrecht, Holland, p39, p3 .

(٢) _ فؤاد سزكين، عرض موجز لمتحف استانبول لتاريخ العلوم والتكنولوجيا في الإسلام، تركيا، ٢٠١٠، ص١٣١.

(٣) _ H.A.R.Gibb, The Encyclopaedia of Islam, 7 Volumes, Published by, Brill Archive, Leiden, 1982, Volume V, P563 .

(٤) _ Jil Fine, Writing in Ancient Phoenicia,The Rose Pullishing Group, New York,2003,p4.

(٥) _ Jenny Balfoul Paul, Indigo in The Arab World, Published by Routledge, London, 2004, p21 .

(٦) _ فيصل عبدالله، تاريخ الوطن العربي القديم بلاد الشام، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٣-٢٠٠٤، ص١٤٣.

وتحتوي متاحف أوروبا الكثير من قطع الخزف الذي صنع تقليداً للخزف والأواني العربية التي عرفوها من الأندلس، ولم تشتهر صناعة الفخار الأوروبي إلاَّ بعد قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا.

أما بالنسبة لصناعة الحديد والصلب، فقد أقام العرب مصنعاً للصلب في مدينة (طليطلة) في الأندلس، وعنهم أخذ النورمان في صقلية صناعة الصلب[١]. واشتهرت صناعة السيف الدمشقي الذي تميز بالصلابة نتيجة استخدام أسلاك كربونية دقيقة تدخل في صناعته[٢].

وسنعرض فيما يلي أهم الاختراعات في بريطانيا في مجال صناعة النسيج والفخار والصلب والنقل والتي كانت استمراراً لما توصلت إليه الحضارة العربية الإسلامية وأساساً في انطلاق الثورة الصناعيّة .

١" _ أهم الاختراعات في مجال النسيج :

شكل القطن أهم استثمار اقتصادي في بريطانيا، وكتب الاقتصادي (إيريك هوبز باوم) عبارته الشهيرة "إذا ذكرت الثورة الصناعيّة ذكر القطن"[٣].

قبل الثورة الصناعيّة كانت صناعة النسيج تشكل جزءاً مهماً من الاقتصاد الوطني البريطاني، وبالتحديد النسيج الصوفي المعتمد على الأغنام المحلية التي تتوفر بشكل كبير. وعلى العكس كانت صناعة القطن ضئيلة وغير قادرة على منافسة القطن القادم من المستعمرات الهندية. وكانت تعتمد على النول اليدوي القديم، كما كانت المنتجات القطنية خشنة وصعبة التنظيف[٤]، واستطاعت الهند غزل حوالي خمسة وثمانين رطلاً من القطن ذي الخيط الدقيق في حين لم تغزل بريطانيا سوى ثلاثة ملايين رطلاً سنوياً[٥].

ومن هنا جاءت الحاجة الصناعيّة والمنافسة الاقتصادية لمواجهة القطن الهندي والقطن المصري والسوري الذي تميز بالجودة ورخص الأسعار وذلك عبر تطوير آلات النسيج والحياكة .

وقام بأول خطوة في هذا الاتجاه (جون كاي) الذي اخترع المكوك الطائر ١١٤٣هـ/١٧٣٠م الذي سرّع عملية حياكة القماش. ومع زيادة متطلبات الأسواق الخارجية والداخلية في بريطانيا، قام (جميس

---

(1)_ Salim AL Hassani,1000 Years of Missing Islamic Industry. www.muslim heritage.com

(2)_ http//www.mse.iastate.edu/news/john verhoeven mystery of Damascus Steel Sword Unveiled.

(3)_ Robert C. Allen, Global Economic History Avery Short Introduction ,Oxford University Press, New York, 2011,p

(4)_ Deans, The First Industrial Revolution, Cambridge University Press, Great Britain, 1979, p88 .

(5)_ Allen, Global Economic History, p33 .

هارغريفز) باختراع مغزل أسماه (جيني) على اسم زوجته ١١٧٨هـ/١٧٦٤م، وهذا الجهاز سرّع دوران عجلة الغزل من ثماني دورات إلى ثمانين دورة. ثم جاء اختراع (توماس اركاريت) لنول حديث استخدم فيه طاقة المياه عام ١١٨٣هـ/١٧٦٩م[١] وكان أعظم اختراع آلة غزل (كرمبتون) التي جمعت بين الآلات السابقة والمكوك الآلي وأنتج خيوط قطنية دقيقة. وتجدر الإشارة إلى أنَّ هؤلاء المبتكرين لم يكونوا علماء بل كانوا صانعي نسيج، واحتاجوا إلى سنوات طويلة من التجربة للوصول إلى ابتكار آلاتهم. وتنطبق عليهم مقولة توماس أديسون "الإلهام لا يمثل سوى ١% فقط من الاختراعات، فيما يمثل الجهد ٩٩%" [٢].

وهكذا أصبح إنتاج القطن أقل كلفة وأكثر جودة وانتقلت صناعة القطن من أنوال المنازل إلى المكوك الآلي في المصانع. وأصبحت بريطانيا منذ عام ١١٨٤هـ/١٧٧٠م المنتج والمصدر الأول عالمياً للمنسوجات المصنعة[٣]، التي تميزت بألوانها الزاهية خصوصاً بعد اكتشاف "دودة القرمز" التي تعيش على الصبار المكسيكي وتعطي اللون الأحمر القرمزي وكان هذا اللون يعدّ حكراً على ملابس الملوك والأغنياء، كما استخدمت النيلة التي تمت زراعتها في مستعمرات (ساوث كارولينا) وأعطت القطن اللون الأزرق، وتعددت ألوان النسيج بعد تطور استخدام الأصبغة الكيميائية في القرن التاسع عشر[٤].

٢" _ أهم المخترعات في مجال صناعة الخزف والفخار :

كانت أوروبا تستورد الخزف من الصين، ولم يستطع الخزف الأوروبي الوصول إلى جودة الخزف الصيني، فقد كانت ثقيلة وغير متقنة. ولكن مع تطور علم الكيمياء الذي ساعد على فهم تركيبة المواد الأولية مما أحدث تغييراً جذريّاً في صناعة الخزف في بريطانيا في أواخر القرن الثامن عشر. وقاد هذه الصناعة ابن صانع فخار هو (جوسيا ويدجود) الذي أجرى تجارب على الطين والكوارتز، واخترع (البيرومتر) لقياس درجة حرارة أفران الخزف[٥]، كما أحدث تغيرات هامة في مصانع الخزف والفخار عبر تقسيم العمل وتحديد أجنحة خاصة لكل اختصاص، ودرّب عماله الرسم على الأطباق الخزفية وعمل على تصنيع الخزف الملون. ومنذ عام ١١٦٩هـ/١٧٧٥م استطاع أن يصدِّر الخزف إلى أوروبا وأمريكا[٦].

---

(١) _ Deans, The First Industrial Revolution, p89-90 .

(٢) _ Allen, Global Economic History, p33-34 .

(٣) _ Deans, The First Industrial Revolution, p90 .

(٤) _ أبلبي، الرأسمالية ثورة لا تهدأ، ص١٧١ .

(٥) _ المرجع نفسه، ص١٦٩ .

(٦) _ M. Grant Norton, C. Barry Carter, Ceramic Material: Science and Engineering, Published by Springer, New York, 2002, p21 .

٣" _ أهم المخترعات في مجال صناعة التعدين :

كانت بريطانيا تعتمد على الأخشاب كمصدر رئيسي للوقود والطاقة، وكمادة أساسية في البناء، وزاد استهلاكها للأخشاب حيث أُستهلك غابات بريطانيا في أواخر القرن السابع عشر، وقد بذلت بريطانيا جهوداً لاستخدام الفحم كمصدر للوقود والطاقة في البيوت والصناعة. وتوسعت في تعدين الفحم في القرن الثامن عشر من خلال حفر المناجم وضبط جوانبها من الانهيار وتهويتها بشكل جيد وسحب الماء منها. وساعدت على ذلك آلة (توماس نيوكمن) عام ١١٢٤هـ/١٧١٢م، وهي عبارة عن مضخة ذات محرك بخاري قادرة على القيام بعمل يوازي قوة خمسين حصاناً وبتكاليف أقل، فزاد إنتاج الفحم من مليوني طن في سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م إلى ستة ملايين طن في سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م[١]. وقد أسهمت زيادة إنتاج الفحم في تطوير صناعة الحديد والصلب الذي يشكل مادة أساسية تدخل في صناعة المعامل والسفن والجسور وأدوات الزراعة[٢].

وكانت بريطانيا تستورد الحديد من ألمانيا والسويد وتصهره بأساليب بدائية وتكاليف عالية، واستمر ذلك حتى اكتشاف "ابراهام دربي" بعد تجارب عديدة في الفترة الممتدة بين (١١١٢هـ/١٧١٠م _ ١١٤٣هـ/١٧٣٠م) إنّ استخدام الفحم بدلاً من الخشب في صهر الحديد في أفران خاصة تحقق احتراقاً كاملاً [٣]. لكن كان يجب التخلص من الشوائب أثناء صهر الحديد للحصول على الصلب المقاوم وهذا ما تكفل به "هنري كورت" الذي سجل اختراعه عام ١١٩٩هـ/١٧٨٤م[٤] وهو عبارة عن فرن مستقل لا يخلط فيه فحم الكوك مع الحديد الخام، ويمتزج فيه الأوكسجين بالحديد المنصهر مما يمنح الحديد الصلابة والمرونة اللازمة. واستطاعت بريطانيا بناء أول جسر حديدي بطول ثلاثين متراً عام ١١٩٣هـ/١٧٧٩م وقامت ببناء أول باخرة من الحديد عام ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م[٥].

٤" _ أهم المخترعات في مجال النقل :

منذ عام ١١٧٤هـ/١٧٦٠م تضاعف اهتمام الحكومة البريطانية بالملاحة الداخلية عبر حفر القنوات المائية واستخدام الأنهار. وذلك لتحسين سرعة حركة نقل البضائع، وتقليل كلفة نقلها

---

(١) _ هيز، الثورة الصناعيّة ونتائجها السياسية والاجتماعية، ص٤٠-٤١ .

(٢) _ المرجع نفسه، ص٧٩، ص ٨٧.

(٣) _ Ashton, The Industrial Revolution 1760-1830, p40-41 .

(٤) _ T. S. Ashton, Iron and Steel in The Industrial Revolution, Manchester University Press, 1951, p90-91 .

(٥) _ أحمد حسن البرعي، الثورة الصناعيّة وآثارها الاجتماعية والقانونية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٢، ص٣٩-٤٠ .

الاقتصادية[١]. وبلغ طول القنوات المائية في أواخر القرن الثامن عشر ما يقارب ٢٥٠٠ ميل. كما تطورت شبكة الطرق العامة. وانطلقت عام ١٢٤١هـ/١٨٢٥م أول قاطرة بخارية صمَّمها "جورج ستيفنس" وهو أحد العمال في منجم للفحم. ومن ثمَّ صمِّمت واستخدمت السفن البخارية التي تنتقل بين القنوات المائية[٢].

٥"_ اختراع المحرك البخاري:

يعد المحرك البخاري ذروة الاختراعات في الثورة الصناعيّة. وإذا كانت الحاجة الصناعيّة تولد الاختراع تلو الآخر في بريطانيا، فإن المحرك البخاري شكل حاجة ماسة من أجل إيجاد طاقة بديلة للأخشاب تستطيع تحريك الآلات وضخ المياه من مناجم الفحم التي كانت تستخدم طاقة الإنسان والحصان لضخها، وقد استطاع (توماس نيوكمن) عام ١١٢٠هـ/١٧٠٨م أن يخترع آلة بخارية لرفع مياه المناجم يحركها ضغط البخار[٣]، سّرعت العمل أضعافاً، وبقي اختراعه هذا مستخدماً في بريطانيا حتى أواخر القرن الثامن عشر لتبدأ مرحلة جديدة على يد الاسكتلندي (جميس واط) ١١٤٩هـ/١٧٣٦م _ ١٢٣٥هـ/١٨١٩م، الذي كان يعمل فنياً لإصلاح الأجهزة العلمية في جامعة كلاسكو في بريطانيا. وأثناء إصلاحه أحد محركات نيوكمن البخارية عام ١١٧٨هـ/١٧٦٤م. لاحظ واط نواقص ذلك المحرك وأنه يهدر الوقود والقوة، لأن البخار في الأسطوانة يكّثف بالتبريد وبالتالي يجب إعادة تسخين الأسطوانة في كل مرة جديدة [٤]. فاخترع "واط" عام ١٧٦٩ محركاً يعتمد على إخراج البخار من الأسطوانة ليكثف في مكان آخر وتبقى الأسطوانة ساخنة، وهذا ما وفر ٧٥% من الفحم، وبالتالي أصبحت الطاقة البخارية أرخص بكثير. وهكذا استُخدم هذا المحرك البخاري في مجالات النقل ومصانع النسيج والصلب[٥]. وتدريجياً تم تطوير بواخر تسير على البخار وتم إقامة سكك الحديد للقطارات البخارية، لذلك يعتبر اختراع "واط" نقطة تحول سرعة عجلة الثورة الصناعيّة وأسهمت بسرعة انتشارها، وكانت ثورة استخدام الطاقة البخارية تمهيداً لثورة استخدام الطاقة الكهربائية في القرن التاسع عشر وما تلاها من استخدام الطاقة النووية في العقود اللاحقة[٦].

---

(١) _ Derek Aldcroft, Michael Freeman, Transport in The Industrial Revolution, Manchester University Press, U K, 1983, P101 .

(٢) _ هيز، الثورة الصناعيّة ونتائجها السياسية والاجتماعية، ص٤٨-٥١ .

(٣) _ Ashton, The Industrial Revolution, 1760-1830, p37 .

(٤) _ هيز، الثورة الصناعيّة ونتائجها السياسية والاجتماعية، ص٤٤ .

(٥) _ James Collier, The Steam Engine, Published by Marshall Cavendish, New York, 1928, p30-31 .

(٦) _ sharp, persson ,An Economic History of Europe, p116.

وهكذا نستنتج إن قيام الثورة الصناعيّة في بريطانيا جاء نتيجة توفر عوامل أهمها : تلازم تطور الزراعة وأساليبها مع التطور التكنولوجي، وتفكير حرّ يعتمد التجربة، وترافق ذلك مع توفر أسواق تصريف داخلية وخارجية وموارد لا تنضب من المستعمرات البريطانية، وأسطول بحري تجاري قوي يحمي تجارة بريطانيا ومصالحها في ظل دستورية برلمانية تقيد الملكية .

ولتوضيح أسباب نشوء الثورة الصناعيّة في بريطانيا دون غيرها من الدول الأوروبية الصاعدة والمنافسة لها في القرن الثامن عشر، سنعرض هذه المقارنة بين بريطانيا وفرنسا التي كانت تعد دولة رئيسة في أوروبا :

- تفوقت فرنسا في صناعتها وتجارتها على بريطانيا، وكانت تجارة فرنسا الخارجية تقدر حينذاك بمئتي مليون دولار في السنة، في حين تقدر تجارة بريطانيا بمئة وستين مليون دولار .
- كان عدد سكان فرنسا يفوق عدد سكان بريطانيا ففي عام ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م كان تعداد سكان فرنسا ست وعشرين مليون نسمة مقارنة مع بريطانيا التي بلغ عدد سكانها تسع ملايين نسمة لا غير، والنمو السكاني يشكل قاعدة أساسية تساعد في النمو الاقتصادي[١]. لكن عند المقارنة بين بريطانيا وفرنسا فيما يتعلق بقيمة الإنتاج نسبةً إلى عدد السكان يُلاحظ تحقيق بريطانيا نموّ اقتصادي أكبر.
- كانت البرجوازية الفرنسية قوية في المدن، والدليل على ذلك قدرتها على قيادة الثورة الفرنسية عام ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م .
- امتلكت فرنسا مصادر الطاقة من الفحم والقوى المائية، فهي تملك نهر السين الملائم للملاحة النهرية .
- وصلت إلى فرنسا موارد عديدة من مستعمراتها، مثل الحرير والكتان والمعادن الثمينة وشملت المستعمرات الفرنسية جزر الهند الغربية وأمريكا الشمالية والسنغال في إفريقيا[٢].

وبالرغم من كل المعطيات السابقة، تفوقت الصناعة البريطانية على الصناعة الفرنسية، على الرغم من عراقة الثانية وقوتها، ويعود ذلك للأسباب الآتية: كانت الصناعة الفرنسية موجهة للطبقات الغنية وتتألف من مصنوعات كمالية ذات قيمة تجارية مكلفة، تصنع يدوياً في المنازل والمصانع الصغيرة وغير قابلة لإنتاجها آلياً. في حين كانت بريطانيا تسعى لإنتاج بضائعها في المعامل بواسطة الآلات لتعويض نقص اليد العاملة لديها، وتزيد الإنتاج بكميات كبيرة ورخيصة وكانت هذه البضائع موجَّهة إلى جميع الطبقات الاجتماعية[٣].

---

(١) _ هيز، الثورة الصناعيّة ونتائجها السياسية والاجتماعية، ص١٨ .

(٢) _ الصباغ، معالم تاريخ أوروبا الحديث، ص٣٥٨-٣٥٩ .

(٣) _ هيز، الثورة الصناعيّة ونتائجها السياسية والاجتماعية، ص١٩ .

ساعد تفوق بريطانيا استعمارياً على فرنسا بعد حرب السنوات السبع و"معاهدة باريس" عام ١١٧٧هـ/١٧٦٣م، على توسيع أسواق التصريف الخارجية لمنتجاتها، ولم تستطع فرنسا الاستفادة من خسارة بريطانيا لمستعمراتها في أمريكا الشمالية بعد الاستقلال الأمريكي عام ١١٩٨هـ/١٧٨٣م، وذلك بسبب سوء أوضاعها المالية والسياسية وقيام الثورة الفرنسية عام ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م، وانشغالها فيما بعد بحروب نابليون في أوروبا، مما أتاح الفرصة لبريطانيا السيطرة على معظم التجارة البحرية العالمية(١).

كما اعتمد التوسع الاستعماري البريطاني السياسة "المركنتلية" التي شجعت التجارة والصناعة وحمتها جمركياً، وأصدرت مجموعة قوانين كما ذكرنا سابقاً لحماية اقتصادها سميت "قوانين الملاحة". وفي الوقت نفسه أصدر البرلمان البريطاني خلال القرن الثامن عشر مجموعة تشريعات لتحرير الاقتصاد داخلياً ومنع الاحتكار(٢). في حين اعتمد الملك والحكومة الفرنسية عكس ذلك من خلال سياسة اقتصادية مركزية لم تخدم مصالح التجار والطبقة البرجوازية الفرنسية(٣).

تفوقت بريطانيا على فرنسا في حسن إدارتها المالية وتحديد إنفاقها على ميزانية الجيش والأسطول، ودخولها في حروب رابحة كلفتها مالياً أقل من فرنسا التي كان نظامها الضريبي غير عادل وثروتها متركزة بأيدي ملوك "أسرة بوربون" والطبقة الارستقراطية الذين كانوا ضد أي تحديث للقوانين والتقاليد القديمة حفاظاً على امتيازاتهم ومكاسبهم(٤).

وكانت الضرائب البريطانية أكثر عدالة في التوزيع، وترافق ذلك مع أجور عالية للطبقة الوسطى وتركزت الثروة والمال بأيدهم، وقد نما نظام مصرفي مبكراً في بريطانيا، استطاع تمويل المشاريع الفردية، وأسس مصرف إنكلترا من عام ١١٠٦هـ/١٦٩٤م، وبورصة لندن، وبنك مركزي يدعى "بنك لندن للتصفية" عام ١١٧١هـ/١٧٥٧م(٥).

ومما ساعد بريطانيا على تحقيق ثورتها الصناعيّة، أنَّ النظام النقابي للحرف المنزليّة اندثر في بريطانيا قبل فرنسا، وكان العمال أحرار بالانتقال للعمل في المصانع، وصدور قانون بريطاني يمنح الأرض لمن لديه وثائق ملكيتها وبالتالي كثير من الفلاحين خسروا أراضيهم وانتقلوا للعمل في المدن، وترافق ذلك مع قيام النبلاء بامتلاك ملكيات أرض واسعة، تستخدم تقنيات زراعية حديثة، وتم ربط الإنتاج الزراعي بالصناعة وتمت زراعة محاصيل صناعية كالقطن. وعلى العكس أسهمت الثورة

---

(١) _ هيز، الثورة الصناعيّة ونتائجها السياسية والاجتماعية، ص٢١ .

(٢) _ Sabillon, On The Causes of Economic Growth, p79 .

(٣) _ الصباغ، معالم تاريخ أوروبا الحديث، ص٣٥٩ .

(٤) – Henri Eugene See, Economic and Social Conditions in France During Eighteenth Century, Translated by Edwin Zeydel, Cooper Square Publishers, New York, 1968, P116.

(٥) _ David Hughson, London: Being an Accurate History and Description of The British Metropolis. five Volumes, Printed by W. Stratford, London, 1806, Volume 3, p83, p86.

الفرنسية في تفتيت الملكيات الزراعية الواسعة، وتقاسمها الفلاحون الفقراء الذين لم يستطيعوا تطوير الزراعة وإقامة مشاريع زراعية تدعم الصناعة، واصطدموا بقوانين الدولة التي تعرقل العمل الاقتصادي الحر[١].

وهكذا نستنتج أنَّ بريطانيا كانت كدولة وحكومة مدركة لأهمية دعم اقتصادها الوطني لأنَّه ركيزة تطوّرها على الأصعدة الأخرى كافة، ويبدو ذلك واضحاً من إجراءاتها الاقتصادية والسياسية والقانونية التي صدرت لتحقيق ذلك .

ثانياً) : مظاهر الثورة الصناعيّة وانعكاساتها الداخلية والعالمية :

١_ مظاهر الثورة الصناعيّة في بريطانيا :

أحدثت الثورة الصناعيّة تغيراً كبيراً في شكل الصناعة ووسائلها وكان أهم مظاهرها :

أ _ اختراع الآلات لتساعد المجهود الإنساني أو تحل محله في إنتاج البضائع .

ب _ اكتشاف مصادر جديدة تُستخدم في تحريك الآلات مثل طاقة البخار والكهرباء والنفط .

ج _ توسع شبكة النقل الذي ازدادت سرعته بفضل القطارات والسفن البخارية .

د _ حلّ إنتاج البضائع في المعامل على نطاق واسع محل الإنتاج الفردي البيتي .

هـ _ ازدادت الهجرة من الريف إلى المدن، وترك الفلاحون العمل في الزراعة لمصلحة الصناعة .

و _ أدى استخدام الآلات الميكانيكية في الزراعة والصناعة إلى زيادة الإنتاج مما ساهم في رفع مستوى المعيشة لعدد كبير من السكان[٢].

ز _ ازداد عدد أفراد الطبقتين الاجتماعيتين المتوسطة(البرجوازية) والعمال(البروليتاريا) وأصبح التمايز بينهما واضحاً أكثر اتساعاً .

ج _ سيطرة الرأسمالية على الإنتاج الصناعي وازدياد نفوذها وقوتها .

وبما أن الثورة الصناعيّة لم تكن مجرد تطورات تقنية في مجال الصناعة، بل ثورة عمت كافة مجالات الحياة، شكلت حيزاً هاماً من التاريخ العام لأن انعكاساتها شملت بريطانيا والعالم، وهذا ما سنوضحه فيما يلي :

---

(١) _ هيز، الثورة الصناعيّة ونتائجها السياسية والاجتماعية، ص١٩-٢٠ .

(٢) _ المرجع نفسه، ص١٦ .

٢ _ انعكاسات الثورة الصناعيّة الداخلية في بريطانيا :

أ _ الانعكاسات السياسية الداخلية للثورة الصناعيّة في بريطانيا:

١"_ تشكيل أحزاب جديدة تعبر عن صراع الطبقات الاجتماعية نتيجة الثورة الصناعيّة، إذ كان هناك أحزاب برجوازية تدافع عن الرأسمالية وتطالب بالاقتصاد الحر، فيما ظهرت الأحزاب المتأثرة بالأفكار الاشتراكية وأبرزها حزب العمل(١).

٢"_ ظهرت النقابات العمالية(٢) .

٣"_ أدركت الدولة ضرورة رعاية جميع مواطنيها، حيث أصدرت القوانين التي تحفظ حقوق الطفل والمرأة. واهتمت بشؤون التعليم والصحة(٣).

ب _ الانعكاسات الاقتصادية الداخلية للثورة الصناعيّة في بريطانيا:

١"_ في مجال الصناعة: زيادة الإنتاج الصناعي نتيجة استخدام الآلة، فقد أنشأت مصانع مجهزة بالآلات الميكانيكية في مجال إنتاج القطن، والمنسوجات والخزف والصناعات التعدينية، وساعد ذلك على تخفيض كلفة الإنتاج وزيادة الصادرات وتحقيق الأرباح للحكومة البريطانية .

٢"_ في مجال التجارة: كان الأسطول البحري البريطاني سيّد البحار، وساعده ذلك على تصدير منتجاته المصنعة إلى العالم، واستيراد المواد الأولية من المستعمرات البريطانية، ولكن ظهرت تيارات اقتصادية تدعو إلى حرية التجارة وترفض "المركنتلية" وكان أبرزها تيار "آدم سميث" الذي يدعو إلى حرية الأنشطة الاقتصادية وتخفيض الرسوم الجمركية(٤).

وكانت بريطانيا تستورد قضبان الحديد والنيلة والحرير والقطن والشاي والسكر والتبغ كمواد أولية من مستعمراتها في أمريكا ومن قارة آسيا(٥). بالمقابل تصدر بضائع مصنعة من المواد الأولية كافة،

---

(١) _ Matt Cole, Helen Deighan, Political. Parties in Britain, Edingburgh University Press, 2012, p50 .

(٢) _ Joyce Burnette, Gender, Work and Wages in Industrial Revolution in Britain, Cambridge University Press, 2008, p243 .

(٣) _ محمد أحمد، الحضارة الأوروبية الحديثة والمعاصرة، ص٢٢٣ .

(٤) _ Alvin Rabushka, From Adam Smith to The Wealth of America, Published by Transaction Book, United State, 1985, p4 .

(٥) _ T. C. W. Blanning, The Eighteenth Century: Europe 1688-1815, Oxford University Press, Oxford, 2002, p239 .

وتشتري العبيد من إفريقيا مقابل موادها المصنعة، وترسلهم للعمل في مستعمراتها في الهند الغربية[١]. وإن كانت هذه التجارة غير إنسانية، إلاّ أنَّ الميزان التجاري البريطاني كان رابحاً دوماً .

٣"_ في مجال الزراعة: يمكننا القول أنَّ الثورة الصناعيّة في بريطانيا ترافقت مع ثورة زراعية، من حيث إدخال وسائل حديثة في الزراعة كالمحراث الحديث، إضافة إلى زراعة محاصيل جديدة من خلال اتباع دورات زراعية في استخدام الأرض والأسمدة. وترافق ذلك مع توسع حركة الأسيجة التي استطاعت أن تزود المصانع بالجلد والصوف من الأراضي الرعوية[٢] وغيرها من المحاصيل الصناعيّة. كما وظفت العائدات المالية الناتجة من الزراعة في الاستثمار الصناعي، مما أدى إلى اتساع الطبقة البرجوازية[٣].

٤"_ زيادة الدخل القومي لبريطانيا: ذلك نتيجة الأنشطة الاقتصادية الرابحة مما ساعدها على الاهتمام بالقطاعات الخدمية، كالتعليم والصحة والعمران، وقدرت قيمة الرأسمال البريطاني في عام ١١٦٤هـ/١٧٥٠م بخمسمئة مليون باوند استرليني، وارتفعت إلى ألف وخمسمئة مليون سنة ١٢١٥هـ/١٨٠٠م ووصلت إلى ألفين وخمسمئة مليون في سنة ١٢٦٤هـ/١٨٣٠م. وهكذا نلاحظ النمو المطرد لرأسمال القومي[٤].

٥"_ تأسيس المصارف الكبرى وسوق الأوراق المالية: أصبحت الدولة تمول مشاريع الأفراد الكبيرة وتمول إقامة منشآت صناعية هامة وتمدّ سكك الحديد وتصنع البواخر. وكذلك أصبحت بريطانيا تصدَّر رأس المال للدول التي تريد الاقتراض منها لتطوير صناعتها[٥].

٦"_ ظهور النظام الرأسمالي الامبريالي: استخدمت الرأسمالية رأس المال في استثمارات للحصول على المزيد من المال في بريطانيا، وتركزت هذه الأموال بأيدي أصحاب المصانع والآلات، وكانت مصادر رأس المال في بريطانيا تأتي داخلياً من جهود العمال والفلاحين وخارجياً من موارد المستعمرات خلف البحار[٦]. وكان النظام الجديد يطالب بحرية التجارة وحركة البضائع والأموال وشعاره " دعه يعمل،

---

(١) _ Ashton, The Industrial Revolution 1760-1830, p44 .

(٢) _ I bid, p24 .

(٣) _ هيز، الثورة الصناعية ونتائجها السياسية والاجتماعية، ص٩٢-٩٣.

(٤) _ المرجع نفسه، ص ٩٥.

(٥) _ المرجع نفسه، ص ٩٦.

(٦) _ Michel Beaud, History of Capitalism 1500-1980, Translated by Tom Dickman, and Anny Lefebvre, Monthly Review Press, New York, 1981, p79 .

دعه يمر"[١] لكن هذا النظام الرأسمالي القديم الجديد كان له انعكاسات اقتصادية واجتماعية كبيرة في بريطانيا، لأن هدفه الربحي أضرّ بالطبقة العاملة في الداخل وفي المستعمرات .

وتجدر الإشارة أنَّ الرأسمالية قد نمت منذ القرن السادس عشر مع امتلاك المستعمرات الخارجية، وكان أصحابها من النبلاء، أمّا في القرن الثامن عشر ومع قيام الثورة الصناعيّة وجِدَت رأسمالية صناعية تقودها الطبقة الوسطى البرجوازية .

ج _ الانعكاسات الاجتماعية الداخلية للثورة الصناعيّة في بريطانيا:

١"_ ارتفاع الدخل الفردي في بريطانيا: الذي جاء من توفر مصادر الطاقة الرخيصة، وابتكارات التكنولوجيا المستمرة، وسمحت الأجور المرتفعة لسكان بريطانيا بتناول الخبز واللحم بعدما كان اعتمادهم على الشوفان[٢].

٢"_ ازدياد عدد السكان من أبرز سمات الثورة الصناعيّة في بريطانيا: كما ذكرنا سابقاً إن ارتفاع مستوى المعيشة، وتطور القطاع الصحي، وتوفر الغذاء بعد تضاعف الإنتاج الزراعي، ساعد على توفير اليد العاملة وتطوير العمل، كل ذلك ساهم في زيادة عدد السكان. ممّا دفع الكاتب البريطاني "توماس مالتوس" (١١٨٠هـ/١٧٦٦م _ ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) لوضع نظريته المتشائمة حول ازدياد عدد السكان وقيام المجاعات، وتميزت نظريته بالطبقية فهو يرى أن على الفقراء وحدهم الصوم عن الطعام والزواج[٣].

٣"_ نموّ المدن وتوسعها: من أبرز انعكاسات الثورة الصناعيّة في بريطانيا قيام المدن الصناعيّة، خصوصاً بعد صدور قانون ١٢١٠هـ/١٧٩٥م الذي أعطي حرية التنقل للأيدي العاملة[٤]، والهجرة الواسعة من الريف إلى المدن حيث تحولت أراضي الريف إلى ملكيات واسعة للنبلاء، وخير مثال على نمو المدن الصناعيّة الإنكليزية مدينة (مانشستر) التي اشتهرت بصناعة القطن لقربها من مساقط المياه حيث اعتمدت بداية على الطاقة المائية، قبل اكتشاف الطاقة البخارية[٥]. ونتيجة ازدهار صناعتها تضاعف عدد سكانها كما يلي: من عشرين ألف نسمة عام ١١٧١هـ/١٧٥٧م، إلى سبع وعشرين ألف نسمة عام ١١٨٧هـ/١٧٧٣م وخمسين ألف نسمة سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م لتصل إلى

---

(١) _ Joel Mokry, The Economics of The Industrial Revolution, Rowman and Little Field Publishers, New York, 1985, p13 .

(٢) _ Allan, The Global Economic History, p31 .

(٣) _ Beaud, History of Capitalism 1500-1980, p85 .

(٤) _ البرعي، الثورة الصناعيّة وأثارها القانونية والاجتماعية، ص٢٤٠ .

(٥) _ Peter Maw, Transport and Industrial City: Manchester and Canal Age 1750-1850, Manchester University Press, Manchester, 2013, p1 .

خمس وتسعين ألف نسمة سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م[١]. لكن الطبقة العمالية في هذه المدينة وغيرها من المدن الصناعيّة عاشت في أحياء فقيرة وبائسة .

٤"_ ظهور طبقتين جديدتين كان للعلاقة المتوترة بينهما العديد من الانعكاسات وهما :

_ الطبقة الرأسمالية :

التي تشكلت من الطبقة الوسطى، من جيل جديد من الصناعيين وأصحاب المعامل والبنوك والسفن والتجار، وباتت هذه الطبقة تنافس طبقة النبلاء، وطالبت الطبقة الرأسمالية بحماية حقوق الملكية الشخصية. وفي الوقت ذاته كانت تعارض السياسة المركنتلية التي تفرض قيوداً على حرية الأنشطة الاقتصادية وتبنّوا نظرية المفكر آدم سميث عن سياسة عدم التدخل الحكومي في الشؤون الاقتصادية والتي اشتهرت بعبارة حرية الشؤون الاقتصادية (**Laissez _ Faire**)[٢] وشعار (دعه يعمل _ دعه يمر). ولم تكن الرأسمالية مجرد نظام اقتصادي، بل كانت مؤثرة على كل نواحي الحياة خصوصاً السياسية والاجتماعية والثقافية:

- **سياسياً:** دفعت الرأسمالية بريطانيا للقيام بحروب شرسة في أوروبا والمستعمرات لحماية تجارتها ومواردها الخارجية، أما داخلياً أصبح للطبقة البرجوازية خصوصاً مع بداية القرن التاسع عشر نفوذ سياسي واضح في السلطة لإصدار القوانين التي تناسب مصالحهم، ووضعوا الحواجز التي تميزهم عن طبقة العمال (البروليتارية)[٣].
- **ثقافياً:** تميزت الطبقة الوسطى البرجوازية بانتشار التعليم بين أوساطها وانتشرت أفكار الفلاسفة والشك لديها وضعفت ميولها الدينية، واهتمت بالعلوم الفيزيائية والكيمياء لدورها الهام في البحث العلمي وتطوير الصناعة. وكان دخول الجامعات ميزة للطبقة الرأسمالية فقط في القرن الثامن عشر والتاسع عشر[٤].
- **اجتماعياً:** كان لظهور الرأسمالية الصناعيّة آثار سلبية مدمرة على الطبقة العمالية في المصانع، وهذا ما سنوضحه خلال الحديث عن الطبقة العمالية الجديدة، والعلاقة بين الطبقتين اللتين نشأتا نتيجة الفصل بين العمال وأصحاب العمل .

---

(١) _ البرعي، الثورة الصناعيّة وآثارها القانونية والاجتماعية، ص٢٤٦ .

(٢) _ E. K. Hunt, Property and Prophets: The Evolution of Economic Institution and Ideologies, M. E sharp Publisher, New York, 2003, p52 .

(٣) _ Hunt, Property and Prophets, p53 .

(٤) _ Ernest Mandel, George Navack, Can The Working Class Make a Socialist Revolution, Published by Resistance Book, Australia, 2002, p11 .

_ الطبقة العمالية :

إنَّ شرور المرحلة الأولى من الثورة الصناعيّة عانى منها عمال المناجم الذين عملوا لساعات طويلة بأجور زهيدة في مناجم الفحم المظلمة، وانضمَّ إليهم، المهاجرون من الريف الذي كانت تسيطر عليه حركة الملاكين الكبار، وكانت معظم الهجرة قادمة من الريف الايرلندي واسكتلندا وويلز إلى المدن الصناعيّة[١]،التي كانت ظروفها أشد قسوة، فوجدت هذه الفجوة الكبيرة بين الأغنياء البرجوازيين والفقراء العاملين في المصانع والمناجم .

وعانت طبقة العمال في المرحلة الأولى من انقسامات عديدة، حيث تكوّنت من فئات غير متجانسة، فهناك العمال الزراعيون الذين تركوا أرضهم بعد حركة الأسيجة، وهناك عمال الحرف المنزلية الذين اضطروا إلى ترك ورشهم المنزلية، والالتحاق بالمصانع. إضافة على عمال المناجم، وصناعات التعدين الذين يعتبر عملهم الأصعب. وكل هؤلاء كانوا ينظرون بازدراء وحقد على العمال الايرلنديين[٢]، الذين كانت بلادهم مستعمرة بريطانية[٣].

لكن جميع العمال عانوا من ساعات عمل طويلة لا تقل عن أربع عشرة ساعة في اليوم وأجور زهيدة، دون تأمين صحي، وكانوا معرضين للطرد في أي لحظة. وهذه عينة من قوانين العمل الصارمة في بريطانيا، ففي معمل غزل في مدينة (مانشستر) كانت تفرض غرامة ستة شلنات على كل عامل مريض لم يؤمن بديلاً عنه لأنه هدر بذلك الطاقة الميكانيكية، وهناك غرامات على من يأتي إلى العمل بحالة غير لائقة أو يصدر صفيراً أثناء العمل[٤].

وضمن الطبقة العاملة كان هناك النساء والأطفال الذين تعرضوا لمعاملة وحشية فقد شكل الأطفال دون الثلاثة عشر نسبة (١٣%) من القوى العاملة في صناعة القطن[٥].

وكان يوم العمل يبدأ الساعة الخامسة صباحاً لينتهي أحياناً عند التاسعة ليلاً، وكان الأطفال بأعمار السابعة يعملون بين الآلات، وفي المناجم وقد تعرض الكثير منهم لإصابات وعاهات دائمة بسبب مخاطر العمل وسوء التغذية[٦].

وفضّل أصحاب المصانع النساء والأطفال لأنهم أقل أجراً وأكثر طاعة للأوامر من استخدام الرجال الذين انتشرت بينهم البطالة وشرب الخمر للهروب من واقعهم[١]. ونتيجة كل ما سبق من

---

(١) _ George Trevelyan, History of England, Third Edition, Ballantyne Press, 1945,p607.

(٢) _ البرعي، الثورة الصناعيّة وآثارها الاجتماعية والقانونية، ص٢٥٩-٢٦٠ .

(٣) _ الصطوف، دراسات في تاريخ أوربة في العصر الحديث، ص٢٧٦.

(٤) _ البرعي، الثورة الصناعيّة وآثارها الاجتماعية والقانونية، ص٢٨٧ .

(٥) _ Beaud, History of Capitalism, p99 .

(٦) _ Robert Smith, Industrial Revolution, M. S Publisher, U. S. A, 2007, P18 .

انتقاص لحقوق الطبقة العاملة في بريطانيا، ظهرت حركات إضراب وأعمال شغب من قبل العمال الذين قاموا بتحطيم الآلات التي اعتبروها مصدر تعاستهم، وحاول العمال تحويل تجمعاتهم هذه إلى اتحادات عمال لكن كان القانون البريطاني يمنع قيامها[٢].

ولقد وصف المفكر الاشتراكي (فريدريك أنجلز) حال العمال في القانون والواقع "أنهم عبيد لدى صاحب رأس المال ويمكنه طردهم متى شاء وإنَّ العمال يتقاضون أجوراً أقل من العبيد"[٣].

وبعد صراع مرير تمكن العمال من تشكيل نقابات العمال، والمطالبة بحفظ حقوق الطبقة العاملة وتحديد شروط عمل الأطفال وصولاً إلى منع تشغيلهم. وحاولت هذه النقابات الاستفادة من ثمار الثورة الصناعيّة، بعد أن تجرعوا مرارة قيامها، ولم ترفع أجور عملهم إلاّ بعد عقود طويلة .

د_ الانعكاسات الفكرية الداخلية للثورة الصناعيّة في بريطانيا :

١"_ انتشار التعليم خصوصاً بين أفراد الطبقة الوسطى، وظهور الهندسة الحديثة في عهد الثورة الصناعيّة نتيجة الحاجة للفنيين في إصلاح المحركات والآلات، ثمّ تنوعت اختصاصاتهم بين مهندسين بحريين ومهندسين كهربائيين[٤].

٢"_ نهضة علمية حدثت نتيجة الابتكارات والاختراعات العديدة، وزاد الاهتمام بالعلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء، وأنشأت مراكز للبحوث العلمية، وتمَّ التأكيد على الربط بين العلوم النظرية والتطبيقية من أجل استمرار تقدم إنتاج التكنولوجيا[٥].

٣"_ ظهور تيارات ومذاهب فكرية في مختلف المجالات، ففي المجال الاقتصادي برز التيار الاقتصادي الحرّ، وأبرز مفكريه في بريطانيا المفكر الاقتصادي "آدم سميث" صاحب كتاب "ثروة الأمم" والمتضمن نظريته المهمة حول تقسيم العمل والتي كان لها أثر هام في زيادة الإنتاج في المصانع، وأعطي مثالاً على ذلك: معمل الدبابيس (لأن عامل بمفرده يمكن أن ينتج عشرين دبوساً، أما إذا تخصص عشرة أشخاص في إنتاج الدبوس لأنتجوا ٤٨ ألف دبوس في اليوم) كما أن تقسيم العمل يزيد مهارة العامل ويوفر الوقت والجهد[٦].

---

(١) _ البرعي، الثورة الصناعيّة وآثارها الاجتماعية والقانونية، ص٣٠٣ .

(٢) _ Jame Wolf, The Industrial Revolution: Steam and Steal, Publish by Britannica, 2016, p68 .

(٣) _ Beaud, The History of Capitalism, p99 .

(٤) _ هيز، الثورة الصناعيّة ونتائجها السياسية والاجتماعية، ص٦٠-٦١ .

(٥) _ عبدالرحمن عبدالغني، مدخل في تاريخ الديمقراطية في أوروبا، مواطن المؤسسة الفلسطينية للدراسة الديمقراطية، رام الله، ٢٠١٠، ص٢٠٢ .

(٦) _ Adam Smith, Wealth of Nations, Originally Published in 1901, Classics Publisher, New York, 2007, p10 .

وظهرت تيارات فكرية تدعو إلى الاشتراكية متأثرة بأفكار "كارل ماركس" و "فريدريك أنجلز" فانتشرت هذه التيارات بين أفراد الطبقة العاملة .

هـ_ الانعكاسات المناخية الداخلية للثورة الصناعيّة في بريطانيا :

إنَّ الاستخدام المفرط للأخشاب لتوليد الطاقة والتدفئة وفي بناء السفن، ثمَّ عمليات حرق الفحم لتوليد البخار، وصهر الحديد، ساهم في زيادة معدل التلوث في الجو، مما أدى إلى قطع آلاف الأشجار وترك مناطق كاملة جرداء[١]. وكان دخان المصانع يلف المدن الصناعيّة مثل (لندن ومانشستر ولانكشاير) ، وتعد الثورة الصناعيّة المستمرة أحد أهم أسباب وجود ونموّ ما سميَّ لاحقاً بالاحتباس الحراري[٢] والتغيرات المناخية الأخرى التي تجاوزت حدود بريطانيا وشملت العالم .

٣ _ انعكاسات الثورة الصناعيّة العالمية. الأوروبية والأمريكية :

لا أحد يستطيع أن يقف في طريق التطور والحداثة، وهذا ينطبق على الثورة الصناعيّة البريطانية التي أحدثت تغيرات أساسية وجذرية في مختلف مناحي الحياة، انتقلت تدريجياً وبدرجات متفاوتة إلى أوروبا والعالم، ويعود ذلك التفاوت وبقاء بريطانيا في الصدارة صناعياً نتيجة العوامل التي تمتعت بها بريطانيا: من شبكة مواصلات بحرية ونهرية وعدم وضع عوائق في وجه المخترعين الأوائل، واستقرارها السياسي، ومستعمراتها الخارجية الواسعة. في حين عانت أوروبا من الثورة الفرنسية وحروب نابليون وانقطاع العلاقات مع بريطانيا، ممّا أخر انتقال التقنية الحديثة إليها بين أعوام ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م _ ١٢٣١هـ/١٨١٥م .

وبالرغم من أن بريطانيا وضعت قيوداً على انتقال العلماء والآلات إلى أوروبا في المرحلة الأولى من ثورتها الصناعيّة، إلاَّ أنَّ التقنية الحديثة استطاعت بشكل قانوني وغير قانوني الوصول إلى أوروبا وأمريكا .

أ_ انعكاسات الثورة الصناعيّة العالمية الأوروبية :

كانت بلجيكا أول الدول الأوروبية تأثراً بالثورة الصناعيّة، ساعدها على ذلك توفر الحديد والفحم، إضافة إلى بناء الطرق والقنوات المائية التي سهلت نقل البضائع. وقيام ثورة زراعية فيها في القرن الثامن عشر أدت إلى زيادة إنتاج الغذاء وخصوصاً محصول البطاطا مما أدى إلى زيادة عدد السكان.

---

(١) _ Ashton, The Industrial Revolution 1760-1830, p39 .

(٢) _ الاحتباس الحراري : مصطلح أطلقه عالم الكيمياء السويدي سفانتي أرينوس عام ١٨٩٦ على نظرية أن الوقود الحفري المحترق سيزيد من تلوث الغلاف الجوي بكميات من ثاني أكسيد الكربون وأنه سيؤدي إلى زيادة درجات حرارة الأرض. انظر مزيد مصعب مهدي الدليمي، الطاقة الإشعاعية والاحتباس الحراري، دار غيداء للنشر، عمان، ٢٠١٤، ص١٠٣.

كما ازدهرت الحركة المصرفية والبنوك فيها. وتطورت صناعة الفحم والتعدين والنسيج في بلجيكا[١]. وفي عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م وافقت الحكومة البلجيكية على مشروع سكة حديد بخارية تصل بين أهم موانئها الصناعيّة "لييج وبروكسل" وبتمويل بريطاني لتتسارع خطا التطور الصناعي فيها قبل غيرها من الدول الأوروبية[٢].

جاءت فرنسا في المرتبة الثانية بعد بلجيكا من حيث انتشار انعكاسات الثورة الصناعيّة البريطانية فيها. وبالرغم من وجود العديد من الاختراعات الفرنسية إلاّ أنَّ أثرها كان محدود في مجال الصناعة، والتغيرات الجذرية في هذا المجال تم نقلها من بريطانيا، وكان حافز فرنسا الأول لتشجيع الصناعة هو مواجهة البضائع البريطانية المصنعة. وذلك عبر تقليد التقنية والآلات الحديثة في بريطانيا معتمدة على جواسيس فرنسيين راقبوا المعامل وطريقة التصنيع في بريطانيا، وقام بعض المهربين بتهريب الآلات إلى فرنسا. ازدهرت صناعة القطن في فرنسا، في حين عانت صناعة الصلب والفحم من نقص الخبرة والآلات. ولم تتقدم تلك الصناعات إلا على يد بعض الخبراء البريطانيين بعد قيام الثورة الفرنسية[٣].

ولم تبدأ ثورة صناعية فعلية في فرنسا قبل عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م، وذلك بسبب الاضطرابات السياسية، لأن النمو السكاني كان بطيء، وتوسع الأسواق الداخلية والخارجية محدود، وترافق ذلك مع الأجور العالية، والأسعار المرتفعة للحديد مما أعاق بناء المعامل والسكك الحديدية[٤]. ولكن مع الجهود المتواصلة للحكومة والرأسمالية الفرنسية استطاعت فرنسا تخطي جميع الصعوبات وتحقيق نمو صناعي متواصل خلال القرن التاسع عشر.

أما بالنسبة لألمانيا التي تشكلت بعد حروب نابليون في القارة الأوروبية من اتحاد أكثر من ثلاثين ولاية مختلفة بالمساحة، وكانت كل ولاية تفرض تعرفة جمركية على حركة البضائع المارة في أراضيها مما عرقل الحركة الاقتصادية. لذلك لم تشهد انعكاسات للثورة الصناعيّة إلا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وذلك بعد قيام الاتحاد التجاري بين الولايات الجرمانية عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م مما أدى إلى ازدهار التجارة والصناعة وتوفير رأسمال للاستثمار. وساعدت شبكة السكك الحديدية الحديثة إلى

---

(١) _ Mikulas Teich, Roy Porter, The Industrial Revolution in National Context, Cambridge University Press, Great Britain, 1996, p64, p66 .

(٢) _ هيز، الثورة الصناعيّة ونتائجها السياسية والاجتماعية، ص١٠٩ .

(٣) _ Teich, Porter, The Industrial Revolution in National Context, p37-38 .

(٤) _ I bid, p58 .

تحقيق تقدم صناعي لأنَّها سهلت نقل البضائع والأشخاص بين أرجاء ألمانيا، والربط بين ألمانيا وفرنسا وبلجيكا من جهة وبين شرق أوروبا من جهة أخرى[١].

وفي الفترة بين أعوام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م _ ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م زاد إنتاج القطن والصوف، وإنتاج الفحم والحديد المتوفرين في ألمانيا. كما توسعت الهندسة الصناعيّة أنشأت المعامل واستخدمت المحركات البخارية، وساعدها في ذلك تقنيون وصناعيون من بريطانيا[٢].

وتدريجياً ازدهرت صناعة الحديد والتعدين واستخراج الفحم في أوروبا، على حين كانت صناعة القطن الأكثر ازدهاراً في بريطانيا. وانتشرت سكك الحديد في جميع أنحاء أوروبا مما ساعد على التكامل الاقتصادي فيما بينها .

ب_ انعكاسات الثورة الصناعيّة العالمية في الولايات المتحدة الأمريكية :

لم تتواجد في الولايات المتحدة الأمريكية تقاليد ريفية عريقة أو نظام حرفي يجب تجاوزه لتحرير اقتصادها، لوجود مجتمع ريفي قائم على استغلال العبيد في عمل الأرض، وزراعة القطن جنوباً، ووجود طبقة برجوازية تشجع الصناعة في الشمال. وبعد اعتراف بريطانيا باستقلال الولايات المتحدة سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٣م واستقرار أوضاعها[٣]، التفتت الولايات المتحدة إلى تطوير قطاعها الصناعي مستفيدة من مصادر الثروة الطبيعية فيها من غابات شكلت مصدر هام للطاقة وبناء السفن، وتوفر أرض خصبة ذات مساحات شاسعة، ووجود كميات كبيرة من الحديد الخام الذي حولته الثورة الصناعيّة إلى الصلب وقد أنشأ أول معمل في الولايات المتحدة سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م[٤]، وبالرغم من القوانين البريطانية التي تحرم تصدير آلات النسيج والخبراء خارج البلاد لم تستطع بريطانيا منع وصول الاختراعات إلى أمريكا وانتقال عدد من خبراء صناعة النسيج البريطانيين إليها[٥] وقد تركزت الصناعة في الشمال الأمريكي لأنَّ الجنوب عانى من الحروب الأهلية، ولكن منذ القرن التاسع عشر وببطء تطور الجنوب صناعياً خصوصاً في مجال صناعة القطن[٦]. وقد تميز القرن التاسع عشر في في أمريكا بتطور تقني ملحوظ في مجال اختراعات أسهمت في تطور صناعة النسيج مثل اختراع آلة

---

(1)_ William Otto Henderson, The Rise of German Industrial Power 1834-1914,University of California Press, 1975, p31.p50 .

(2)_ I bid, p53.

(3)_ Beaud, A History of Capitalism,1500-1980, 106 .

(4)_ Corona Brezina, The Industrial Revolution in America, Rosen Publishing Groupe, New York, 2005, p5,p8 .

(5)_ Anita Louise McCormik, The Industrial Revolution in United States History, Enslow Publishers, U.S.A, 1998, P78

(6)_ I bid, p10 .

الخياطة، والأنوال الحديثة الأكثر تطوراً من الأنوال البريطانية[١]. وازدهرت التجارة الداخلية في الولايات المتحدة وأسهم في ذلك تطور حركة الملاحة واستخدام القوارب البخارية في نهر الميسيسيبي، أما بالنسبة للتجارة الخارجية ساعد موقع الولايات المتحدة المطل على المحيطين الاطلنطي والهادي على التحكم بالأسواق البعيدة وتقوية اقتصادها[٢].

وقد اتبعت الحكومة الفدرالية في الولايات المتحدة سياسة واضحة لتطوير اقتصاد حديث منذ عام ١٢٢٧هـ/١٨١٢م وذلك عبر إنشاء البنك الوطني، والحفاظ على مستوى الأسعار، واستقرار النظام النقدي من أجل خلق مناخ مناسب للاستثمار. كما وضعت الحكومة الأمريكية رسوماً عالية على الواردات المصنعة لحماية صناعتها الوطنية، وعملت على تطوير البنى التحتية الاقتصادية عبر بناء القنوات المائية وسكك الحديد التي ربطت الأسواق الداخلية بعضها ببعض. ولقد عرفت تلك الاجراءات السابقة "بالنظام الأمريكي"[٣] الذي أسهم في تَصدُّر أمريكا للإنتاج الصناعي العالمي. والجدير بالذكر أنَّ كلاً من أمريكا وألمانيا استطاعتا مع حلول أواخر القرن التاسع عشر تجاوز الإنتاج الصناعي البريطاني، وطوّرتا المزيد من الابتكارات التي ساعدت على تواصل التنمية الاقتصادية. ولعل أفضل وصف للابتكارات الصناعيّة المتواصلة في النظام الرأسمالي ما أسماه الاقتصادي النمساوي (جوزيف شومبيتر) " التدمير الخلاق"، لأن مع كل تعديل على الآلة يجعل سابقتها بلا قيمة، وهذا كان يضرُّ بالشركات والاقتصاد[٤].

واشتركت الدول التي انتقلت لها الثورة الصناعيّة بانعكاسات متشابهة وبدرجات متفاوتة من حيث انتشار المكائن الآلية، ونمو المدن السريع، وتضاعف عدد المصارف، وازدياد الإنتاج الصناعي، وصعود البرجوازية الرأسمالية، واضطهاد طبقة العمال وقيام نقابات عمالية[٥].

ولكنَّ الصراع الأخطر بين الدول الصناعيّة الأوروبية، تمثل بالتنافس على الأسواق العالمية، لتصدير انتاجها المتزايد وتأمين احتياجاتها من المواد الأولية بأرخص الأثمان، وأدى ذلك التنافس الاستعماري لاستغلال الشعوب الخاضعة لهذه الدول وتخلفها الاقتصادي والتنموي، وكانت الحرب

---

(١) _ Keven Hillstorm, Collier Hillstorm, Industrial Revolution in America: Autombiles, Published by ABC-CLIO, California, 2006, p17 .

(٢) _ أبلبي، الرأسمالية ثورة لا تهدأ، ص٢٠٧ .

(٣) _ James Sluart Oslon, Encyclopedia of The Industrial Revolution in America, Green Wood Press, London, 2002, p10 .

(٤)_ أبلبي، الرأسمالية ثورة لا تهدأ ، ص٢٠٧

(٥) _ هيز، الثورة الصناعيّة ونتائجها السياسية والاجتماعية، ص١١٤-١١٥.

العالمية الأولى١٣٣٢هـ/١٩١٤م والحرب العالمية الثانية ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م نتيجة لهذا التنافس على النفوذ[١]، الذي تزعمته الولايات المتحدة وأصبحت أكبر قوة اقتصادية وسياسية في العالم.

(١) _ أحمد، الحضارة الأوروبية الحديثة والمعاصرة، ص٢٢٣.

الفصل الثالث

تأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية في التطور الاقتصادي التاريخي في سوريا _ الشام منذ بداية الثورة الصناعيّة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى بداية دولة محمد علي باشا فيها عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م

مدخل :

هناك علاقة وطيدة بين الاقتصاد والسياسة، قائمة على التأثر والتأثير المتبادل بينهما. فكثير من الصراعات السياسية تخفي ورائها مصالح اقتصادية كبرى، فمثلاً المحرك الرئيسي للاستعمار (ظاهرة سياسية) هو سعي القوى الاستعمارية إلى الحصول على مصادر رخيصة للمواد الخام وفتح أسواق لتصريف منتجاتها الفائضة(عوامل اقتصادية)[١].

وأوضح البحث كيف شكل الاستقرار السياسي والتشريعات السياسية الملائمة لتطوير الصناعة حجر الأساس في قيام الثورة الصناعيّة البريطانية .

ونتج عن ارتباط الاقتصاد بالسياسة علم سمي(الاقتصاد السياسي). وقد وضع ابن خلدون أصول هذا العلم في مقدمته الشهيرة في القرن الرابع عشر ميلادي، أي قبل المفكر البريطاني آدم سميث بقرون والذي تعتبره أوروبا مؤسس هذا العلم. وتحدث ابن خلدون عن دور السياسة في الاقتصاد، إذ أنَّ الحكومة السياسية هي التي تنظم الاقتصاد وتطوره في مجالات الزراعة والتجارة والصناعة، مؤكداً على أهمية تحقيق العدالة وحفظ الحقوق وتخفيض الضرائب[٢].

لذلك علينا عرض موجز للأوضاع السياسية لسوريا _ الشام تحت الاحتلال العثماني في الفترة الممتدة من منتصف القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر، مما يساعدنا على فهم الواقع الاقتصادي للمنطقة وانعكاسات الثورة الصناعيّة البريطانية عليها في تلك الفترة .

أولاً) : موجز الواقع السياسي لسوريا _ الشام منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى بداية دولة محمد علي باشا عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م :

١)_ موجز الواقع السياسي لسوريا _ الشام منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى حملة علي بك الكبير ١١٨٤هـ/١٧٧٠م :

ازداد النفوذ المحلي في سوريا _ الشام خلال القرن الثامن عشر، بعد أن تغيرت أمور الحكم العثماني وضعفت مركزيته. وبما أنَّ السلطة العثمانية منفصلة تماماً عن الشعب، شكل الحكام

---

(١) _ علاقة علم السياسة بعلم الاقتصاد www.Politics_dz_com/community/thread

(٢) _Antony Black, The History of Islamic Political Thought, Edinburgh University press Scoutland, 2011, p176 .

المحليون الذين كانوا من طبقة الأعيان والنبلاء دور الوسيط بين الإدارة العثمانية والعامة. وامتلك هؤلاء الحكام مصادر مالية وعسكرية لهم بعيداً عن السلطة المركزية في استانبول[١].

وهكذا استمرت السلطنة تعتمد على الولاة المحليين بشرط أن يحافظوا على ولائهم للسلطنة، والتزامهم بدفع الأموال المستحقة للخزينة، ومساعدتها في حروبها، وكان على ولاة دمشق مهمة إضافية وهي تأمين قافلة الحج من مؤن وسلامتها على الطريق[٢].

ولكي يحقق الوالي التوافق بين الحكومة العثمانية وبين حكمه المحلي، عمد لإرضاء الزعامات المدنية من التجار، والدينية من كبار العلماء، وليحظى برضا السكان اهتمَّ بشؤونهم المعاشية وبتلبية احتياجاتهم اليومية[٣].

ومن أبرز أسر الحكم المحلي العربي في سوريا _ الشام آل العظم والزيادنة .

أ – الحكم المحلي العربي لآل العظم في بلاد الشام والسياسة العثمانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى حملة علي بك الكبير :

– أصول آل العظم :

اختلف المؤرخون في أصول أسرة آل العظم، فالبعض رأى أنها عربية تعود إلى تحريف لاسم عشيرة (بني الزعيم) من عشائر البلقاء العربية، في حين هناك من يؤكد على أن أصل الأسرة عربي قادم من معرة النعمان شمال سوريا[٤].

ويؤكد الكاتب (عبدالقادر العظم) أنَّ أفراد الأسرة عرب لم يعرفوا اللغة العثمانية إلا من درس وعمل لدى الحكومة العثمانية[٥].

وازدهرت نسبياً ولاية سوريا _ الشام في عهد ولاة آل العظم تحت الحكم العثماني، وامتدَّ حكم هذه الأسرة من عام ١١٣٢هـ/١٧٢٠م حتى عام ١١٨٩هـ/١٧٨٣م. وقد تعاقب على حكم دمشق خلاله خمسة أفراد من آل العظم مدة خمسة وأربعين عاماً[٦]. ويلاحظ في القرن الثامن عشر أن ولاية سوريا– الشام أحياناً كانت في معظمها تمثل وحدة سياسية يحكمها آل العظم، حيث كان "أسعد العظم"

---

(١) _ Karl Barbir, Jane Hathaway, The Arab Lands Under Ottoman Rule 1516–1800, Published by Routledge, New York, 2013, p79–80 .

(٢) _ محمد، أبو جبل، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، ص ٢٤٥.

(٣) _ حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ص٢٨٦ .

(٤) _ عبدالقادر العظم، الأسرة العظمية، مطبعة الإنشاء، دمشق، ١٩٦٠، ص٨ .

(٥) _ المرجع نفسه، ص١٢ .

(٦) _ يوجين روجان، العرب من الفتوحات العثمانية إلى الحاضر، ترجمة عمر الجندي، دار كلمات عربية للنشر، القاهرة، ٢٠١١، ص٦٠ .

والي دمشق، وأخوه (سعدالدين) والياً على صيدا و(سليمان العظم) والياً على طرابلس[١]، وشكل ذلك نوعاً من اللَّحمة في سوريا _ الشام وكان أفراد العائلة يتعاونون للوصول إلى السلطة، لكن أحداً منهم لم يفكر بالاستقلال عن السلطنة .

ولعل (أسعد باشا العظم) أشهر ولاة آل العظم الذي حكم دمشق مدة أربع عشرة سنة من سنة ١١٥٦هـ/١٧٤٣م حتى عام ١١٧٠هـ/١٧٥٧م. وعندما استلم ولاية دمشق بعد عمه "سليمان العظم" كان عليه مواجهة زعيم عربي محلي حصل على دعم السلطنة العثمانية وهو دفتردار دمشق أي مسؤول الخزينة المدعو (فتحي الدفتردار)، الذي امتلك صلاحية مالية مكنته من التضييق على والي دمشق (أسعد باشا)، واستطاع أن يؤسس له قاعدة شعبية بين الحرفيين والفلاحين وعناصر اليرليه وادَّعى نسبه إلى الأشراف[٢]. وحاول تقليد ولاة آل العظم، وتحقيق شعبية له، فقام بتجديد منارتي (التكية السليمانية) وعمّر (طريق الصالحية)، وبنى حماماً في منطقة الميدان حيث تقيم اليرليه مما زاد تأييدها له[٣].

وكانت السلطنة العثمانية تنتظر ضرب القوتين العربيتين مع بعضهما، من أجل إضعافهما وبروز العنصر العثماني. ولم يكن بإمكان أسعد باشا تفادي هذا الصراع لأن فتحي الدفتردار أصبح خصماً قوياً مسيطراً في منطقة (الميدان) الهامة اقتصادياً ومركزاً تصل إليه حبوب المنطقة الجنوبية، فحصل على موافقة السلطان بقتله، وأُحرقت مئات البيوت جنوب مدينة دمشق، ونهبت، وتمّ تصفية الكثيرين من مؤيديه وأفراد أسرته[٤].

وبعد هذه الواقعة، عمد أسعد باشا العظم لإحلال الوفاق بين قوتي اليرليه المحلية وقوات السلطان الإنكشارية (القابي قول) حتى يسود الأمن والتوازن بين القوى دون أن تضعف سلطة آل العظم. حتى أنه أوصى عند صدور أمر السلطان بعزله من ولاية دمشق وتوليه حلب عام ١١٧٠هـ/١٧٥٧م بأن يتم الإصلاح بين الإنكشارية اليرليه والإنكشارية السلطانية (القابي قول)[٥].

وقد تمتع أسعد باشا العظم بفترة ولاية طويلة في دمشق _ الشام لقدرته على تحقيق التوازن بين المصالح المحلية ومصالح السلطنة وكانت أهم إنجازاته :

---

(١) _ محمد كرد علي، خطط الشام، ٦ أجزاء، الطبعة الثانية مكتبة النوري، دمشق، ج٢، ص٢٧٧ .

(٢) _ ليندا شيلشر، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة عمر وردينا الملاح، طبعة أولى، دار الجمهورية، دمشق، ١٩٩٨، ص٤٥ .

(٣) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث، ص٢٦٦ .

(٤) _ شيلشر، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ص٤٦ .

(٥) _ الحلاق، حوادث دمشق اليومية، ص٢٣٧ .

١ _ تأمين قافلة الحج، مما ساعد على ازدياد عدد الحجاج القادمين من الأناضول والمناطق العربية المجاورة إلى دمشق، وبالتالي زاد عدد التجار، واتسع التبادل التجاري بين سكان الولايات وأهل الشام[١].

٢ _ الاهتمام بتجارة الاستيراد والتصدير، حيث توسعت التجارة الأوروبية في دمشق[٢]، وبالرغم من وفرة البضائع إلاَّ أنَّ احتكار آل العظم لتجارة الحبوب واللحوم وغيرها أدى إلى ارتفاع الأسعار الدائم[٣]، الذي كانت تسببه أحياناً أحداث الفوضى والشغب بين القوى الانكشارية المحلية(اليرليه) والقوى الانكشارية السلطانية(القاب قول) وتؤدي إلى إغلاق الأسواق[٤].

٣_ كانت إنجازات "أسعد باشا" العمرانية العربية غاية في الأهمية، وهي ما تزال باقية حتّى الآن، وأبرزها إشادة خانه المعروف باسمه في (البزورية) بدمشق وتمّ بناؤه في عام ١١٦٧هـ/١٧٥٣م وكان من أكبر الأسواق في البلاد التي قصدها التجار، وشجعت الحركة الاقتصادية[٥]. وعمل (أسعد باشا) على توسيع مقام (السيدة زينب) وإصلاح قنوات المياه من ماله، وبناء العديد من الجوامع وترميم الجامع الأموي[٦].

يلاحظ وبالرغم من أطماع آل العظم ومصالحهم الاقتصادية، إلاَّ أنّهم استخدموا جزء من ثروتهم في بناء أبنية عامة وخاصة[٧]. ولعل أهم بناء معماري _لغرض شخصي_ أقامه أسعد باشا هو (قصر (قصر العظم) حيث كلف الكثير من المال والجهد والوقت، إلا أنه يعد الآن من أبرز معالم دمشق الحضارية.

وقد أصبح لمدينة دمشق طابع معماري عربي مميز في عهد آل العظم خلال القرن الثامن عشر، وبرز شعور الانتماء والفخر لدى السكان بمدينتهم[٨].

وعلى العكس من دمشق فإنَّ حلب لم تحصل على فرصة الحكم المحلي إلا في فترة ولاية أسعد باشا العظم لمدة عام واحد فقط. حيث أمر السلطان بعزله وقتله ومصادرة جميع أمواله[٩]. واقتصرت

---

(١) _ ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، ص١٠٤ .

(٢) _ شيلشر، دمشق في القرنين الثمن عشر والتاسع عشر، ص٤٧ .

(٣) _ الحلاق، حوادث دمشق اليومية، ص٢٢٦ .

(٤) _ المصدر نفسه، ص٢٤٢ .

(٥) _ المصدر نفسه، ص٢٢٤ .

(٦) _ المصدر نفسه، ص٢١٥، ص٢٣٠ .

(٧) _ Masters, Agosten, Encyclopedia of The Ottoman Empire, p69 .

(٨) _ شيلشر، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ص٤٧ .

(٩) _ كرد علي، خطط الشام، ج٢، ص٢٧٩ .

قوة السلطة المحلية في حلب على الأشراف الذين كان يتم عزلهم أيضاً إذا لم ينالوا رضا السلطان العثماني[١].

بدأ التحول التدريجي في حكم سوريا _ الشام من الحكم المحلي بعد آل العظم وعزل أسعد باشا، مع استمرار تواجدهم متقطعاً في الولايات الشامية، إلى الحكم المملوكي والعثماني، وعمدت السلطنة لتهدئة نفوس العامة إلى تعيين حاكم محلي عربي من غزة هو (حسين باشا المكي) عام ١١٧٠هـ/١٧٥٧م الذي اتصف أول عهده بالعدل وتخفيض الأسعار بعد احتجاج العامة لديه عند دخوله دمشق واستنكارهم أعمال الأعيان الذين سببوا غلاء الأسعار[٢]، لكن الأوضاع لم تستقر في عهده بل استمرت الصدامات بين قوات القابي قول واليرليه المدعومة من أهالي الميدان، وكانت هذه الصراعات تؤدي إلى شل الحياة الاقتصادية وإغلاق الأسواق[٣].

وقد فشل الوالي حسين المكي في تأمين قافلة الحج من الأعراب الذين هاجموها، ومن أجل أن يبرئ نفسه اتَّهم زوراً (أسعد العظم) الذي كان والياً على حلب أنه من حرّض البدو من آل صخر على مهاجمة قافلة الحج، وهذا ما اتَّخذه السلطان ذريعة لقتل أسعد باشا والتخلص منه[٤].

ثمَّ عزل حسين باشا بعد عام من ولايته وتمَّ تعيين قائد عسكري تركي يدعى (عبدالله الشتجي) من دياربكر[٥]، وهكذا عادت دمشق إلى رومية الحكم، واتّصف حكم (الشتجي) بالبطش والقسوة فاستاء سكان الشام من عنفه، لأن هدفه وهدف الحكومة العثمانية من تعيينه إخضاع ولاية دمشق، والقضاء على اليرليه المدعومة من فئات الشعب. ودخل دمشق عند تسليمه الولاية عام ١١٧١هـ/١٧٥٨م بجنود كثر من القابي قول واصطدمت مع اليرليه ودمرت حي الميدان وسَبت النساء وقتلت الكبير والصغير[٦].

هكذا انتصرت قوات القابي قول وعادت إلى وسط المدينة وقلعتها وهزمت (اليرليه) ووزع ما تبقى منها خارج المدينة، ودبّ الرعب بين السكان واستكانوا، وترافق ذلك مع زلزال هدم أجزاء كثيرة من الشام[٧].

---

(١) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، ص٢٤٦.

(٢) _ الحلاق، حوادث دمشق اليومية، ص٢٣٨-٢٣٩ .

(٣) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، ص٢٨٠.

(٤) _ المرجع نفسه، ص٢٥٢ .

(٥) _ محمد المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، الطبعة الثالثة، ٤أجزاء، دار البشائر الإسلامية ودار ابن حزم، بيروت، ١٩٨٨، ص٨١ .

(٦) _ البديري، حوادث دمشق اليومية، ص٢٥٠ _ ص٢٥٣ .

(٧) _ المصدر نفسه، ص٢٦٠ .

وعزل الشتجي عام ١١٧٣هـ/١٧٦٠م بسبب سوء تصرفه أثناء قيادته قافلة الحج حيث قام بعزل شريف مكة الذي اشتكاه لدى الباب العالي[١]. وتمَّ تعيين والي تركي جديد هو (محمد الشالك) الذي عزل بعد عام من ولايته وتشاءم الناس منه بسبب ترافق حكمه مع الطاعون والكوارث. وعين مكانه (عثمان الكرجي) ١١٧٤هـ/١٧٦١م الذي أطلق عليه العثمانيين اسم (الصادق) لأنه أخبر الحكومة العثمانية عن كل أموال وكنوز الوالي أسعد العظم الذي عينه سابقاً متسلماً ثم وكيلاً له في حماة[٢].

عمل (عثمان الكرجي) أثناء ولايته على إعمار دمشق وضمان سلامة قافلة الحج[٣]، وعلى توطيد توطيد سلطته في سوريا _ الشام وذلك بتعيين أولاده على ولاية صيدا وطرابلس سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م وكان والي صيدا هو (محمد باشا العظم) الذي تولاها منذ عام ١١٧٦هـ/١٧٦٣م . وهكذا نشب الصراع بين (محمد العظم) و(الكرجي) وانتهى بعزل الأخير، وتولية محمد العظم والياً على دمشق سنة ١١٨٥هـ/١٧٧١م ليبدأ حكم الجيل الثالث من آل العظم[٤].

ب _ الحكم المحلي العربي لآل الزيادنة والسياسة العثمانية حتى حملة علي بك الكبير ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م :

- أصول الزيادنة :

هم قبيلة عربية كانت تقيم مع بني أسد العرب وتتنقل بين براري الشام، وينتمي نسبهم إلى زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وبالتالي أصلهم من عرب الحجاز، واستقر بهم المقام في (طبرية) حيث زرعوا أرضها وربوا الأغنام وذلك عام ١١١٣هـ/١٧٠١م[٥].

لكنَّ ظاهر عمر الزيداني قتل رجلاً من عرب صقر، مما اضطر قبيلة بني زيدان إلى الرحيل عن طبرية، واختاروا منطقة صفد لأنها أخصب أرضاً وأسواقها أكثر ازدهاراً، كان ذلك سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م وقد تزوج ظاهر من امرأة من الشام أنجبت له ستة أولاد[٦]، وتوسع ظاهر في منطقة طبرية وكفله سكان منطقة (عرابة) لدى والي صيدا ليكون ملتزم الجباية، لكنه كان يتأخر في دفعها، مما ساعد على نموّ ثروته، وازدياد سلطته، وعيَّن أولاده وأخاه في مدن فلسطين ليوطد زعامته،

---

(١) _ المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثامن عشر، ج٣، ص٨١ .

(٢) _ المصدر نفسه، ص١٦١ .

(٣) _ البديري، حوادث دمشق اليومية، ص٢٦٨-٢٦٩ .

(٤) _ المرادي، سلك الدرر، ج٤، ص١٠١ .

(٥) _ ميخائيل الصباغ، تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني، تحقيق قسطنطين الباشا، مطبعة بولس، لبنان، ص١٥-ص١٧ .

(٦) _ المصدر نفسه، ص٢٣ .

فكان أخوه في دير حنا، وولده (علي) في صفد، و(عثمان) في شفا عمرو و(سعيد) في الناصرة و(صلبي) في طبرية و(أحمد) في جبل عجلون[١].

كان الباب العالي يراقب توسع (ظاهر) في صور وحيفا وعكا وامتداد نفوذه، فطلب من والي دمشق (سليمان العظم) أن يضع حداً له، لكن حملة الباشا "سليمان" الذي حاصر فيها "طبرية" مدة طويلة عام ١١٥٥هـ/١٧٤٣م انتهت بموته. وهناك فرضية أن (ظاهر العمر) دبر دس السم للباشا سليمان للتخلص منه[٢].

عندما تولى (أسعد باشا العظم) ولاية دمشق _ الشام طلب السلطان منه التخلص من (ظاهر العمر) ليضرب القوتيين العربيتين ببعضهما، لكن أسعد باشا أبطأ في تنفيذ طلب السلطان وكان هذا أحد أسباب غضب الباب العالي عليه. ويرجع سبب تردد أسعد باشا في قتال (ظاهر العمر) إلى صعوبة المعركة بسبب أسوار قلعة طبرية الحصينة من جهة، ولأن السلطان الذي يريد التخلص من (ظاهر) هو نفسه من أعطاه التزام عكا سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦م وكان يحصل على أموال الميري في الوقت المحدد من جهة أخرى. لذلك ركز أسعد باشا جهوده على جبل لبنان لتصارع الشهابيين فيه ضد الأمير (ملحم) الذي لم يدفع أموال الميري للسلطان[٣].

هكذا سنحت الفرصة أمام الزعيم العربي (ظاهر العمر) لإنشاء دولة قوية، فوطّد علاقته (بالمتاولة) الشيعة في جبل عامل جنوب لبنان الذين حصلوا على التزام صور، وأقام علاقات جيدة مع عرب البادية الذين دخلوا تحت حكمه[٤].

وطمح ظاهر العمر إلى ضم (عكا) إلى ملكه لموقعها الحصين من جهة، لتكون منفذاً تجارياً له على البحر من جهة أخرى، بعد أن تنازل عنها والي صيدا مقابل مبلغ من المال سنة ١١٦٤هـ/١٧٥٠م وأقام فيها تحصينات ضخمة، وبنى قلاعاً وأبراجاً، كان لها دور فيما بعد في حماية سوريا من الحملة الفرنسية سنة ١٢١٤هـ/١٧٩٩م[٥].

واهتمَّ "ظاهر" بالزراعة وبخاصة زراعة التوت والتبغ، وسيطر على التجارة الخارجية عبر ميناء عكا، مما أغضب الفرنسيين أصحاب المركز الأول تجارياً مع لبنان، وأصبح هو من يحدد أسعار البضائع والقطن، ممّا أجبر الفرنسيين على إبرام اتفاق معه عام ١١٦٧هـ/١٧٥٣م من أجل تنظيم

---

(١) _ كرد علي، خطط الشام، ج٢، ص٢٨٨ .

(٢) _ نادر العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، مطبعة الإنشاء، دمشق، دون تاريخ، ص٧٥ .

(٣) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق) ، ص٢٧١ .

(٤) _ كرد علي، خطط الشام، ج٢، ص٢٢ .

(٥) _ قسطنطين بازيلي، سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة يسر جابر، دار الحداثة للنشر، بيروت، ١٩٨٨، ص٧٠-٧١ .

التجارة بين الطرفين، وهذا ما جعل فرنسا تشكوه للسلطان وتعاديه[١]. وبحلول عام ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م أصبحت عكا ثالث أكبر مدينة سورية بعد حلب ودمشق، وأكبر ميناء على الساحل السوري[٢].

كان التزام (ظاهر العمر) بالجباية من هذه المناطق قد خفف عن الناس تدخل الباشوات والولاة، الذين يأخذون أموال الفلاحين بعد اقتطاع أموال الجباية. كما أنه كان عادلاً في معاملة الطوائف كافة، وكانت معظم أفراد حاشيته من الروم الكاثوليك[٣]، وكان مستشاره المالي الذي يدير أعماله، ويجمع الضرائب، ويكتنز الأموال هو المسيحي (إبراهيم صباغ)[٤].

لكن أولاد (ظاهر العمر) تمردوا عليه طمعاً في ثرواته علماً أنه وزع عليهم المدن ليحكموها كما أسلفنا سابقاً مابين عامي ١١٦٦هـ/١٧٥٢م و ١١٦٧هـ/١٧٥٣م[٥]. ولم تعد تظهر هذه الخلافات بينهم بسبب كثرة الأعداء المتربصين بهم، واستمرَّ هذا حتّى قيام والي دمشق (عثمان باشا الكرجي) الذي حكم بين أعوام ١١٧٤هـ/١٧٦٠م _ ١١٨٥هـ/١٧٧١م بتحريض ولدي ظاهر العمر (علي وسعيد) على والدهما لكن ظاهر تمكن من إعادتهما إلى كنفه. إنَّ بروز خطر الوالي التركي عثمان الكرجي في دمشق دفع جميع الأطراف العربية المتخاصمة إلى توحيد صفوفها، لذلك تمَّ الاتفاق بين (المتاولة وظاهر العمر) من طرف وبين الأمير (يوسف بن ملحم الشهابي) وأمير بعلبك (حيدر الحرفوش) من طرفٍ آخر[٦].

وفي ذلك الوقت كانت السلطنة تخوض حرباً مع روسيا سنة ١١٨١هـ/١٧٦٨م ومنشغلة في حروبها الخارجية عن توسع (ظاهر العمر) وحركة التحالفات بين الزعامات العربية، مما أقلق الوالي (عثمان الكرجي) الذي سعى لدى حكومة السلطنة العثمانية لتعزيز الحكم التركي في سوريا _ الشام وتمّ له ذلك، حيث عُزل والي صيدا (محمد باشا العظم) وعُين مكانه ابن عثمان باشا (درويش باشا) عام ١١٨٣هـ/١٧٧٠م[٧] وهكذا كانت طرابلس وصيدا ودمشق تحت حكم عثمان الكرجي وأولاده عشية عشية ثورة ظاهر العمر وحملة علي بك الكبير .

---

(١) _ كمال صليبي، تاريخ لبنان الحديث، الطبعة السابعة، دار النهار، بيروت، ١٩٩١، ص٣٥٢ .

(٢) _ Luna, Khirfan, World Heritage : Urban Design and Tourism (Three Cities in The Middle East) Published by Routledge, New York, 2016, p27 .

(٣) _ فليب حتى، لبنان في التاريخ، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٧، ص٤٧٨ .

(٤) _ بازيلي، سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص٨٣ .

(٥) _ ميخائيل الصباغ، تاريخ ظاهر العمر الزيداني، تحقيق قسطنطين الباشا، مطبعة بولس، لبنان، ١٩٣٥، ص٨٩.

(٦) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث(بلاد الشام والعراق) ، ص٢٨٢.

(٧) _ المرجع نفسه، ص٢٨٢-٢٨٣.

وشعر (ظاهر العمر) بالخطر الكبير الذي يتهدده من والي دمشق[١] خصوصاً بعد محاولته تأليب أولاده عليه، وتوتر العلاقات على إثر لجوء فلاحين من الريف الفلسطيني إلى ظاهر العمر هرباً من ظلم (عثمان الكرجي). وبما أنَّ قوة والي دمشق قد تعاظمت في ولاية سوريا _ الشام، بدأ ظاهر العمر بالبحث عن حليف قوي يساعده على الوالي التركي، ووجد ضالته في القائد المملوكي في مصر (علي بك الكبير)[٢].

٢ _ موجز الواقع السياسي السوري منذ حملة علي بك الكبير ١١٨٤هـ/١٧٧٠م حتَّى الحملة الفرنسية عام ١٢١٤هـ/١٧٩٩م .

أ _ سوريا _ الشام : موجز عن حملة علي بك الكبير وتحالفه مع ظاهر العمر ١١٨٤هـ/١٧٧٠م:

كان ولاة مصر في منتصف القرن الثامن عشر من المماليك، الذين فضلتهم السلطنة العثمانية

رغم أنهم كانوا من أعدائها باعتبارهم من حكام مصر السابقين، ولم تثق بأي من السكان العرب المحليين. ولكن عند اشتداد قوة المماليك عملت استانبول كعادتها، على تدبير مؤامرة للتخلص من منافسيها المماليك لصالح والٍ عثماني يُدعى (راغب باشا) الذي قضى على عدد كبير منهم. ولكنَّ أميرين اثنين وهما (رضوان باشا) و(إبراهيم باشا) أدركا خطورة الوالي العثماني فحاصروه وعزلوه واستولوا على السلطة في مصر دون منافس. وكان إبراهيم باشا أستاذ (علي بك الكبير) وهو مملوك تمَّ شراؤه عندما كان ولد صغير من منطقة القفقاس. وبعد وفاة إبراهيم عام ١١٦٩هـ/١٧٥٥م تلاه في الحكم "رضوان بك" وبرز نجم (علي بك الكبير) بين أمراء المماليك واستطاع الوصول إلى الولاية ومشيخة البلاد سنة ١١٧٧هـ/١٧٦٠م[٣].

وطّد (علي بك الكبير) أركان دولته وحاسب الفاسدين والعابثين بالأمن، وصادر الأموال لتقوية جيشه وتخلص من خصومه من أمراء المماليك المنافسين له. وكان هدفه إعادة السلطة المملوكية الشرعية إلى البلاد حسب رؤيته والتخلص من العثمانيين، لذلك بعد استلامه السلطة طرد الوالي العثماني من القاهرة، واتَّخذ لنفسه لقب قائم مقام مصر، وأرسل حملة إلى الحجاز، حيث عزل شريف مكة وعين مكانه شريفاً مؤيداً له، واضطرت السلطنة الموافقة على هذا التحرك، لأنها كانت منشغلة في حروبها مع روسيا. وكان هدف علي بك الكبير من حملة الحجاز، تأمين قافلة الحج المصرية وأموالها، والسيطرة على ميناء جدة الاستراتيجي وموارده الضخمة على البحر الأحمر. وهكذا عزز

---

(١) _ بازيلي، سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص٧٢ .

(٢) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث(بلاد الشام والعراق) ، ص٢٨٣.

(٣) _ أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، عشرة أجزاء، الطبعة السابعة، القاهرة، ١٩٨٦، ج٥، ص٣٠٧-٣٠٨ .

سلطته الدينية والاقتصادية معاً[١]. وكان يسعى لجعل مصر مستقلة عن العثمانيين، فاهتم بالتجارة ولكنَّه زاد الضرائب لتغطية نفقاته الحربية[٢].

أكثر علي بك الكبير من شراء المماليك وتدريبهم، وبرز منهم أحد أهم قادة جيوشه (محمد أبو الذهب) الذي دُعي بهذا الاسم لأنه وزع الذهب على الفقراء عندما تمَّ تعيينه في القلعة، وكانت العادة توزيع الفضة[٣].

أدرك علي بك الكبير أنَّ هدفه في إعادة السلطنة المملوكية إلى الحياة لا يمكن أن يتم إلاّ باستعادة بلاد الشام من السلطنة العثمانية، ويعدّ هذا هو السبب البعيد والأساسي لحملته إليها .

أما عن الأسباب القريبة المباشرة فهي كثيرة، أولها محاولة علي بك الكبير الاستفادة من انشغال السلطنة العثمانية في حروبها مع روسيا، وخسائرها المتتالية أمام الروس الذين استطاعوا احتلال شبه جزيرة القرم بعد ٢٩٩عام من الاحتلال العثماني لها، وأصبح للروس نفوذ في البحر الأسود بعد أن كان بحيرة عثمانية[٤]. ولقد استمرت الحرب العثمانية _ الروسية بين أعوام ١١٨٢هـ/١٧٦٨م حتى ١١٨٨هـ/١٧٧٤م حيث انتهت بمعاهدة (كوتشك قانيارجي) المذلة للسلطنة العثمانية والتي شكلت بداية النهاية لها كدولة عظمى[٥].

أما السبب الثاني المباشر للحملة فكان قوة والي دمشق عثمان الكرجي وسيطرته هو وأولاده على معظم ولاية سوريا _ الشام، ممّا شكل عائقاً في وجه علي بك الكبير وطموحاته بالتوسع، إضافة إلى العداء الشخصي بينهما، عندما التقيا في إمارتي الحج المصري والشامي في مكة المكرمة سنة ١١٧٨هـ/١٧٦٤م[٦].

والسبب الثالث وجد (علي بك الكبير) في (ظاهر العمر) حليفاً مناسباً وقوياً، يشاركه العداء للوالي العثماني (عثمان الكرجي)، كما أنَّ لظاهر العمر حلفاء يشدون من عضده في جبل لبنان من "المتاولة" بزعامة الأمير (ناصيف) وأمير الشهابيين (منصور) في حين الأمير يوسف دعم الوالي (عثمان باشا) . أما المبرر الذي ادّعاه علي بك الكبير لبدء هذه الحملة أمام السلطنة العثمانية حتى لا

---

(١) _ العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ص٧٩ .

(٢) _ Arthur Gold Schmidt, Bigraphical Dictionary of Modern Egypt, Lynn Rienner Publishers, London, 2000, p18 .

(٣) _ عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، أربعة أجزاء، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٩٩٨، ج١، ص٤١٧ .

(٤) _ يلماز أزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان سلمان، مجلدين، منشورات مؤسسة فيصل، استانبول، ١٩٨٨، مجلد١، ص٢٦٧ .

(٥) _ فؤاد صالح السيد، أشهر الأحداث العالمية (١- ١٨٩٩م)، مكتبة حسن العصرية، بيروت، ٢٠١٥، ص٤٣٢.

(٦) _ عمر عبدالعزيز عمر، تاريخ لبنان الحديث، دار النهضة العربية، القاهرة، ص٦٨ .

يبدو خارجاً عن سلطتها، فكان عزمه القيام بحملة تأديبية للوالي عثمان باشا لأنه يحرض أعداء علي بك ضده، وليخفف ظلمه عن سكان وفلاحين غزة[١].

في هذا الوقت كان الشيخ (ظاهر العمر) قد بدأ عملياته القتالية لصد هجوم الوالي (عثمان باشا) وأعوانه من الباشوات من جبل لبنان، وقد هاجمت قواته معسكر الباشا قرب نابلس ونجا (عثمان باشا) بأعجوبة[٢]، وجاءت القوات المصرية لنجدة ظاهر العمر بقيادة (اسماعيل باشا) وبمجرد وصوله إلى مدينة يافا، انسحب عثمان باشا إلى دمشق .

هكذا كان ميناء يافا وعكا جاهزين لاستقبال القوات البحرية لحملة (علي بك الكبير) مدعومة بالقوات البحرية الروسية، لكنَّ (اسماعيل باشا) لم يستمر بالهجوم وذلك بسبب رفضه أن يكون تحت إمرة ظاهر العمر وأولاده[٣]. ورفض مهاجمة الوالي (عثمان الكرجي) وهو خارج في قافلة الحج الشامي لأن ذلك لا يصح دينياً[٤].

وساد الهدوء فترة من الزمن حتى جهز علي بك الكبير حملة سنة ١١٨٥هـ/١٧٧١م بقيادة قائده (محمد أبي الذهب) وانطلقت هذه الحملة بحراً من (دمياط) إلى (يافا) والتقت مع قوات ظاهر العمر وقوات المقاومة وتشكل جيش يزيد تعداده عن ستين ألفاً[٥].

وبعد الانتصارات التي حققها هذا الجيش في المناطق الساحلية، توجه محمد أبي الذهب نحو مدينة دمشق وهزم واليها (عثمان باشا)، وأصدر بياناً باسم (علي بك الكبير) لأهالي دمشق. أعلن فيه أنه جاء ليخلصهم من ظلم الوالي العثماني الذي أهان الحجاج والتجار، وذكرهم بما فعله الوالي عندما دفن علماء غزة وهم أحياء العام الفائت، وأنه حصل على فتوى المذاهب الأربعة لقتال هذا الظالم[٦]. وهذا البيان يدل على إدراك (علي الكبير) لأهمية الدين لدى مجتمع سوريا _ الشام.

وبالفعل خرج العوام وعلماء دمشق إلى (محمد أبي الذهب) طالبين الأمان منه، ودارت المعركة بين قوات (ظاهر العمر) و(المتاولة) و(أبي الذهب) من جهة، وقوات ولاة حلب وطرابلس ودمشق من جهة أخرى قرب (داريا)[٧]. وانتهت بهزيمة الأتراك الذين حاولوا أثناء فرارهم نهب بعض أحياء دمشق،

---

(١) _ كرد علي، خطط الشام، ج٢، ص٢٩٠-٢٩١.

(٢) _ بازيلي، تاريخ سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص٧٢ .

(٣) _ المصدر نفسه، ص٧٣ .

(٤) _ العطار، تاريخ سورية الحديث، ص٧٨ .

(٥) _ كرد علي، خطط الشام، ج٢، ص٢٩٠ .

(٦) _ المصدر نفسه، ص٢٩٠_٢٩١ .

(٧) _ العطار، تاريخ سورية الحديث، ص٧٩ .

دمشق، لذلك تشكلت حامية للدفاع عن دمشق مكونة من سكانها وقوات (اليرليه) بزعامة "يوسف بن جبري" في حين قامت قوات (القابي قول) بحماية قلعة دمشق[١] .

بينما كان الوالي التركي (عثمان باشا) يعيد تجميع عساكره، فرّ ابنه والي صيدا منها، ودخلتها قوات ظاهر العمر والمتاولة مدعومين من الأمير الحاكم (منصور الشهابي)[٢]. ولكن حصل ما لم يكن بحسبان الجميع، وهو انسحاب (أبي الذهب) دون سابق إنذار من دمشق، وعاد إلى مصر في ١١٨٤هـ/١٧٧١م تحت حجة أنه أنهى مهمته في سوريا _ الشام. وإن كان سبب انسحابه بقي مجهولاً، فإن التخمينات ترجح أنه تلقى وعداً من السلطنة بتعيينه حاكماً لمصر بدلاً من سيده "علي بك الكبير"[٣].

ب _ سوريا _ الشام بين السلطنة وعلي بك الكبير والأسطول الروسي وظاهر العمر حتى وفاته :

عندما عاد (عثمان باشا) إلى دمشق، عمل على الفور على تصفية خصومه فقتل آغا اليرليه (يوسف بن جبري) وصادر كل أمواله متهماً ابن جبري بمساعدة القوات المصرية طمعاً في السلطة، وعين مكانه رجلاً من أهل الشام لتهدئة النفوس يدعى (عثمان آغا شهيب)[٤].

استغل عثمان باشا انسحاب (أبي الذهب) فهاجم قوات ظاهر العمر سنة ١١٨٥هـ/١٧٧١م ولكنه خسر المعركة قرب بحيرة (الحولة)، واستعاد ظاهر العمر وحلفائه مدينة صيدا للمرة الثانية. وفي هذه الأثناء وصلت قوات جديدة من مصر وسيطرت على غزة والرملة ويافا[٥].

وفي نفس العام جاء قرار السلطان العثماني بعزل عثمان باشا وأبنائه عن ولايات دمشق وصيدا وطرابلس بعد انسحاباتهم وخسائرهم المتكررة، وازدياد قوة التحالف العربي بقيادة ظاهر العمر، فتم تعيين (محمد باشا العظم) والياً على الشام وهو يمثل الجيل الثالث من أسرة آل العظم[٦].

لكن المستجد الجديد كان في عام ١١٨٦هـ/١٧٧٢م عند هرب "علي بك الكبير" من مصر إثر اختلافه مع قائده (أبي الذهب)، ولجأ إلى (ظاهر العمر) الذي فقد حليفاً قوياً وبالتالي ضعف موقفه أمام أعدائه. ولكن والي دمشق الجديد (محمد العظم) وقائد القوات العثمانية (عثمان الوكيل) المنصّب والياً على مصر لم يتحركا ضد ظاهر العمر وانتظروا تطور الأحداث المتسارعة[٧].

---

(١) _ كرد علي، خطط الشام، ج٢، ص٢٩٢ .

(٢) _ عبدالعزيز عمر، تاريخ لبنان الحديث، ص٦٩ .

(٣) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث(بلاد الشام والعراق) ، ص٢٨٧ .

(٤) _ كردعلي، محمد، خطط الشام، ج٢، ص٢٩٢ .

(٥) _ عبدالعزيز عمر، تاريخ لبنان الحديث، ص٧٠ .

(٦) _ كرد علي، خطط الشام، ج٢، ص٢٩١.

(٧) _ محمد، أبو جبل، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، ص٢٨٩.

وتدخل طرف جديد في النزاع ألا وهو الأسطول الروسي الذي كان في البحر المتوسط في حالة حرب مع السلطنة العثمانية، وقد اتصل (ظاهر العمر) و(علي بك الكبير) بالأسطول وتمَّ الاتفاق على مساعدتهم في عملياتهم العسكرية على سواحل لبنان[١]. ورأى الروس أنها فرصة لإثارة المزيد من المتاعب الداخلية للسلطنة من جهة، وللضغط عليها من جهة أخرى لتحقيق مكاسب أكثر أهمية في مناطق أخرى (المضائق، الامتيازات الدينية)[٢]. فقام الأسطول الروسي بقصف ميناء بيروت ودمّره ليضمن عدم قدرة العثمانيين على استخدامه لإنزال المؤن والعسكر، كما قطع الطريق الساحلي على (يوسف الشهابي) حتى لا تصل قواته إلى صيدا حيث قوات ظاهر العمر. واستعان يوسف الشهابي بالقوات العثمانية التي أرسلت إليه قوات بقيادة (أحمد باشا الجزار). لكن الأسطول الروسي حاصر بيروت أربعة أشهر متواصلة، مما اضطر الجزار لتسليم بيروت ودفع الأموال للروس بعد جبايتها من سكانها[٣].

وفي هذه الأثناء عاد علي بك الكبير إلى مصر وحارب (أبي الذهب) في منطقة (الصالحية) عند (الدلتا) سنة ١١٨٧هـ/١٧٧٣م وانتهت المعركة بخسارته ووفاته متأثراً بجراحه[٤].

ونلاحظ التزام ظاهر العمر تجاه حليفه المملوكي فقد أرسل معه القوات إلى مصر ونصحه بعدم القتال حتّى تستقر الأوضاع، وهذا يدل على صدقه على عكس علي بك الكبير الذي كان يعتبره وسيلة لمدّ نفوذه المملوكي .

أصبح ظاهر العمر وحيداً بعد موت علي بك الكبير، وساء وضعه العسكري وتعرضت عكا لحصار من قبل العثمانيين وأبي الذهب الذي استقر له وضع مصر بعد أن قامت السلطنة بعزل (عثمان الوكيل) عن ولايتها[٥]، مما يثبت اتفاقها مع أبي الذهب بمنحه ولاية مصر مقابل انسحابه من من دمشق .

وفي ظل هذه الظروف طلب (ظاهر العمر) عفو السلطنة العثمانية، ووافقت الدولة عليه حتى تسوي أمور حربها مع روسيا وتتفرغ له. وفي عام ١١٨٨هـ/١٧٧٤م أصدرت فرماناً عفت فيه عنه وعينته حاكماً على صيدا ويافا وحيفا ونابلس[٦].

---

(١) _ بازيلي، سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص٧٥_٧٦ .

(٢) _ نادية مصطفى، العصر العثماني في القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦، ص١٢٦ .

(٣) _ عبدالعزيز عمر، تاريخ لبنان الحديث، ص٨١ .

(٤) _ العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ص٨٢ .

(٥) _ كرد علي، خطط الشام، ج٢، ص ٢٩٥.

(٦) _ عبدالعزيز عمر، تاريخ لبنان الحديث، ص٧٢ .

وما أن انتهت الحرب العثمانية الروسية حتى بدأ العثمانيون بالتفكير بالتخلص منه ومن حكمه المحلي العربي، وكانت أفضل طريقة لذلك هي ضرب القوتين المعاديتين لها وهما قوة (ظاهر العمر العربي) وقوة (محمد أبي الذهب المملوكي)، وهي طريقة غالباً ما كانت تنجح في تحقيقها السلطنة العثمانية للتخلص من خصومها .

وقد استطاع (أبو الذهب) التحالف مع أحد أبناء ظاهر العمر وهو (علي) وخرجت حملة من مصر ١١٨٩هـ/١٧٧٥م واستولت على يافا بعد حصار انتهى بمقتل معظم سكان المدينة[١]. ثم انتقل لحصار عكا إلا أنّه توفي أثناء الحصار. وأرسل الباب العالي (حسن باشا) لترتيب الأمور مع ظاهر العمر ودفع الضريبة المترتبة عليه مدة ست سنوات، لكن كما هي العادة الخيانة تغير مجرى الأحداث، خان قائد حامية قلعة عكا الشيخ ظاهر وتحالف مع الأسطول العثماني وقصف القلعة مما أدى إلى مقتل ظاهر العمر[٢]. وهكذا توفي هذا الشيخ التسعيني الذي لم تحالفه الأقدار لإقامة دولة عربية وقتل معظم أبنائه من بعده .

ولعل أهم أسباب فشله في بناء دولة عربية هو عدم اتفاق أولاده والصراع الدائم معهم، وتحالفهم مع الأعداء ضده، وغياب الأشخاص الأوفياء من حوله. وخيانة أبي الذهب لحليفه علي بك الكبير. إضافة إلى غياب الوعي العربي لدى زعماء جبل لبنان الذين كان همهم السلطة لا غير، لذلك كانوا تارةً يتحالفون معه وتارةً يتحالفون مع العثمانيين. وترافق ذلك مع قدرة السلطنة رغم ضعفها على معالجة الأمور وضرب القوى المتصارعة بعضها ببعض. لتفشل المحاولة الثانية بعد محاولة (فخر الدين المعني) في القرن السابع عشر لبناء دولة عربية مستقلة عن السلطنة العثمانية في سوريا _ الشام .

ج _ سوريا– الشام :موجز الواقع السياسي من موت ظاهر العمر حتى الحملة الفرنسية ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م :

بموت (ظاهر العمر) عاد الحكم العثماني ليمكن نفوذه في سوريا _ الشام واختار الباب العالي (محمد باشا العظم) لولاية دمشق عام ١١٨٥هـ/١٧٧١م وذلك لثقته بآل العظم من جهة، ولتهدأ نفوس الشعب في دمشق _ الشام من جهة أخرى، بعدما جرى عليهم من حروب وقتل. وكما هي عادة آل العظم سعى الوالي (محمد باشا) إلى توطيد الأمن في ولايته، وتأمين قافلة الحج حتّى لا تكون عليه حجة لدى السلطان لعزله وقد بقي في ولايته حتى وفاته سنة ١١٩٧هـ/١٧٨٣م وكان عادلاً وقوياً[٣].

---

(١) _ كردعلي، خطط الشام، ج٢، ص٢٩٥ .

(٢) _ بازيلي، تاريخ سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص٨٦ .

(٣) _ مؤلف مجهول، تاريخ حوادث الشام ولبنان(تاريخ ميخائيل الدمشقي) تحقيق أحمد سبانو، الطبعة الثانية، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٢، ص١١ .

وعاد للحكم بعده أولاد عثمان الكرجي وهكذا عادت رومية الحكم إلى دمشق _ الشام. ولكن دمشق فقدت ازدهارها ومركزها المحوري الذي لعبته على مسرح الأحداث السياسية في سوريا _ الشام، وخصوصاً في فترة حكم آل العظم. وذلك بسبب بروز شخصية إرهابية وهي (أحمد باشا الجزار) الذي حكم سوريا حتى وفاته سنة ١٢١٩هـ/١٨٠٤م[١] .

_ أحمد باشا الجزار: هو مسيحي من مواليد البوسنة، هرب عندما كان في السادسة عشرة من عمره بعد ارتكابه جرماً منافياً للأخلاق. وعند وصوله إلى (القسطنطينية) باع نفسه كرقيق لتجار العبيد، وهكذا وصل مملوكاً إلى مصر. لكن البدو قاموا بقتل سيده (عبدالله بك) لذلك انتقم منهم وقتل الكثير من مشايخهم خصوم (علي بك الكبير) حتى لقب بالجزار، فنال رضى (علي بك الكبير) ومنحه لقب "بك"[٢].

انتقل أحمد الجزار بعد ذلك مع بعض مماليكه إلى سوريا _ الشام وعلا شأنه بعد الخدمات التي قدمها لقائد القوات العثمانية في دمشق (عثمان الوكيل) ومساعدته في تحصين بيروت في وجه الأسطول الروسي، حتى استقرَّ أخيراً في مدينة عكا سنة ١١٨٦هـ/١٧٧٢م. وبعد انتصار الأتراك على (ظاهر العمر) في سنة ١١٩٠هـ/١٧٧٦م تمَّ تعيين الجزار والياً على (صيدا). وأصبحت صيدا محور الأحداث في المنطقة، التي كان أبرز معالمها الصراعات بين الأخوة والأقارب، وجرائم القتل الكثيرة التي ارتكبها الجزار بحقِّ السكان الأبرياء[٣].

قد اختار الجزار عكا مركزاً له وحصنها، ذلك لموقعها المميز المتقدم في البحر الذي يسهل الدفاع عنه، ولم يعتمد على العرب في حكمه ولم يثق بهم بل اعتمد على المماليك في حكم صيدا وطرابلس. وكان عسكره من القتلة والمشردين من ألبان ومغاربة ومماليك جاؤوا من أنحاء السلطنة[٤]. ولم يكونوا على شيءٍ من حسن النظام العسكري والتربية، وكانوا يعتدون على الأهالي ويسلبون أملاكهم وهم يعتبرون ذلك غنيمة باردة بدون حرب. ومن أجل تمويل هذا الجيش صادر الجزار أموال التجار الأجانب، مما أضر بالنشاط التجاري، وابتز الأموال من الفلاحين فهجر الكثير منهم قراهم، واستخدم من تبقى في أعمال السخرة لتحصين قلعة عكا. ذلك أدى إلى الانحطاط الاقتصادي في سوريا _ الشام الجنوبية[٥].

---

(١) _ كرد علي خطط الشام، ج٣، ص٥.

(٢) _ بازيلي، سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص٧٨_٧٩ .

(٣) _ محمد، أبو جبل، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، ص ٢٩٣.

(٤) _ Thomas Philpp, Acre : The Rise and Fall of Palestinian City 1730–1831, Columbia University Press, New York, 2002, p141 .

(٥) _ عبدالله فايز حنا ومجموعة من المؤلفين، ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري(العصر الحديث)، خمس مجلدات، دمشق، ١٩٩٣، مجلد٣، ص٦٦ .

بقي الجزار يطمح بالوصول إلى ولاية دمشق منذ وفاة واليها (محمد العظم) وسنحت له الفرصة بعد عزل واليها (درويش باشا) منها سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٥م وتم تعيينه عليها ثلاث مرات. ففي المرة الأولى وبعد سنة واحدة على ولايته أثناء غيابه مع قافلة الحج الشامي، استغل أهل الشام غيابه وجاهروا بظلمه واحتكاره القمح وتخزينه فأمرت السلطنة بعزله، وعينت والي تركي ظالم مثله يدعى (إبراهيم الدالاتي) ودام حكمه أربع سنوات[١]. تولى بعده (إبراهيم باشا الكردي) سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٠م واستمر أهل الشام بالعصيان والثورة ضد ظلم الولاة. ثمّ أعادت السلطنة (الجزار) مرة ثانياً والياً على دمشق سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩١م[٢]، كنوع من التأديب لسكانها كلما ثاروا على الولاة الأتراك .

كان الجزار حاقداً على أهل الشام، الذين شكوه سابقاً للسلطان، فأنزل فيهم كل أنواع الظلم والقتل خلال فترة ولايته الثانية التي امتدت خمس سنوات، وبقي هو في (عكا) وأرسل متسلماً إلى الشام يدعى (محمد أرفا أميني) وقد شابه قائده الجزار بحبِّه للمال. وكان الجزار يأتي دمشق قبل الحج بعشرة أيام، وعند عودته يقيم فيها عشرة أيام أيضاً ويقوم بقتل الناس وتعذيبهم. وقد تعرض أهل دمشق لسياسة الإفقار واحتكار المواد وتمَّ حبس صيارفة الشام وكانوا من اليهود وتمَّ تعذيبهم وقتلهم، ولحق الانتقام ابنة (أسعد باشا العظم) التي قتل ابنها على يد متسلم الجزار[٣].

هكذا تمَّ سحق الطبقة الوسطى في دمشق وهي عادةً ما تكون المحرك السياسي والاقتصادي في البلد. واستمر حال الشام المنكوبة حتّى تم عزل الجزار عنها، ثمَّ تولية (عبدالله باشا العظم) سنة ١٢١٠هـ/١٧٩٠م وانفرج أهل الشام وفرحوا كثيراً واستمرت احتفالاتهم ثلاثة أيام[٤].

وعمل (عبدالله باشا) مثل أسلافه على إعادة الأمان إلى دمشق وتخلص من متسلم الجزار (محمد أرفا أميني) وخنقه بالقلعة[٥]. لكن مدّة حكمه لم تتجاوز الثلاث سنوات. حيث عزلته السلطنة وعينت مكانه الوالي التركي (إبراهيم باشا خليلي) لأن السلطنة خشيت من أي حركات تمرد مع وصول الفرنسيين لاحتلال مصر، ولكنه كان قاسياً وأحمق فطرده أهل الشام. فعاقبتهم السلطنة وأرسلت (أحمد باشا الجزار) والياً عليهم للمرة الثالثة، حيث كان مشغولاً بالحملة الفرنسية وحصارها لعكا. فأرسل مكانه متسلماً إلى دمشق، وكانت الفوضى تعمَّ البلاد "وفلت الحكم بالشام وبرها حتى ما عاد أمان على

---

(١) _ مؤلف مجهول، تاريخ ميخائيل الدمشقي، ص١٦ .

(٢) _ حسن آغا العبد، حوادث بلاد الشام والإمبراطورية العثمانية، تحقيق يوسف نعيسة، الطبعة الأولى، مطبعة الشام، دمشق، ١٩٨٦، ص١٩ .

(٣) _ مؤلف مجهول، تاريخ ميخائيل الدمشقي، ص١٧_١٨ .

(٤) _ العبد، حوادث بلاد الشام والإمبراطورية العثمانية ، ص٢٦ .

(٥) _ مؤلف مجهول، تاريخ ميخائيل الدمشقي، ص٢١ .

عرض ولا مال"[1]. وكان الجميع ينتظر ما ستؤول إليه المعركة بين (أحمد الجزار) وجنود نابليون على أسوار عكا سنة ١٢٤١هـ/١٧٩٩م .

أما بالنسبة لجبل لبنان فقد أحكم الجزار سيطرته عليه من خلال إثارة النزعات والخصومة بين أمراء الجبل الشهابيين المتصارعين على السلطة، ودعم الأمير الذي يستطيع أن يدفع له مالاً أكثر .

وفي العام الثاني من حكمه ادَّعى (الجزار) أن سكاناً جبليين قد اعتدوا على عسكره قرب (صيدا) وجهز حملة إلى (دير القمر) قاموا بأعمال السلب والنهب في (المتن وكسروان والشوف). وكان موقف الأمير (يوسف الشهابي) ضعيفاً أمام (الجزار) من جهة، وأمام شعبه المنهك بالضرائب من جهة أخرى. ولاستمراره في السلطة ضاعف الجزية له. وقام وزيره (سعد الخوري) بإيجاد ضرائب جديدة غير الضرائب المباشرة التي كانت تدفع عن مزروعات لبنان، من زيتون ومنتجات الحرير، وفرض ضرائب جديدة على تربية دودة القز، والأغنام، وضريبة القرون والمطاحن[2].

أما المتاولة الذين كانوا يقيمون بين (صيدا وعكا) ووقفوا إلى جانب ثورة ظاهر العمر فقد دفعوا ثمن موقفهم ذلك، حيث جرد الجزار حملة عليهم سنة ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م مكونة من خمسة عشر ألف جندي من مرتزقته، ومات في أرض المعركة شيخ المتاولة وحليف (ظاهر العمر) سابقاً الشيخ (ناصيف النصار). وبقي جنود الجزار مدة عامين ينهبون ويقتلون في منطقة المتاولة الذين حاولوا الاستنجاد بالأمير يوسف الذي ما أن تحسنت علاقته مع الجزار حتّى سلَّمه شيخ المتاولة اللاجئ عنده.

أما قبائل المتاولة التي كانت تقيم في وادي (بعلبك) ويحكمها آل حرفوش الذين كانوا في حالة نزاع على السلطة أيضاً، فكانوا يطلبون دعم والي دمشق "درويش باشا" حيناً ودعم الشهابيين حيناً آخر، وهذا ما أضعف سلطة المتاولة وأدى إلى سيطرة الأتراك عليهم مباشرة وفقدان إمارتهم سنة ١٢٠١هـ/١٧٨٦م[3]. هكذا نلاحظ أن صراع الأخوة على السلطة كان يؤدي إلى إضعاف جميع الأطراف وعودة الطرف التركي إلى مركزية الحكم .

وفي هذه الأثناء أعلن (يوسف) العصيان مستغلاً انشغال (الجزار) في قتاله مع مماليكه المتمردين عليه، وبعد أن قضى على جميع المتمردين من ولاة صيدا وطرابلس المماليك، ضعف موقف (يوسف) لأن الجنبلاطيين تنازلوا عن السلطة لأحد أقربائه، وهو ابن عم أبيه الذي عُرف باسم (بشير الثاني) سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م وعندما حاول الأمير يوسف استعادة السلطة ولذلك عرض على (الجزار) جزية سنوية بمقدار ستمئة ألف قرش، ولكن بشير الثاني دفع ضعفي المبلغ للجزار مقابل

---

(١) _ مؤلف مجهول، تاريخ ميخائيل الدمشقي، ص٢٢ .

(٢) _ بازيلي، سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص٩١-٩٢ .

(٣) _ المصدر نفسه، ص٩٣ .

إعدام يوسف وتمَّ لـه ذلك. ونتيجة الخلاف على السلطة ازدادت الجزية المدفوعة في لبنان من مئة وخمسين ألف قرش قبل عشرين عاماً إلى أكثر من ستمئة ألف قرش[١].

كان الأمير الشاب (بشير الثاني) الذي نشأ يتيماً ذا شخصية قوية، تميزت بالهيبة والوقار، والتسامح الديني، حيث استطاع أن يُخضع جميع الأطراف في لبنان، وتزوج أرملة أحد الأمراء الشهابيين واشترى بمالها قصر (بيت الدين) الذي كان تحفة معمارية، وقد سمح باللجوء لعدة عوائل من الدروز والمسيحيين الكاثوليك القادمين من حلب للإقامة في لبنان. حاول (بشير الشهابي الثاني) _كما عمل سلفه_ فخر الدين المعني، من قبل بناء دولة لبنانية حديثة وبعيدة عن حكم الباشاوات الأتراك، ولكن في عهده ازداد التأثير الغربي، والبعثات الفرنسية والأمريكية وقد عُرف باسم (بشير الكبير)[٢]. واستمرت فترة حكمه من عام ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م حتى ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م . وقد خرج للمنفى أربع مرات، ليعود أقوى حيث تميزت فترة حكمه بإدخال أساليب الحياة العصرية إلى لبنان، وفتح المدارس، وكان يتخلص من خصومه العثمانيين بدفع الرشوة، ويعامل خصومه زعماء المقاطعات الإقطاعيين سواء من الدروز أو من النصارى بقسوة حتّى لا يتمردوا عليه[٣].

أما في حلب فكما ذكرنا سابقاً، كانت بحكم قربها من العاصمة استانبول، تخضع لحكم مركزي مباشر من ولاة أتراك لم يتخلله سوى حكم قصير لآل العظم. وكان الطرف المحلي الممثل للشعب يبرز في طبقة الأشراف الذين يحملون العلامة الخضراء، وكانت السلطنة تتدخل في تعيين نقيب الأشراف وعزلهم حسب مصالحها. وفي أواخر القرن الثامن عشر سنة ١٢٠٧هـ/١٧٩٣م تم تنصيب (محمد قدسي أفندي) نقيباً ومفتياً لحلب وكان يتمتع بشخصية قوية، ممّا دفع العثمانيين إلى الاعتراف بنقيب أشراف ثاني وهكذا أصبح هناك زعامتان للأشراف وهذا ما تريده السلطنة من أجل إضعاف نفوذ الأشراف في حلب[٤].

وكما هو حال أهل الشام عندما يزداد ظلم الولاة، يخرج الناس يجاهرون برفضهم الحكم العثماني. خرج أهالي حلب مراراً على ظلم ولاة السلطنة، ففي سنة ١١٩٤هـ/١٧٨٠م ثاروا على واليهم (عبدي باشا) بعد أن طردهم خادمه " الكوسح " الذي أفقر السكان وسلب القرى ومنها قرى تركمانية، وعندما خرج الوالي إلى بلدة (كلز) يريد تأديب سكانها لطرد خادمه منها، وطلب من أهل العرض أن يخرجوا ويبقى الأشقياء فكان ردُّ الأهالي بلسانٍ واحدٍ : " ليس في بلدتنا أهل عرض أصلاً بل كلنا أشقياء " فغضب الوالي وحاصر البلد وقتل سكانها وأطفالها[٥].

---

(١) _ بازيلي، سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص٩٥ .

(٢) _ Philip Hitti, History of Syria, p693 – 694 .

(٣) _ حتي، لبنان في التاريخ، ص٥٠١ .

(٤) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، ص٢٤٦-٢٤٧ .

(٥) _ كرد علي، خطط الشام، ج٢، ص٢٩٩ .

هكذا نرى أوضاع سوريا _ الشام في النصف الثاني من القرن الثامن عشر مضطربة تتنازع على الحكم فيها القوى التركية والمملوكية والمحلية. ولم تشهد إلاَّ فترات استقرار قصيرة في ظل حكم آل العظم. ولكن السلطنة العثمانية كانت قادرة دائماً على العودة إلى سوريا _ الشام وتقوية نفوذها مستغلة النزاعات بين الزعامات الإقطاعيّة ومصالحها المتضاربة، وعبر ضرب الأطراف المحلية المتصارعة لصالح عودة الحكم العثماني. وبالرغم من كل الأحداث التي شهدها أهالي سوريا _ الشام، كثيراً ما خرجوا ورفضوا السلطة التركية الاستبدادية بطرق سلمية أحياناً كإغلاق الأسواق والحوانيت، كما حدث مراراً في دمشق، أو تشكيل وفود من العلماء لتقديم الشكوى للسلطان، وأحياناً يتحول العصيان المدني إلى عصيان مسلح بمساعدة قوات الانكشارية اليرليه، وعبر دعمهم الثورات العربية ضد العثمانيين مثل ثورة ظاهر العمر .

٣ _ موجز الواقع السياسي لسوريا _ الشام منذ الحملة الفرنسية ١٢١٤هـ/١٧٩٩م حتى بداية دولة محمد علي ١٢٤٧هـ/١٨٣١ :

أ _ موجز الحملة الفرنسية على سوريا _ الشام عام ١٢١٤هـ/١٧٩٩م وأبرز نتائجها :

بعد عام من الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م بقيادة (نابليون بونابرت) الذي أراد من خلالها مهاجمة إحدى نقاط النفوذ العالمي لأعدائه البريطانيين للسيطرة على الشرق والطريق المؤدي إلى الهند[١]. وهذا يشكل ضربة سياسية واقتصادية قوية لخصمه بريطانيا التي كانت تتمتع بالاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي بعد نجاح ثورتها الصناعيّة. توجهت أنظار نابليون إلى التوسع في بلاد الشام لاستكمال بناء إمبراطوريته العالمية الضخمة[٢]، وقد دفعه إلى ذلك عدة أسباب ملحة أبرزها المتعلق بالجانب الدفاعي للتخلص من القوة البريطانية المعادية للفرنسيين وفك حصارها عن ميناء (الاسكندرية)، وذلك عبر قطع طريق إمدادها من الموانئ السورية[٣]، إدراك نابليون أهمية وحدة أراضي بلاد الشام ومصر حيث رأى في سوريا _ الشام خط الدفاع الأول عن الأراضي المصرية، وبالتالي عليه مواجهة الجيش العثماني في سوريا _ الشام[٤]، والقضاء على التحالف العسكري بين الروس والبريطانيين والعثمانيين ليوطد أركان امبراطوريته الجديدة[٥] .

---

(١) _ J.Christopher Herold, Bonaparte in Egypt, Pen and Sword Publisher, London, 2005, p3 .

(٢) _ هـ.ا.ل فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ترجمة أحمد هاشم و وديع الضبع، الطبعة السادسة، دار المعارف، مصر، ص٥٢ .

(٣) _ The New Cambridge Modern History, War and Peace in an Age Upheaval 1793-1830, 12 Volumes, Cambridge University Press, Volume Six, 1956, p531 .

(٤) _ كردعلي، خطط الشام، ج٣، ص١٢ .

(٥) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، ص٣١٣.

أما بالنسبة لمجريات الحملة، انطلقت عام ١٢١٤هـ/١٧٩٩م من قلعة العريش من مصر، إلى غزة في فلسطين، وثمَّ توجهت إلى مدينة يافا، وحاصر الفرنسيون المدينة واقتحموها بعنف وقتلوا الكثير من أهلها وحاميتها، حيث زاد عدد القتلى عن أربعة آلاف من العسكر والمدنيين في مجزرة بشعة[١] لطخت تاريخ نابليون العسكري بالعار، لأنه نفّذ عملية القتل بعد إعطائهم الأمان مدعياً بعدم درايته بما يفعل بهم وبأنه ليس لديه سفن لنقلهم أسرى إلى مصر بعد أن دمّر البريطانيون الأسطول الفرنسي[٢].

ثم اتجهت الحملة الفرنسية إلى محاصرة (عكا) التي كان يدافع عنها قائدها (أحمد باشا الجزار). ولكن (نابليون) فوجئ بشدة مقاومة أهل المدينة واستبسال الجنود دفاعاً عن قلعتها، وزاد الوضع سوءاً تفشي مرض الطاعون بين الجنود الفرنسيين، الذين حاولوا إيجاد ثغرة في القلعة للدخول إليها، لكن جنود القلعة بقيادة (الجزار) تصدوا للهجوم وقتلوا المئات من جنود نابليون. ودام الحصار شهرين مما أدى إلى إنهاك قوة (نابليون) وجيشه الذي فتك فيه مرض الطاعون وتناقص عدده[٣]. مما دفعه للتخلي عن حلمه الكبير بإنشاء امبراطوريته الواسعة في الشرق وعاد بقواته إلى مصر، وقد قال نابليون فيما بعد "لو سقطت عكا لغيرت وجه العالم، فقد كان حظ الشرق محصوراً في هذه المدينة الصغيرة"[٤].

وعاد نابليون إلى مصر ومنها إلى فرنسا بسبب الأحداث الدولية والداخلية المتسارعة في فرنسا والمؤامرات عليها، فتولى قيادة القوات الفرنسية القائد (كليبر) لكنه سرعان ما لاقى حتفه بطعنة خنجر على يد طالب الأزهر السوري (سليمان الحلبي)، وتولى القيادة بعده الجنرال (مينو) الذي بالرغم من تزوجه بامرأة مسلمة لم تهدأ المقاومة ضد الفرنسيين سواء من الداخل أو من القوى المتحالفة العثمانية والبريطانية براً وبحراً . وانتهت الحملة الفرنسية بالاستسلام والانسحاب من مصر، على ظهر سفن بريطانية وفق اتفاق تم بين الطرفين، وتسليم مصر للعثمانيين عام ١٢١٦هـ/١٨٠١م[٥].

إن الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام حدث دولي بالغ الأهمية، كان له نتائج على مستوى الأطراف المشاركة فيه، لا سيما الأوروبيون والعثمانيون والعرب، وسنوجز نتائج الحملة على الصعيد الأوروبي والعثماني ونفصّل أبرز نتائجها المثيرة للجدل بما يتعلق ببلاد الشام موضوع بحثنا.

---

(١) _ نقولا الترك، الحملة الفرنسية على مصر والشام، تحقيق ياسين سويد، دار الفارابي للنشر، ١٩٩٠، ص٧٣.

(٢) _ Owen Connelly, Blundering to Glory: Napoleon's Millitary Campaigns, Rowman and Little Field Publishers, United State of America, 2006, p54 .

(٣) _ الدارنولي، عزت حسن أفندي، الحملة الفرنسية على مصر في مخطوطة (ضيانامة)، دراسة جمال سعيد عبد الغني، ترجمة سعيد عبدالغني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٩، ص٢١٥-٢٠١٦ .

(٤) _ الياس الحويك، تاريخ نابليون الأول، ثلاث مجلدات، دار الهلال للنشر، ١٩٨١، المجلد الأول، ص١٣٢.

(٥) _ محمد حبيب صالح، الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام في النصف الأول من القرن التاسع عشر،مجلة دراسات تاريخية، العددان ٦٧-٦٨ كانون الثاني – حزيران، ١٩٩٩، منشورات جامعة دمشق، ص٢١٣.

– بالنسبة لنتائج الحملة الفرنسية على الصعيد الأوروبي والعثماني :

١"_ تصاعد التنافس الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا، حيث نبّهت هذه الحملة البريطانيين إلى أن طريق السيطرة على الهند تمر من خلال السيطرة على مصر وسوريا _ الشام واليمن والسلطنة العثمانية. مما أدى إلى تقوية نفوذها في السلطنة العثمانية عبر الامتيازات الاقتصادية للحفاظ على مصالحها الاستعمارية في الشرق.

٢"_ نتيجة لهذا التنافس الاستعماري تحولت المسألة الشرقية إلى مسألة عربية (المسألة المصرية) و(المسألة السورية)، وأظهرت الحملة الفرنسية مدى الضعف الذي وصلت إليه السلطنة ومدى التدخل الأجنبي فيها، والبعض اعتبرها بداية النهاية للسلطنة العثمانية[١].

٣"_ تزايد الحملات التبشيرية الفرنسية إلى بلاد الشام وانتشار الثقافة الفرنسية وأصبحت باريس فيما بعد مقصد المفكرين العرب المطالبين بالاستقلال عن السلطنة العثمانية[٢].

أما فيما يتعلق بنتائج الحملة الفرنسية على الصعيد العربي :

اختلفت آراء المؤرخون حول نتائج الحملة الفرنسية ودورها في النهضة واليقظة العربية وسنعرض لهذه الآراء فيما يلي :

– الرأي الأول : الذي يعتبر الحملة الفرنسية حملة استعمارية لم تترك أثاراً جليةً في المنطقة وذلك لقصر مدتها .

– الرأي الثاني : يرى في الحملة الفرنسية تمهيداً لليقظة العربية وبداية التاريخ العربي المعاصر وخصوصاً في مصر. ولكن يُؤخذ على هذا الاتجاه تجاهله لمحاولة النهضة العربية السابقة. كمحاولة (فخر الدين المعني) بناء دولة عربية حديثة على النمط الأوروبي في القرن السابع عشر .

– الرأي الثالث : يتخذ موقفاً وسطياً معتمداً على دراسة موضوعية للحملة الفرنسية على مصر وسوريا_الشام والذي يرى وجهين للحملة، أحدهما استعماري، والآخر حضاري علمي[٣]. ظهر عبر المجمع العلمي الذي جاء مع (نابليون) إلى مصر وحقق العديد من الإنجازات، وجُمعت دراسته في كتاب (وصف مصر) الذي تضمن مشروع إقامة قناة السويس. وعُثور الضابط الفرنسي (شامبليون) على (حجر الرشيد) الذي حل رموز الكتابة (الهرغلوفية) ودخول أول مطبعة إلى مصر على يد الفرنسيين[٤] .

---

(١) _ Bruce Masters, The Arab of The Ottoman Empire 1516-1918, p132 .

(٢) _ العطار، تاريخ سوريا في العصور الحديثة، ص١٤٦ .

(٣) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث(بلاد الشام والعراق)، ص٣١٧ .

(٤) _ محمد السني، الثورة وبريق الحرية، الأدهم للنشر، القاهرة، ٢٠١٧، ص٢١٩-٢٢٠.

وسنعرض لأهم مظاهر اليقظة العربية التي ساهمت في خروج العرب من عصر الانحطاط إلى عصر التجديد خلال التواصل مع الحملة الفرنسية إلى المنطقة العربية :

١"_ أدرك العرب الضعف الذي وصلت إليه السلطنة العثمانية والقوات المملوكية وعدم قدرتها على حمايتهم من الاستعمار الأوروبي. وضرورة اعتماد المقاومة الشعبية في صد العدوان .

٢"_ كان لقيادة الحركة الشعبية بقيادة الأشراف (عمر مكرم) في مصر لمحاربة الحملة الفرنسية، دور في إعادة المضمون الصحيح لكلمة (علماء الدين) ودورهم في البناء الحضاري[١] وفي المقابل برزت الحركة الوهابية المعادية لآل عثمان، التي فضحت استغلال العثمانيين الرابطة الإسلامية لنشر البدع وإخضاع العرب[٢] .

٣"_ أدرك العرب اتساع الفجوة بينهم وبين الحضارة الغربية التي قامت على العلوم والمنطق، بعيداً عن الخرافة والأوهام السائدة في ظل الحكم العثماني، وقد أظهرت كتابات المؤرخ (الجبرتي) المعاصر للحملة قوة دهشتهم أمام العلوم التي قدمها الفرنسيون[٣]، ولو عرفوا جيداً تراثهم العلمي الغني لدهشوا أكثر بكثير.

٤"_ شكلت الحملة الفرنسية ضربة للقوى الإقطاعيّة المملوكية وإضعافاً لسيطرتها، وبرزت الطبقة البرجوازية، التي كانت مضطهدة في ظل حكم السلطنة العثمانية وتتعرض للنهب والسلب، فأدركت هذه الطبقة أهمية بناء دولة حديثة تسودها الحرية، لتحقيق أهداف الطبقة البرجوازية في ممارسة أنشطتها الاقتصادية[٤].

٥"_ شكلت الحملة الفرنسية التي كانت أول اختراق استعماري أوروبي للأراضي العربية، تمهيداً لظهور دولة محمد علي في مصر وسوريا _ الشام وخصوصاً بعد إضعافها لقوة المماليك والعثمانيين[٥].

ب_ موجز الوضع السياسي لسوريا _ الشام تحت الاحتلال العثماني منذ نهاية الحملة الفرنسية حتى بداية دولة محمد علي عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م :

عادت السلطنة العثمانية لفرض سلطتها وهيبتها المفقودة على سوريا _ الشام بعد الحملة الفرنسية، وذلك من خلال تقوية سلطة ولاتها الأتراك وجنودهم وأتباعهم، وعندما كانت الحكومة المركزية في استانبول منشغلة بحركة إصلاح الجيش بعد تمرد الانكشارية المتواصل وهزائمها المتتالية، وإنشاء فرق عسكرية جديدة على النمط الغربي، في زمن السلطان (محمود الثاني) ١٢٢٥هـ/١٨٠٨م

(١) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، ص٣١٩ .

(٢) _ المرجع نفسه، ص٣١٨.

(٣) _ محمد عمارة، فجر اليقظة العربية، دار الوحدة، بيروت، ١٩٨١، ص٢٩١ .

(٤) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث(تاريخ بلاد الشام والعراق)، ، ص٣١٨ .

(٥) _ العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ص١٤٧ .

_ ١٢٤٧هـ/١٨٣١م[١]، سنحت الفرصة بحرية تصرف الولاة بأرزاق العباد، وممارسة النهب والترهيب وشيوع الفوضى والمحسوبية .

أما فيما يخص ولاية حلب لم تشهد ثورات إلا نادراً وذلك لقربها من مركز السلطنة، وقد تعاقب على حكمها خلال هذه الفترة ستة عشر والياً التزموا بجباية الضرائب وإرسالها إلى الحكومة العثمانية. وتعد ولاية (جلال الدين بن جوبان) الممتدة بين عام ١٢٢٨هـ/١٨١٣م حتى ١٢٣٤هـ/١٨١٩م أطول مدة لوالٍ حكم حلب[٢]. وشهدت فترة ولايته أحداثاً هامة أبرزها تخلصه من خصومه الإنكشارية حيث قتل منهم ثمانية عشر زعيماً في وليمة أقامها على شرفهم، كما قام بقتل نقيب الأشراف في حلب المدعو (نعمان). ثمّ خلفه (خورشيد باشا) ١٢٣٤هـ/١٨١٩م حتى ١٢٣٧هـ/١٨٢١م، وكان والٍ سابق على مصر، وفي عهده ازدادت تعديات رجاله على أهل حلب، وظهرت الفتن بين الأرثوذكس والكاثوليك فبعد فصل (أبرشية حلب الأرثوذكسية) عن (بطريركية أنطاكية) في القرن السابق وضمها إلى (بطريركية القسطنطينية). بدأ نزاع طويل بين العرب واليونان في التنافس على مناصب الكنيسة. وهذا ما اغتنمته الإرساليات الكاثوليكية لتجذب عدداً من الأرثوذكس تحت اسم (الروم الكاثوليك)، مما دفع بطريرك الأرثوذكس للاحتجاج لدى العثمانيين مدعياً أن الأرثوذكس رعايا عثمانيين أما الكاثوليك فهم إفرنج، وكتب عريضة أيدها القنصل البريطاني مطالباً بإبقاء الروم الكاثوليك تحت رعاية الكنيسة المسكونية خوفاً من استقطاب روسيا لهم[٣].

أما بالنسبة لباقي ولايات سوريا _ الشام كانت تحت سيطرة صاحب السلطة الأولى فيها وهو (أحمد باشا الجزار) الذي ازداد نفوذه بعد انتصاره على الفرنسيين في معركة (عكا) مصوّراً نفسه البطل المنقذ متجاهلاً حقيقة دعم البريطانيين له وطلبهم الصمود منه وعدم الهرب[٤].

وكما ذكرنا كان الجزار متعطشاً لسفك الدماء، وتعذيب الرعية، وسلب أموالهم، ولم يسلم من بطشه حتّى رسل (الأستانة) الذين يأتونه بالأوامر السلطانية، فكان يأمر بقطع رؤوسهم أحياناً ويرسلها إلى ديوان الأستانة غير آبه بغضب السلطان، لأنه كان يرضيه بالأموال التي يغدقها عليه وعلى نساء الحرم السلطاني ذوات الدور المؤثر في حكم السلطنة[٥].

أما في فلسطين فقد عانى السكان من ظلم متسلم الجزار وهو (محمد أبو المرق) الذي ولاه على غزة ويافا والقدس[٦]. وفي لبنان هرب الأمير(بشير الشهابي) بعدما وجّه الجزار له تهمة التخاذل وعدم

---

(١) _ العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ص١٤٧ .

(٢) _ رافق عبدالكريم، المشرق العربي في العهد العثماني، دمشق، ١٩٨٢، ص٢٧٥ .

(٣) _عبد الكريم غرايبه، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر، بيروت، ١٩٨٤، ص١٢٥-١٢٦ .

(٤) _ العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ص١٣٦ .

(٥) _ كردعلي، خطط الشام، ج٣، ص٢٢ .

(٦) _ المصدر نفسه، ص٤٣ .

مساعدته أثناء حصار الفرنسيون لمدينة (عكا)، على متن سفينة (سيدني سميث) قائد الأسطول البريطاني سنة ١٢١٥هـ/١٨٠٠م، وعاد إلى لبنان بعد أشهر عندما هدأت الأحوال. ولقد استغل الأمير بشير وفاة الجزار عام ١٢١٩هـ/١٨٠٤م ليوطد حكمه ويقضي على خصومه في لبنان ليصبح الحاكم الأقوى[١].

وبالنسبة لولاية دمشق بعد شيوع نبأ وفاة الجزار، قام السكان بقتل وكيله في دمشق الذي اتصف بالقسوة والطمع، وعاد إليها واليها (عبدالله باشا العظم) ولكن لم يدم استقرار دمشق طويلاً، إذ خلفه الوالي (كنج يوسف باشا) الذي اشتهر بقسوته وحبه لجمع المال. وفشل في الإعداد لقتال الوهابيين التكفريين الذين غدت هجماتهم تنطلق من أرض الحجاز إلى بلاد الشام. مما حدا بالدولة العثمانية أن تطلب من والي صيدا (سليمان باشا) _ وهو أحد مماليك الجزار _ قتال والي دمشق. وانتهى القتال بانتصار سليمان باشا وفرار (كنج باشا) إلى مصر[٢].

وفي عام ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م تولى (درويش باشا) ولاية دمشق وصيدا، وأبرز أحداث عهده كانت معركة (المزة) حيث أحرقت هذه القرية بالكامل. وحدثت بسبب اعتداء جماعة الوالي على مزارع ابن شهاب وابن جنبلاط في البقاع مما دفع الأمير بشير الشهابي مدعوماً من جند عبدالله باشا أمير عكا إلى مقاتلة والي دمشق وانتصر عليه. وهذه الأحداث دفعت حكومة السلطنة للطلب من والي حلب للتدخل لحلِّ الأزمة. وبسبب غضب السلطان على الأمير بشير وأمير عكا هربا إلى مصر حيث توسط محمد علي باشا لهما فعفا السلطان عنهما وأعادهما إلى منصبهما. ولكن القوة المتزايدة لوالي عكا (عبدالله باشا) أقلقت السلطان، فطلب من والي حلب ودمشق التخلص منه، إلا أنهما فشلا بعد حصار دام تسعة أشهر، وكالعادة اشترى (عبدالله باشا) منصبه بأموال قدرت بخمسة وعشرين ألف كيس وأصبح ذا نفوذ واسع في سوريا _ الشام[٣].

ونتيجة للصراع البيني بين الولاة في سوريا _ الشام وبين السلطان وولاته، ساءت أحوال الرعيّة وضاقت ذرعاً بما يجري مما دفع الشعب للعصيان والمقاومة السلمية تارةً والمسلحة تارةً أخرى. ومن أبرز مظاهر المقاومة السلمية مايلي :

كان رجال الدين والأشراف هم صوت الناس المظلومين في سوريا _ الشام. لذلك كانوا مستهدفين من السلطة العثمانية وولاتها، حيث أقدم (أحمد الجزار) على قتل المفتي (المرادي)[٤]، وقام والي حلب (جلال الدين) بقتل نقيب الأشراف (نعمان)[٥].

---

(١) _ عبدالعزيز عمر، تاريخ لبنان الحديث، ص٧٨ .

(٢) _ كردعلي، خطط الشام، ج٣، ص٢٩ .

(٣) _ المصدر نفسه، ص٣٤_٣٦ .

(٤) _ المصدر نفسه، ص٢٠ .

(٥) _ غرايبه، تاريخ العرب الحديث، ص١٢٤ .

وحاولت السلطنة إضعاف السكان المحليين عبر نشر التعصب والتفرقة بين الطوائف الدينية، لتبقى هي صاحبة الكلمة العليا في سوريا _ الشام، مما ساعد على تثبيت ادعاءات الدول الأوروبية بحق حماية الرعايا المسيحيين من أرثوذكس وكاثوليك في السلطنة .

إلاّ أنَّ محاولتها باءت بالفشل فلم تستطع تمزيق النسيج الوطني المتماسك لسكان سوريا _ الشام عندما أرادت الانتقام من نصارى الشام بعد خسارتها اليونان، لذلك طلبت من والي دمشق قتل المفسدين على حد تعبيرها من كبار طائفة الروم، فعقد الوالي مجلساً ضم أعيان دمشق وبلغهم أمر السلطان، فكان ردَّهم: " أنّه لا يوجد من النصارى عندنا المفسدون وجميعهم ذميون سالكون بشروط الذمة، فلا تجوز أذيتهم "، وإنّ الرسول الكريم أوصى بالذميين وقال (ص) : " من أذى ذمياً كنت خصمه يوم القيامة ". وكتبواً محضراً للدولة بحسن سلوك النصارى وطاعتهم للسلطنة ودفعهم الضرائب وطلبوا العفو عنهم[١].

وهذه الحادثة تدل على مدى الوحدة الوطنية في المجتمع الشامي، والوعي الشعبي لدى السكان، وتدحض زور ادعاءات الدول الأوروبية المطالبة برعاية الطوائف المسيحية في السلطنة، للحصول على الامتيازات، لأن هذه الطوائف جزء لا يتجزأ من نسيج المجتمع العربي .

أما بالنسبة للمقاومة المسلحة في سوريا _ الشام التي حاولت رفع الظلم ورفض الضرائب الجائرة بشكل رئيسي، والاحتجاج على عدم تدخل السلطنة لوضع حد لظلم الولاة، حيث كانت تبقي الحكومة العثمانية الولاة في مناصبهم رغم السخط الشعبي عليهم مقابل زيادة أكياس المال المرسلة إلى الباب العالي[٢] .

ومن أبرز أحداث المقاومة المسلحة في حلب وأعنفها ثورة في عهد الوالي (خورشيد باشا) عام ١٢٣٥هـ/١٨١٩م، حيث ضاق الناس ذرعاً بتصرف أتباع الوالي وتسلطهم على العباد وتعاطي شرب الخمر والمجون، فهجموا على دار رئيس دائرته (سليمان بك) وقتلوه وأخذوا ما عنده من أدوات الفجور والخمر إلى القاضي، إلا أن الوالي عدَّ هذا إهانة له وتمرداً عليه[٣]، ففرض حصاراً على المدينة وقطع المياه عنها. وبالرغم من إعلان أهل حلب أنهم ليسوا عصاة أو متمردين إنمّا يطلبون الأمان، استمرَّ الحصار عليهم مدة مئة وأحد عشر يوماً، وبعد فك الحصار وإبرام الصلح مع الأهالي، فرض الوالي غرامات كبيرة على أهل حلب وأعدم منهم العشرات وملأ السجون، وتوالت الشكاوى عليه فتمَّ نقله ليعالج ثورة اليونان، وجاء بعده (مصطفى باشا) والياً على حلب[٤].

---

(١)_ كردعلي، خطط الشام، ج٣، ص٣٨ .

(٢) _ المصدر نفسه، ص٣٩.

(٣) _ المصدر نفسه، ص٣٣ .

(٤) _ غرايبه، تاريخ العرب الحديث، ص١٢٧ .

أما أهم ثورة مسلحة لسكان دمشق كانت عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م بعد تعيين (سليم باشا) الصدر السابق والياً عليهم، والذي عُرف باسم (مبيد الانكشارية) لكثرة ما قتل منهم، وقد دخل دمشق بعد مروره بحماة حيث قتل رجالاً من عرب عنزة ليرهب بذلك أهل دمشق، فبدأ حكمه بفرض ضريبة كبيرة على الدكاكين أدت إلى هياج العامة وانتشار العصيان، فهجم الأهالي على قلعة دمشق حيث اعتصم الوالي الذي اضطرَّ للهرب إلى دار أخرى حيث تم هدمها عليه وإحراقه فيها. وهنا لا يستبعد أن يكون للإنكشارية المحلية وأعوان والي صيدا (عبدالله باشا) دور في تحريض العامة والعصيان. واستطاع أهل دمشق تنظيم صفوفهم، وتشكيل حكومة مؤقتة بأنفسهم، لتسيير أمورهم، وراحوا ينتظرون عقوبة السلطنة وغضبها عليهم، إلا أن انشغال السلطنة في حروبها مع أوروبا وخوفها من تهديد (محمد علي) القادم من مصر ومن أجل استقطاب الأهالي إلى صفها كل ذلك حال دون تنفيذها عقوبة بأهل الشام، واكتفت بتعيين والٍ جديد عليهم ليواجه قوات (محمد علي) الزاحفة إلى بلاد الشام[١].

كما شهدت مدينة نابلس في فلسطين التابعة إدارياً لولاية دمشق ثورة مسلحة عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م، وذلك بسبب فرض ضريبة على أهلها الذين تحصنوا بقلعة (صانور) بقيادة زعماء من نابلس مثل (أسعد بك طوقان) والشيخ (القاسم أحمد). وقاد والي عكا (عبدالله باشا) وبمساعدة الأمير (بشير الشهابي) حملة عسكرية على أهالي نابلس وقلعتها طمعاً في ضمها لولايته مقابل ألفي كيس يدفعها إلى السلطنة، بدل ستمئة كيس كان يدفعها والي دمشق. وانتهت الثورة بعد حصار دام ثلاثة أشهر، ورضخ السكان لحكم الأمير بشير الشهابي الذي عفا عنهم مقابل تحصيل الضرائب الأميرية وهدم القلعة[٢].

وفي جبل لبنان قامت عدة ثورات على الحكم الإقطاعي الجائر للأمير بشير الشهابي. أهمها ثورة دروز المتن ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م حيث اضطر الشهابي للتحالف مع خصومه من أولاد الأمير (يوسف) والشيخ (بشير جنبلاط) للقضاء على هذه الثورة التي سميت بالثورة (العامية الأولى). وفي العام التالي للثورة برزت قوة الأمراء أولاد يوسف ممّا دفع الأمير بشير لسمل عيون الأمراء تحت حجة تآمرهم مع البريطانيين الذين كانوا في حالة حرب مع السلطنة[٣].

أما ثورة العامية الثانية كانت عام ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م التي بدأت أحداثها مع وفاة والي دمشق (سليمان باشا) وانفراد والي صيدا (عبدالله باشا) بالحكم ومحاولته إضعاف الأمير بشير الشهابي الذي

---

(١) _ غرايبه، تاريخ العرب الحديث ، ص١٣٠-١٣١ .

(٢) _ كردعلي، خطط الشام، ج٣،ص٤٩ .

(٣) _ غرايبه، تاريخ العرب الحديث، ص١٣٩ .

ثار عامة الجبل ضد ظلمه مما دفعه إلى الهرب مع حليفيه الشيخ بشير جنبلاط والأميرة (حبوس أرسلان)[١] إلى حوران .

إلاّ أنَّ عبدالله باشا أدرك خطر ثورة العامة وقدرة الأمير (بشير) على السيطرة عليها وتحصيل الضرائب من السكان، لذلك ساعده وأعاده إلى السلطة[٢].

وفي خضمِّ كل هذه الثورات والاضطرابات في سوريا _ الشام، مترافقة مع ضعف وانحطاط متواصل للسلطنة العثمانية على الأصعدة السياسية والعسكرية والاقتصادية كافةً، كانت بريطانيا ثبتت قاعدة انطلاقها الاقتصادية بنجاح من خلال ثورتها الصناعيّة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر التي انعكست آثارها سلباً على السلطنة وسكان سوريا _ الشام وهذا ما سنوضحه خلال ما يأتي.

ثانياً : تأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية في التطور الاقتصادي التاريخي لسوريا _ الشام منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى بداية دولة محمد علي باشا عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م :

١ _ تأثير متطلبات السياسة البريطانية الاقتصادية بعد الثورة الصناعيّة :

اتبعت بريطانيا كما رأينا، سياسة اقتصادية مركنتلية منذ القرن السابع عشر، وكان لها دور فعّال في إنجاز ثورتها الصناعيّة في القرن الثامن عشر، وتطلب الحفاظ على هذا التقدم الصناعي استغلالاً أكبر وتنظيماً أكثر لمستعمراتها في الهند وأمريكا وإفريقيا. ومع تحوَّل الرأسمالية الأوروبية عموماً والبريطانية خصوصاً من رأسمالية تجارية إلى رأسمالية صناعية أضحى هدفها السيطرة على أسواق شراء المواد الأولية وبيع المواد المصنعة[٣]، فازداد التغلغل البريطاني في السلطنة العثمانية الممتدة أراضيها على ثلاث قارات أوروبا وآسيا وإفريقيا مما جعلها منطقة نفوذ حيوية ومؤثرة في ازدهار الثورة الصناعيّة في بريطانيا. وتنوعت طرق حماية مصالحها الاقتصادية في السلطنة من النفوذ السياسي إلى الامتيازات الاقتصادية وصولاً إلى التدخل العسكري أثناء تصديها للحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام عام ١٧٩٨ .

---

(١) _ الأميرة حبوس هي من أحفاد جمال الدين أرسلان، تزوجت بالأمير عباس بن فخر الدين أرسلان، وتولت حكم مقاطعة الغرب في جبل لبنان، تمردت مع بشير جنبلاط ضد الأمير بشير الشهابي ولاقت مصرعها بكمين شهابي عام ١٢٥٥هـ/١٨٤٠م أنظر غرايبه، تاريخ العرب الحديث، ص١٤٠ .

(٢) _ المرجع نفسه، ص١٤٠ .

(٣) _ نادية مصطفى، التاريخ والعلاقات الدولية: منظور حضاري مقارن، جزءان، دار البشير للعلوم والثقافة، جزء أول، ٢٠١٥، ص٢٥٩ .

٢ _ تأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية في السياسة الاقتصادية العثمانية :

تحولت الامتيازات بعد الثورة الصناعيّة البريطانية إلى عبءٍ ثقيل على اقتصاد الدولة العثمانية ولا سيما المناطق العربية التابعة لها، ويجب بدايةً توضيح ماهيَّة هذه الامتيازات.

أ _ ماهيَّة الامتيازات: هي مجموعة تسهيلات قدمتها الدولة العثمانية للدول الأوروبية لتشجيعهم على الاستثمار والتجارة في السلطنة. ومنحت هذه الامتيازات في القرن السادس عشر من قبل السلطان سليمان القانوني لملك فرنسا (فرانسوا الأول ٩٢١هـ-١٥١٥م/٩٥٤هـ-١٥٤٧م) ثمَّ توسعت لتشمل معظم الدول الأوروبية، والأصل فيها إنَّها منحة من السلطان للأجانب دليلاً على قوته وكرمه[١]. إلا أنها تغيرت تدريجياً مع تدهور وضعف الدولة العثمانية من ناحية، ومع تنامي قوة ونمو وتوسع الدول الأوروبية من ناحية أخرى، وتحول قواعد المعادلة ونتائجها لتصبح هذه الامتيازات في القرن السابع عشر والثامن عشر أهم مظهر من مظاهر ضعف السلطنة وأحد أهم أسباب انهيارها[٢].

وتحولت الإسكالات (الموانئ) حيث تقيم الجالية الأجنبية في مختلف أنحاء السلطنة وبخاصة في الموانئ السورية قواعد لخرق سيادة الدولة العثمانية وتنفيذ مآرب سياسية واقتصادية لنهب خيراتها[٣]. كما أنها أسهمت في بث روح التفرقة من خلال رعاية هذه الدول لطوائف مسيحية معينة بحجة حماية الأقليات في السلطنة، ولقد استعرضنا سابقاً الوعي الوطني لدى سكان سوريا _ الشام الذين أسقطوا زور هذه الادعاءات عندما دافعوا عن طائفة المسيحيين الروم الذين أرادت السلطنة الانتقام منهم بعد ثورة اليونان.

ولم يكن بمقدور القوى والمؤسسات العثمانية أن توقف الآثار السلبية للامتيازات إمّا لعدم كفاءتها وانحدارها، وإمّا لاعتبارات سياسية متصلة بدور القوى الداخلية المستفيدة من استمرار هذا الوضع. ولم يستطع العثمانيون وضع العوائق الفعّالة أمام اتسّاع الأطماع الأوروبية أو تعديل الامتيازات نظراً لفشلهم في تبني عملية إصلاح سياسية واقتصادية[٤]، ونظراً لتأثير حروبهم المتواصلة على الجبهة الصفوية والروسية من جهة، وتصاعد الهيمنة الأوروبية وبالتحديد فرنسا وبريطانيا الطامعة بأرض السلطنة وبخاصة الولايات العربية من جهة أخرى، وهذا كلّه قد أدى إلى بروز المسألة الشرقية[٥].

---

(١) _ هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، ص٦١ .

(٢) _ مصطفى، العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، ص٣٤ .

(٣) _ ليلى الصباغ، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر، جزءان، طبعة أولى، مؤسسة الرسالة للنشر، بيروت، ١٩٨٩، ص٢٣٢_٢٣٣ .

(٤) _ مصطفى، التاريخ والعلاقات الدولية: منظور حضاري مقارن، ج١، ص٢٥٤_٢٥٥ .

(٥) _ عامر، تاريخ الامبراطورية العثمانية (دراسة تاريخية واجتماعية)، ص٢٠٦.

ب _ الامتيازات البريطانية في السلطنة العثمانية :

حرصت بريطانيا على مجاراة الامتيازات الممنوحة للفرنسيين، وحاز السفير البريطاني على امتياز حق تعيين ممثلين له في حلب وطرابلس الشام والإسكندرية وفي مدن المغرب العربي، مع إمكانية تعيين مستشارين له في موانئ السلطنة التي لم تذكر في قائمة الاتفاق، وهذا يوضح تطلعات بريطانيا التوسعية ومدى أهمية هذه المراكز التجارية بالنسبة لها في السلطنة. وكان مترجم السفارة وعشرة من الخدم يختارهم السفير معفيين من الضرائب(١). وكانت السلطنة حريصة على تنفيذ التزاماتها اتجاه البريطانيين ووكلائهم في السلطنة وهذا ما توضحه إحدى الوثائق التي تؤكد الحرص على استمرار امتيازات مترجم القنصلية البريطانية الجديد في طرابلس الشام(٢).

ومنذ عام ١٠١٠هـ/١٦٠١م حصلت إنكلترا على تخفيض الرسوم الجمركية من ٥% إلى ٣%(٣). واستمرت هذه التعرفة قروناً دون تعديل، وكان المستشار البريطاني يشكو إلى الحكومة العثمانية في حال أي تعديل أو زيادة على هذه الرسوم، كما تبين ذلك وثيقة صادرة من الباب العالي إلى قاضي حلب ترفض إضافة أي ضرائب على القطن المصدر من حلب إلى بريطانيا(٤).

ولم تكتف بريطانيا بتلك الامتيازات بعد قيام ثورتها الصناعية بل عقدت عدة معاهدات لتأكيد تلك الامتيازات واتفاقيات للتجارة الحرَّة مع السلطنة أهمها اتفاقية (الدردنيل) المبرمة عام ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م وحازت فيها على حرية التجارة لسفنها في مضيق الدردنيل الذي يتحكم بتجارة البحر الأسود(٥) وبالطبع وبالطبع كانت التجارة الحرة لمصلحة بريطانيا الطرف الأقوى سياسياً واقتصادياً .

ج _ نتائج الامتيازات البريطانية على اقتصاد السلطنة العثمانية :

أسهمت الامتيازات في مساندة الحركة الماركنتلية من خلال فتح أسواق الشرق أمام التجارة البريطانية والتي أدت فيما بعد إلى نموها الرأسمالي(٦). واتَّضحت الآثار المدمرة لهذه الامتيازات

---

(١) _ Michael Talbot, British Ottoman Relations 1661-1807, Commerce and Diplomatic Practice, Boydell Press, UK, 2017, P33, P35 .

(٢) _ أوامر سلطانية حلب، دار الوثائق التاريخية في دمشق، مجلد ١٢، ص٩٤، وثيقة ١١٧، جمادى الثاني ١١٨٨هـ/١٧٧٤م .

(٣) _ Resat Kasabo, Kate Fleet, The Cambridge History of Turky, The Later Ottoman Empire 1603-1839, 3 Volumes, Cambridge Press, UK, 2006, Volume 3, p291 .

(٤) _ أوامر سلطانية حلب، مجلد ١٢، ص٢٠٣، وثيقة ٢٦٢، رجب ١١٨٩هـ/١٧٧٥م .

(٥) _ فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العليا العثمانية، تحقيق إحسان حقي، طبعة أولى، دار النفائس، بيروت، ١٩٨١، ص٤٠٠ .

(٦) _ مصطفى، العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، ص٣٣ .

التجارية بعد قيام الثورة الصناعيّة البريطانية[١]، التي جعلت السلطنة مستهلكاً لفائض إنتاجها، ومُصدِّراً للمواد الأولية لصناعتها، وحاربت تطوّر الصناعة الوطنية العثمانية حتى تبقى صناعة محدودة إلى أقصى حد[٢].

وحالت الامتيازات البريطانية دون رفع الرسوم الجمركية على بضائعها، وفي الوقت نفسه مارست سياسة حمائية على اقتصادها لضمان استمرار تقدمها الصناعي، وبات الميزان التجاري العثماني خاسراً وتدهور دور السلطنة كوسيط في التجارة مع أوروبا. ولم تستطع قطاعات الإنتاج الزراعية والصناعيّة والمالية العثمانية مواجهة هذه الامتيازات الممنوحة من طرف واحد. وفي ظل حكومة عثمانية هي المالك للقطاع الصناعي في الدولة والذي كان إنتاجه لتغطية حاجات القصور والجيش والبحرية، كانت الصناعات الوطنية بالكاد تغطي الطلب المحلي فقط[٣] في حين استطاعت معامل بريطانيا تحقيق فائض في الإنتاج بتكلفة أقل وأحياناً جودة أفضل، مما أدى إلى انخفاض أسعار منتجاتها[٤] وإقبال السكان عليها، حيث حققت الأقمشة البريطانية أرباحاً جيدة في المدن العثمانية. وشكَّل السكر والقهوة المستوردان منافسين قويين حتى أنَّ السلطنة التي كانت مصدرة للبن اليمني تحوَّلت إلى استيراد البن من مستعمرات بريطانيا[٥].

كما عانت الزراعة العثمانية من نظام الامتيازات الذي سمح للتجار البريطانيين بحرية التنقل والحركة واستخدام رعايا وتجار السلطنة لتأمين حاجات ثورتهم الصناعيّة من المنتجات الزراعية، وتحول القطاع الزراعي تدريجياً إلى زراعة المحاصيل النقدية مثل القطن مما أدَّى إلى نقص المواد الغذائية وارتفاع أسعارها[٦] .

وهكذا استطاعت بريطانيا توظيف الامتيازات لصالح بناء ثورتها الصناعيّة وبالتالي ترسخت التبعية الاقتصادية العثمانية للاقتصاد البريطاني. وكان لهذه التبعية انعكاسات خطيرة على الاقتصاد المحلي لسوريا _ الشام الخاضع للاحتلال العثماني وهذا ما سنوضحه خلال الآتي .

---

(١) _ اينجاليك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ص٢١٦ .

(٢) _ مصطفى، التاريخ والعلاقات الدولية: منظور حضاري مقارن، ج١، ص٢٥٤ .

(٣) _ المرجع نفسه، ص١٠٧-١٠٨ .

(٤) _ هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، ص٦٢ .

(٥) _ Kasaba, Fleet, The Cambridge History of Turky, p283 .

(٦) _ حنا، ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري،مجلد٣، ص٢٣٢-٢٣٣.

٣_ تأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية في التطور الاقتصادي التاريخي لسوريا _الشام في فترة الاحتلال العثماني حتى بداية دولة محمد علي عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م :

بدأ تأثير الثورة الصناعيّة من خلال اهتمام بريطانيا بسوريا _ الشام وذلك لموقعها الاستراتيجي على طريق الهند واتصالها مع العراق من جهة، وكونها مصدر هام للمواد الخام كالقطن والحرير، وسوقاً لتصريف بضائعها المصنعة من جهة أخرى. مما جعل بريطانيا تحرص على إرسال القناصل إلى مدينة حلب بدايةً ثم إلى أنحاء سوريا _ الشام، والذين كانوا يتمتعون بصلاحيات واسعة سمحت لهم بحماية مصالح بريطانيا الاقتصادية. وترافق ذلك مع حرمان الاقتصاد السوري من عوامل قوته المحلية، والذي أصبح غير محصن أمام الجاليات الأوروبية المتمتعة بالحصانة القضائية والاقتصادية. وبات مكبلاً بالامتيازات الأوروبية عامةً والبريطانية خاصةً من جانب، وبجمود السياسة الاقتصادية العثمانية من جانب آخر، وتكريس القطاع الاقتصادي في سوريا– الشام لتغطية نفقات حروبها الخاسرة التي أرهقت التجار والفلاحين كما توضحه وثيقة من الباب العالي إلى والي حلب لتحصيل ضرائب مترتبة على ولاية حلب كمجهود حربي لتأمين نفقات الجيش العثماني(١).

وسنعرض الواقع الاقتصادي السوري وعوامل قوته، ومعاناته من الاحتلال العثماني ومدى تأثيرات الثورة الصناعيّة عليه فيما يلي :

أ _ الواقع الاقتصادي وتأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية على قوى وعلاقات الإنتاج في سوريا _ الشام في فترة الاحتلال العثماني حتى بداية دولة محمد علي فيها عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م :

كانت القوى المنتجة في السلطنة العثمانية تعتمد على القطاع الزراعي بشكل رئيسي ويتحكم بها النظام الإقطاعي العسكري العثماني، الذي ينقسم إلى الإقطاع الخاص والزعامت والتيمار .

فالإقطاع الخاص ملك للولاة وأفراد الأسرة الحاكمة وحاصله هو فوق عشرين ألف أقجة. أما إقطاع الزعامت، الذي يتراوح حاصله بين ٢٠,٠٠٠ و١٩,٩٩٩ أقجة، فكان للضباط بشكلٍ خاصٍ وكان على صاحبه أن يقدم عدداً من الجند للتوجه إلى الحرب عند الحاجة. وبالنسبة (للتيمار)، وهو الإقطاع الذي لا تزيد غلته عن ١٩,٩٩٩ أقجة، فقد وزع على الجند السباهية (الفرسان) ليعيشوا منه ويجندوا آخرين، ولكنهم كانوا يعطون الأرض للفلاحين مقابل قسم معين من المحصول(٢).

وكانت معظم أراضي شمال سوريا موزعة بين تيمار وزعامت، ودفع الفلاحون في سوريا_ الشام الضريبة مرتين أو ثلاث في السنة، بعد موسم الحصاد وقطاف الزيتون وبيع العسل والحرير. وكان يدفعون ضريبة لصاحب الإقطاع عن الأشجار المزروعة بأنواعها المختلفة من زيتون وتوت وتين

---

(١) _ أوامر سلطانية حلب، مجلد ١٢، ص ٩٧–٩٨، وثيقة ١٢٠، محرم ١١٨٩هـ/١٧٧٥م.

(٢) _ حنا، ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري، مجلد ٣، ص١٤ .

وغيرها[١]. وعانوا كثيراً من الظلم والبؤس مما دفعهم في الكثير من الأحيان للهجرة وهذا ما يفسر خلو كثير من القرى من سكانها تماماً[٢].

وانتشر منذ القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر نظام الالتزام وهو تقديم مصادر الدخل الحكومي للمتعهدين مقابل مبالغ مالية مقطوعة ومدفوعة مقدماً للدولة، ثم يحصلها الملتزمون أضعاف مضاعفة من الفلاحين[٣]، وهذا ما شكل عبئاً كبيراً عليهم. وخلال فترة الاحتلال العثماني لسوريا _ الشام لم يحدث أي تطور في وسائل الإنتاج الزراعي وأساليبه، فقد استمرت التقنيات القديمة نفسها، وتضاعفت الضرائب على الفلاحين، بالإضافة إلى انعدام الأمن على الطرقات، وغياب وجود الحماية القانونية التي من شأنها أن تحمي الفلاح ضد أساليب الاضطهاد، وغياب أي حافز اقتصادي مشجع لهم، وعدم توفر رأس المال للقيام بأي استثمار مجدي[٤].

وفي ظل هذه الظروف ومع قيام الثورة الصناعيّة البريطانية، سيطر التجار البريطانيين على عمليات الاستيراد والتصدير للمحاصيل الزراعية في سوريا _ الشام، وأصبحت قوى الإنتاج المحلية من فلاحين وكبار الإقطاعيين والتجار مجرد تابعين لعجلة الاقتصاد البريطاني واحتياجاته الصناعيّة، ولم يستطع الاقتصاد العثماني الانتقال من مرحلة الإقطاع إلى مرحلة بناء رأسمالية وطنية تدافع عن مصالحها في وجه التغيرات العالمية، مما انعكست آثارها بوضوح على الفلاحين الذين عانوا من تقلص الأسواق القروية والقبلية، والانتقال إلى التخصص في الزراعة وفق أصناف مطلوبة للسوق الأوروبية مثل زراعة القطن في شمال سوريا، وجبال اللاذقية، إلى تربية دودة القز في جبل لبنان. وانتشر الاقتصاد السلعي، القائم على تبادل البضائع بالنقود. وتحولت سوريا _ الشام إلى مُصدّر للمواد الخام للدول الرأسمالية وفي مقدمتهم بريطانيا[٥].

وبالنسبة لقوى وعلاقات الإنتاج في مدن سوريا _ الشام كان نظام الحرف هو السائد في مجال الصناعة، حيث استطاع هذا النظام الصمود حتى بداية القرن التاسع عشر، حيث بدأ نظام الحرف بالانهيار نتيجة منافسة المنتجات البريطانية المصنعة والمحمية جمركياً، الرخيصة الثمن مقارنة بالصناعات المحلية. وحال هذا دون تشكيل طبقة برجوازية قوية تساعد على نمو اقتصادي صحيح. وغدت التجارة المحلية بيد تجار أجانب، ومجموعة عناصر من الطوائف المسيحية المحمية، وفق

---

(١) _ حنا، ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري، مجلد٣، ص١٥ .

(٢) _ صلاح عريبي العبيدي، الدور الاقتصادي للبرجوازيين الوطنيين في المشرق العربي حتى ستينات القرن العشرين، طبعة أولى، دار غيداء للنشر، عمان ، ٢٠١٠، ص ٢٢-٢٣.

(٣) _ صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص٣٥ .

(٤) _ هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، ص٩٢ .

(٥) _ حنا،ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري، مجلد٣، ص٢٣١-٢٣٢.

الامتيازات، من السفراء الأجانب الذين عملوا كوسطاء تجاريين[١]، وصارت مهمة قوى الإنتاج من الحرفيين في سوريا _ الشام تأمين ما يحتاجه التجار الأجانب من المواد الخام وتسويق بضائعهم المصنعة[٢] .

ب_ الواقع الاقتصادي وتأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية على الزراعة في سوريا _ الشام في فترة الاحتلال العثماني حتّى بداية دولة محمد علي فيها عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م :

تشكل الزراعة الجانب الأبرز في الحياة الاقتصادية في سوريا _ الشام، غير أنّها شهدت انخفاضاً ملموساً في المساحة والإنتاج، بعد الاحتلال العثماني للمنطقة، واعتمادهم نظام الإقطاع العسكري، وبعده نظام الالتزام الذي أتاح للملتزمين والمتنفذين من رجال الدولة السيطرة على مساحات واسعة من سهول الشام وأصبح مالكو الأراضي يعملون سخرة فيها[٣]. وأكبر مثال على النفوذ الذي تمتع به الملتزمون هو الشيخ ظاهر العمر الذي بدأ ملتزماً لمدينة طبرية. كما أرهقت الضرائب الفلاحين الذين أصبح كلّ جهدهم منصباً على حاجاتهم اليومية وسدَّ رمق أسرهم من الجوع وكانت ولايات سوريا– الشام مجبرة على إمداد القطع العسكرية العثمانية بالمحاصيل الغذائية كما توضحه ذلك وثيقة بأمر سلطاني عاجل إلى ولاية حلب والرقة لتأمين المال والغذاء للقوات العثمانية في بغداد[٤].

وتأثرت الزراعة بالحروب والفتن بين الولاة فيما بينهم من جهة وبين الولاة والمركز السلطني من جهة أخرى، ولا ننسى حروب نابليون في فلسطين، وإحراقه يافا ودمار عكا، التي ألحقت الضرر في الزراعة والفلاحين معاً[٥].

وبالرغم من كل ما سبق، استطاع الفلاحون في سوريا _ الشام بفضل الأراضي الخصبة وخبرتهم العريقة بالزراعة، تحقيق إنتاج زراعي متنوع، منه ما يُستهلك محلياً ومنه ما يصدّر إلى الخارج، ويعدُّ محصول القمح أبرز المحاصيل الذي يشكل قطاعاً هاماً في الاقتصاد المحلي لأنّه ضروري لتوفير قوت الناس، واستخدمه التجار المحليون للمضاربة واحتكروه أحياناً، للحصول على أسعار مرتفعة وكان مادةً تجاريةً هامة (لآل العظم) في دمشق. كما اهتمَّ العثمانيون بزراعة القمح لأنه مادة رئيسة خاضعة للضرائب، وزُرع القمح في شمال فلسطين وحوران وسهول دمشق، وكانت محاصيل القمح في

---

(١) _ غانية بعيو، التنظيمات العثمانية وآثارها على الولايات العربية الشام والعراق نموذجاً، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية، الجزائر، ٢٠٠٨–٢٠٠٩، ص٥٤ .

(٢) _ رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، ص١٦٠.

(٣) _ كردعلي، خطط الشام، ج٥، ص٧٥ .

(٤) _ أوامر سلطانية حلب، مجلد ١٢، ص٢٠٢–٢٠٣، وثيقة ٢٦١، ١٩٨١هـ/١٧٧٥م.

(٥) _ الحسيني، تاريخ سوريا الاقتصادي، ص١٦١ .

حمص وحماة تحفظ في كهوف حوارية باردة في المنطقة وتباع عند ارتفاع الطلب على الحبوب وازدياد أسعارها[١].

كما اشتهرت سوريا _ الشام بزراعة الأشجار المثمرة من الحمضيات بأنواعها في المناطق الساحلية، والزيتون في نابلس والقدس والغوطة، وأقيمت معاصر الزيتون بمحاذاة أماكن زراعته. وفي لبنان كانت زراعة التوت رائجة منذ أن شجعها (فخر الدين المعني) في أوائل القرن السابع عشر وذلك لتربية دودة القز وإنتاج الحرير. وانتشرت زراعة القطن والنيلة المستخدمة كصباغ أزرق، كما دخلت زراعة التبغ بلاد الشام منذ القرن السابع عشر[٢].

وتميَّزت ولاية دمشق عن باقي ولايات سوريا _ الشام الأخرى بامتلاكها غوطتها الخصبة التي شكلت منظومة اقتصادية متكاملة زراعياً، وصناعياً وتجارياً، حيث كان يتم إنتاج المحاصيل الزراعية والمنتجات الحيوانية، وتخزن وتسوق إلى أسواق دمشق، محققة بذلك ما يسمى بالقيمة المضافة من مبالغ مالية تضاف إلى قيمة السلعة الزراعية بعد تصنيعها[٣].

وقد ازدهرت زراعة الحبوب في الغوطة وكانت تفي بحاجات سكان مدينة دمشق، وانتشرت مطاحن الحبوب حيث تتواجد المساقط المائية على نهر بردى، الذي يغذي الغوطة، كما اشتهرت بزراعة القطن والمشمش والخضروات[٤].

وبالرغم من امتلاك سوريا _ الشام المقومات اللازمة لازدهار الزراعة كما لاحظنا، إلاّ أنَّ سياسة الحكومة العثمانية مارست دوراً سلبياً أدى إلى تراجعها، ترافق ذلك مع عامل خارجي مؤثر، ازدادت تفاعلاته على أرض الواقع مع بداية القرن التاسع عشر، ألا وهو الثورة الصناعيّة البريطانية، التي حظيت بدعم الحكومة البريطانية عبر حرصها على تأمين متطلبات مصانعها الحديثة من المواد الأولية بأرخص الأسعار فكانت سوريا _ الشام إحدى نقاط النفوذ الهامة لتحقيق ذلك .

وجرياً خلف الأرباح شجعت الحكومة العثمانية الأمراء الإقطاعيين على زراعة المحاصيل النقدية عوضاً عن زراعة المحاصيل الغذائية التقليدية التي توفر عامل الأمن الغذائي، فسادت زراعة أشجار التوت لإنتاج الحرير في لبنان، وحلَّت زراعة البرتقال محل الحبوب في فلسطين، واستبدلت زراعة

---

(١) _ شيلشر، دمشق في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ص٩٩ .

(٢) _ الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص١٧٥-١٧٦ .

(٣) _ صالح وهبي، التطور الزراعي والصناعي في غوطة دمشق وأثره في الحياة الاقتصادية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، مجلة دراسات تاريخية، العددان ١٧-١٨، جامعة دمشق، ٢٠١٢، ص٢١٢ .

(٤) _ المرجع نفسه، ص٢٣٢ .

الحبوب بالقطن والتبغ في سوريا، وأصبح الفلاحون يشترون المواد الغذائية بأسعار مرتفعة مقارنةً بما يجنونه من بيع المحاصيل النقدية[١].

وغدا الفلاح في سوريا _ الشام فريسة للجوع والفقر نتيجة لتذبذب الأسعار وتبعيته للسوق البريطانية الرأسمالية، واستغلال المرابين وكبار التجار له[٢]. مما دفعه إلى العصيان والثورة، ولعل ثورة الفلاحين العامية الأولى ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م والعامية الثانية ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م في جبل لبنان، خير دليل على ذلك[٣] .

ولم تكن الصادرات السورية الزراعية إلى بريطانيا نتيجة لفائض في الإنتاج، بل كانت تصدر لتغطية القيمة المتزايدة للمستوردات البريطانية المصنعة[٤]. وكان البريطانيون يقدِّرون ثمن المنتجات السورية بأرخص الأسعار، ويفضلون استبدال قيمة منتجاتهم بالعملات الذهبية والفضية على شراء المنتجات السورية[٥].

وإضافةً لكل ما سبق تعرض الفلاح في سوريا _ الشام للاستغلال من قبل التجار والوسطاء الذين يتوجهون في فترة جباية الدولة للضرائب مستغلين حاجة الفلاحين ويقدمون قروضاً لهم مقابل رهن المحصول القادم سلفاً بفائدة تتراوح بين (٣ و ٥) بالمئة شهرياً أو أنهم يشترون المحصول سلفاً بثلثي السعر أو نصفه[٦].

ويلاحظ تدهور في مستوى الدخل السنوي للفرد، فبعد أن كان يكفي لمعيشته وتوفير مبالغ كبيرة منه، انحدر مستوى الدخل وأصبح متذبذب وغير ثابت، وبات لا يكفي سدّ حاجاته اليومية، وهذا ما يوضحه الجدول الآتي للمصروفات والدخل (بالقروش) في فترة ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م حتى ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م:

---

(١) _ Charles Issawi, An Economic History of The Middle East and North Africa, London, 1982, p2-3.

(٢) _ أيرينا سميليا نسكايا، الحركات الفلاحية في لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ترجمة عدنان جاموس، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٢، ص٥٩ .

(٣) _ حنا، ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري، مجلد٣، ص٦٣.

(٤) _ دومنيك شوفالييه، مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعيّة في أوروبا، ترجمة منى عاقوري، دار النهار، ١٩٩٤، ص٣٤٥ .

(٥) _ شيلشر، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ص٨٦ .

(٦) _ حنا، ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري، مجلد٣، ص٢٣٣ .

الجدول (١) للمصروفات والدخل (بالقروش) للفرد في سوريا- الشام من ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م حتى ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م[١] :

السنة	١٨٢٠	١٨٢١	١٨٢٢	١٨٢٣	١٨٢٤	١٨٢٥	١٨٢٦	١٨٢٧	١٨٢٨
المصروفات	٣٨٩	٨٧٢	٦٦٢	١٥٠٨	٣٥١	٦٥٩	٨١٣	١٤٣٩	١٦١٤
الدخل	٨٥٥	٤٧٥	٤٥٤	١٩٤٣	٣٦٦	١٠٢٢	٧٢٦	٨٥٨	١٥٩٠

ج_ الواقع الاقتصادي وتأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية على الصناعة في سوريا _ الشام في فترة الاحتلال العثماني حتى بداية دولة محمد علي فيها عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م :

كان القطاع الصناعي في سوريا _ الشام محكوماً بنظام الحرف التقليدي منذ مئات السنين، واستطاعت الصناعات السورية الصمود في وجه المتغيرات والمستجدات الهامة ومنها تحول طرق التجارة العالمية عن المنطقة العربية، والاحتلال العثماني، وتسلط ولاته وكثرة الضرائب، والفتن والحروب والأوبئة. وكما يقول ابن خلدون: "إن خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعةً واحدةً لاسيما في الأمور الصناعيّة فلا بد له إذن من زمان"[٢]، لذلك ما عاشته بلاد الشام من ازدهار اقتصادي سابق سمح لها بالمنافسة والصمود حتّى بدايات القرن التاسع عشر .

وانتظمت الصناعة في سوريا _ الشام في نظام الطوائف الحرفية، ولم تكن هذه الطوائف متشابهة في الكم والنوع بل اختلفت من مدينة إلى أخرى، تبعاً لنشاطها الاقتصادي والتجاري لذلك كانت حلب الأكثر تنوعاً وعدداً في الطوائف الحرفية[٣].

وأبرز ميزات التنظيم الحرفي في سوريا _ الشام هو التخصص في العمل، وتوزيعه فهناك طوائف عملت بالخدمات وتأمين المواد الأولية، وطوائف عملت بالإنتاج، وأخرى بالتسويق، وقد ذكرت سجلات المحاكم الشرعية في حلب ودمشق ما يقارب مئة وثلاث وستين طائفة[٤].

وكان لكل طائفة شيخ يجب أن يتصف بالاستقامة والتديّن، كما وجدت حرف اشتهرت بها طوائف معينة مثل حرفة الصرافة التي كانت محصورة في عائلات يتوارثون المهنة من الأرمن واليهود، وما بين أعوام ١١٦٤هـ/١٧٥٠م _ ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م كان العصر الذهبي للصرافة حيث لعبوا دوراً

---

(١) _ خالد مفلح بني هاني، تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري ١٢٤٦هـ- ١٢٥٦هـ/ ١٨٣٠م-١٨٤٠م، الطبعة الأولى، دار الأوائل للنشر، دمشق، ٢٠٠٥، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٢) _ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ص٥٠١-٥٠٢ .

(٣) _ رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، ص١٣٥ .

(٤) _ المرجع نفسه ، ص١٣٦ .

أساسياً في النظام المالي لإقراض المال للسكان والحكومة العثمانية[١]. واشتهر الصرافون اليهود في دمشق وكانوا يأخذون عشرين أو ثلاثين بالمئة من المبلغ[٢] .

أما بالنسبة لأهم الصناعات، كان هناك مجموعة من الصناعات المحلية الريفية التي تعتمد على الزراعة مثل صناعة مربى المشمش، وقمر الدين، ودبس العنب والنبيذ الأحمر وصناعة العطور وماء الورد، الذي اشتهرت به دمشق، وكانت السلطنة العثمانية تعتمد على الثمار والبقول المجففة لإطعام جنودها[٣].

ومن الصناعات المشهورة في مدن سوريا _ الشام صناعة الصابون المنتج في دمشق واللاذقية وحلب ونابلس التي كانت تصنع الصابون ولا يباع إلا بعد ثلاث سنين على صنعه[٤]. في حين اشتهرت مدينة الخليل في منتصف القرن الثامن عشر بصناعة الزجاج الملون الذي صُدر إلى أوروبا[٥]. وفي دمشق ساعد نوع الرمل على إنتاج زجاج مميز. وفي جبل لبنان ومع أواخر القرن الثامن عشر بدأت الصناعة تنفصل تدريجياً عن الاقتصاد الزراعي القائم على الحرف اليدوية، وبدأت تبرز المراكز الحرفية في المدن ومن أبرز منتوجاتها المنسوجات الحريرية والأدوات الفخارية[٦]، ودُعيت بلدتا (عيتا وراشيا) في جبل لبنان باسم (عيتا الفخار) و (راشيا الفخار) لازدهار هذه الصناعة فيهما[٧].

ومن الصناعات الرائجة، تربية دودة القز لتصنيع خيط الحرير في أنطاكية ولبنان، واشتهرت منطقة (زوق مكايل) في بيروت بصناعة المنسوجات الحريرية التي كانت تصدرها إلى مصر والولايات العثمانية وأوروبا[٨].

وبالنسبة لصناعة المنسوجات العريقة من الحرير والقطن والكتان اشتهرت بها مدن حلب وطرابلس وحمص ودمشق، وقد اختصت دمشق بصناعة قماش (ألالاجة) المكون من القطن والحرير، ولكن نتيجة غلاء الحرير ومنافسة البضائع الأجنبية المصنعة اشتهر نوع أرخص منه ويدعى (الديما)[٩]،

---

(١) _ Colin Imber, Keiko Kiyotaki, Frontiers of Ottoman Studies, Two Volumes, Published by Tauris, London, 2005, Volume 1, p65,p68 .

(٢) _ محمد القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، تحقيق ظافر القاسمي، جزءان، الطبعة الأولى، دار طلاس للنشر، دمشق، ١٩٨٨، ص٢٨٨ .

(٣) _ وهبي، التطور الزراعي والصناعي في غوطة دمشق، ص٢٣٠ .

(٤) _ كردعلي، خطط الشام، ج٤، ص١٥٩ .

(٥) _ المصدر نفسه ، ص ٢١٧.

(٦) _ نسكايا، الحركات الفلاحية في لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ص٢٧ .

(٧) _ كردعلي، خطط الشام، ج٤، ص٢٢٠ .

(٨) _ نسكايا، الحركات الفلاحية في لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ص٢٨ .

(٩) _ رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، ص١٦١ .

ولقد بلغ عدد الأنوال المستخدمة في مجال النسيج أوائل القرن الثامن عشر أكثر من عشرة آلاف نول في حلب، وثمانية آلاف نول في دمشق، وألفي نول في لبنان[١]، وكانت أنوال النسيج متنوعة بين نسيج قطني، ونسيج حريري، ونسيج الديما[٢].

وترافقت مع صناعة النسيج ازدهار صناعة الأصبغة، التي كانت سبباً في ازدهار الديباج الدمشقي بألوانه الزاهية[٣]. وكان هناك طائفة حرفية تدعى الصباغين وأشهر ألوان الصباغة هي الأحمر والأصفر من الزعفران والأبيض والكحلي والنيلي[٤].

ونلاحظ مما سبق امتلاك الاقتصاد المحلي في سوريا _ الشام عوامل القوة من التكامل الزراعي الصناعي كما هو الحال في غوطة دمشق، وتركز الزراعة صناعياً من خلال الاهتمام بزراعة القطن في دمشق وفلسطين وإنتاج الأقمشة القطنية بالاعتماد عليها، وإنتاج خيوط الحرير المعتمد على زراعة أشجار التوت في لبنان. ولقد استخدم حرفيو سوريا _ الشام المساقط المائية لتشغيل مطاحن وآلات غزل القطن. كما برز التخصص في العمل وتقسيمه في نظام الطوائف الحرفية وهذا من صفات الاقتصاد المنظم والمتطور[٥]. كما ذكر البحث سابقاً أهمية تقسيم العمل في الثورة الصناعيّة البريطانية البريطانية عند المفكر (آدم سميث) .

لكن الحكومة العثمانية لم تستثمر في القطاع الصناعي في سوريا _ الشام، بل أنهكته بالضرائب السنوية، وضرائب (العرضي) التي تفرض لتمويل حملات الدولة العسكرية، وكانت هذه الضرائب تعيق نمو الحرف وتشكل عبئاً مادياً عليهم[٦]. كما أنَّ السياسة الاقتصادية العثمانية وإهمالها التام حماية الصناعة الوطنية مكّنت الثورة الصناعيّة البريطانية من توجيه ضربات مدمرة للصناعة الوطنية في سوريا _ الشام، وذلك من خلال منحها امتيازات خاصة بإعفاء البضائع البريطانية من دفع رسوم جمركية مرتفعة، في حين كانت المصنوعات الشامية تدفع رسوم التصدير العالية. وهذا ما ساعد بريطانيا على إغراق الأسواق المحلية ببضائعها الرخيصة إذا ما قورنت بالصناعات الوطنية ذات التكلفة العالية والمعتمدة على وسائل الإنتاج التقليدية من الأنوال اليدوية. وتناقص عدد أنوال النسيج وتراجعت قيمتها وانخفضت أسعار النسيج، مما أدى إلى إفلاس الكثير من الحرفيين، وجُردوا من ثرواتهم التي وزعت على الدائنين. وأصبح الحرفيون يتهربون من دفع الضرائب المرتفعة من خلال

---

(١) _ ريجينكوف، أيرينا نسكايا، سوريا ولبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ترجمة يوسف عطاالله، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٩٣، ص٣٤٨ .

(٢) _ رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، ص١٥٨ .

(٣) _ كردعلي، خطط الشام، ج٤، ص٢٢٠ .

(٤) _ القاسمي، قاموس الصناعات الدمشقية، ص٢١٧ .

(٥) _ رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، ص١٤٧ .

(٦) _ المرجع نفسه ، ص١٤٦ .

الحصول على حماية القناصل الأجانب أصحاب النفوذ في سوريا _ الشام وذلك بحصولهم على ورقة (براءتلي) التي تعفيهم من دفع الضرائب[١]، وقد استطاع البريطانيون من خلال قناصلهم والجاليات التجارية المقيمين في سوريا _ الشام معرفة أذواق الناس وطرق لباسهم وحاجات السوق، فصنعوا المنسوجات التي تلائم السكان المحليين، وبالرغم من عدم متانتها إلاّ أنَّ ألوانها الزاهية وتزيينها جعل الناس يقبلون عليها[٢] ويرغبون بارتدائها و"أصبح البدوي يضع على رأسه كوفية مستوردة من برمنغهام"[٣].

ولقد تسببت الثورة الصناعيّة البريطانية بأزمة مالية حادة في سوريا _ الشام بسبب اتباعها سياسة عدم مبادلة منتجاتها المصنعة بالمنتجات المحلية بل كانت تسترد ثمن بضائعها غالياً بالعملة النقدية، وهذا ما أفقر السكان والحكومة، ولم يسمح للصناعة الوطنية بتعويض خسائرها وتنمية إنتاجها[٤].

وقد تجاهلت الحكومة العثمانية تلك المعطيات الجديدة، ولم تقم بأية خطوات لتلافي تلك النتائج في هذا المجال، كمنح قروض للحرفيين أو الحد من الاستيراد ورفع الرسوم الجمركية على الواردات المصنعة، ولم تتخذ سوى قرار صدر عام ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م يمنع الأوروبيين من المتاجرة بالحرير السوري وذلك لحاجة الأنوال لهذه المادة الأولية، ويدعو المسلمين لضرورة استخدام اللباس البسيط البعيد عن الفخامة وذلك لتقليل استخدام المنسوجات الأوروبية المستوردة. لكن هذا القرار لم يطبق بشكل فعلي على أرض الواقع، وجاء تعبيراً عن طمع الحكومة العثمانية باحتكار الحرير. وبقيت الكلمة العليا للصناعيين والتجار الأجانب[٥] .

د_ الواقع الاقتصادي وتأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية على التجارة في سوريا _ الشام في فترة الاحتلال العثماني حتى بداية دولة محمد علي فيها عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م :

إنَّ موقع سوريا _ الشام في آسيا، وقربها من سواحل إفريقيا، جعل أهلها رواد التجارة، واشتهروا بتجارة الترانزيت (نقل البضائع). وكانت حلب أكثر المدن الشامية شهرة بهذه التجارة، ويعود ذلك لموقعها الواصل بين مدن الشام والأستانة وأوروبا من جهة، وبين العراق والشرق الأقصى من جهة أخرى. وكان فيها سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م ثمانون وكالة تجارية لبيوت تجارية أوروبية وأكثرهم من

(١) _ رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، ص١٥٩ .

(٢) _ ريجينكوف، نسكايا، سوريا ولبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ص٣١٩ .

(٣) _ يوسف نعيسة، مجتمع مدينة دمشق ١٧٧٢-١٨٤٠، جزءين، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٦،ج٢،ص٥٨٧ .

(٤) _ رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، ص١٥٧-١٥٨ .

(٥) _ شوفالييه، مجتمع لبنان في عصر الثورة الصناعيّة في أوروبا، ص٣٩٩-٤٠٠ .

البريطانيين، وكان السماسرة بين أهالي حلب والأوروبيين أكثرهم من اليهود الذين يتاجرون في تلك المنطقة[١].

ويذكر السائح الفرنسي (بوجولاد) (Poujoulad) أنَّ حلب في أواخر القرن الثامن عشر كانت أهم مدينة بعد الأستانة والقاهرة، لدرجة أنها كانت تسمى (تدمر الجديدة) لكثرة البضائع والقوافل التجارية الواردة إليها ومنها. وكانت أهم صادراتها، هي الأقمشة النسيجية من حرير وموسلين وخيوط قطنية، والصابون. وكانت تستورد الجوخ ودودة القرمز والسكر والقهوة والورق[٢]، ونلاحظ بالنسبة لاستيراد الورق مدى التراجع العربي فبعد أن عَرّفوا أوروبا على صناعة الورق باتوا يستوردوه منها. واستمرَّ ازدهار حلب التجاري حتّى نهاية القرن الثامن عشر حيث بدأ يتدهور تدريجياً في القرن التاسع عشر، مع حلول عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م تراجع ازدهار المدينة وهذا ما يصفه متسلم مدينة حلب في مذكرة إلى الباب العالي بسبب هجمات البدو المدعومين من الحركة الوهابية في الحجاز والمعادية للعثمانيين إضافة إلى الأمراض وتراجع التجارة الأوروبية التي انتقلت إلى الموانئ اللبنانية[٣].

أما بالنسبة للحالة التجارية لمدينة دمشق فيلاحظ عدم ازدهار تجارة الترانزيت فيها مثل حلب، وعدم إقامة قناصل أجانب فيها. ولكن نتيجة للحروب الروسية العثمانية واحتلال روسيا شمال بلاد فارس في القرن الثامن عشر انقطعت تجارة الحرير الفارسي إلى حلب ومنها إلى أوروبا، فهاجر كثير من التجار المسلمين واليهود والأرمن إلى دمشق وأقاموا فيها[٤].

وبالرغم مما شهدته دمشق من كوارث وزلازل وأمراض، ومن حروب وثورات وظلم الولاة الأتراك، إلاّ أنَّها حققت ازدهاراً اقتصادياً في ظل حكم آل العظم ولا سيما في فترة حكم (أسعد باشا العظم)، حيث ترعرعت في كنف الحكم المحلي لآل العظم طبقة من التجار والآغوات، ونمت ثلاثة قطاعات تجارية هامة هي :

١"_ قطاع التجارة التبادلية بين مدينة دمشق والقرى المجاورة لها في غوطة دمشق، حيث يبيع الفلاحون منتجاتهم الزراعية ويشترون ما يحتاجون إليه من سلع مصنعة.

٢"_ قطاع تجارة الاستيراد والتصدير مع مدن السلطنة الأخرى والدول الأجنبية واهتمَّ آل العظم بتصدير الحبوب.

---

(١) _ كردعلي، خطط الشام، ج٤، ص٢٤٧ .

(٢) _ الحسيني، تاريخ سوريا الاقتصادي، ص١٧٢-١٧٤ .

(٣) _ Ross Burns, Aleppo: A History, Published by Routledge, New York and London, 2017, p253 .

(٤) _ محمد الأسطواني، مشاهد وأحداث دمشقية في منتصف القرن التاسع عشر، طبعة أولى، مطبعة دار الجمهورية، ١٩٩٤، ص٣٤ .

٣"_ قطاع تجاري يعتمد على قوافل الحج التي تتجمَّع في مدينة دمشق وتشكل قافلة الحج الشامي، مما ساعد على نشوء عدد من الخانات والأسواق التي شكلت فيما بعد سوق الميدان[١]. وكان لهذه التجارة ذات الطابع الديني أهمية بالغة في دعم اقتصاد دمشق وتنشيط حركة البيع والشراء. وقد استطاع (آل العظم) تأمين قوافل الحج وتحقيق أرباحاً سنوية منها. وأشادوا الأسواق والخانات الضخمة لذلك مثل (خان أسعد باشا) من أكبر أسواق سوريا _ الشام . وكانت أشهر صادرات دمشق الحبوب وقماش (ألالاجا) وهو قماش من الحرير والقطن مصقول لامع[٢].

واشتهرت موانئ صيدا وعكا بالتجارة مع الدول الأوروبية، وقد تمكن ظاهر العمر ومن بعده أحمد الجزار من احتكار تجارة الحبوب والقطن وتصديرهما إلى أوروبا وفرض الأسعار التي تناسبهما[٣]. ولكن في القرن التاسع عشر احتل ميناء بيروت الصدارة في استقبال السفن الأوروبية، وكانت معظم صادراته مواد أولية وأهمها القطن والحرير والصوف والدخان[٤]، كما كانت صادرات الشام تصدر عبر ميناء بيروت. ومع قيام الثورة الصناعيّة البريطانية أصبحت أهم صادرات سوريا _ الشام إلى بريطانيا المواد الخام للصناعات النسيجية، الحبوب والزيوت، إضافة إلى العملات الفضية والذهبية ثمناً للبضائع البريطانية المستوردة. ولم تدفع بريطانيا رسوماً على بضائعها الواردة إلى سوريا _ الشام سوى ٣-٥%[٥]، وهذا بعكس الصادرات السورية التي عانت من ارتفاع الرسوم والضرائب، حيث فرضت الحكومة العثمانية تعرفة (١٠%) على البضائع المصدرة من أراضيها[٦].

وظهرت طبقة جديدة من التجار الذين يعملون كوسطاء بين التجار الأجانب والمحليين وكانوا من مختلف الطوائف والمذاهب[٧]. ولكن التجار المسيحيين كانوا أكثر نشاطاً لحصولهم على حق الحماية من القنصليات الأجنبية، وكان هؤلاء التجار يشترون المنتجات الزراعية من الفلاحين بالدفع مقدماً ليتحكموا بأسعارها[٨]. في حين اضطرَّ الكثير من تجار دمشق إلى الاعتماد على الكمبيالات التي يتمَّ تحويلها من بيروت لاستمرار استيراد البضائع من أوروبا، أو يعمدون إلى الاقتراض من مؤسسات تجارية في بيروت[٩].

---

(١) _ البحرة، دمشق أواسط القرن الثامن عشر كما يؤرخ لها البديري الحلاق، ص١١٦ .

(٢) _ القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ص٣٩ .

(٣) _ Ross Burns, Damascus: A History, Published by Routledge, New York and London, 2017, p246 .

(٤) _ الحسيني، تاريخ سوريا الاقتصادي، ص١٩٠ .

(٥) _ هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، ص٦٢ .

(٦) _ الحسيني، تاريخ سوريا الاقتصادي، ص١٥٢.

(٧) _ رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، ص١٦٠ .

(٨) _ شوفالييه، مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعيّة في أوروبا، ص٤١٥ .

(٩) _ شيلشر، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ص٩١ .

وهكذا كان القطاع التجاري في سوريا _ الشام رهيناً للأموال الأجنبية والتجار الفرنسيين والبريطانيين الذين يحددون أسعار الواردات والصادرات حسب مصالحهم، ولم يستطع التجار المحليون بناء رأسمال وطني ضخم يمكنهم من مواجهة تحديات الصناعة البريطانية الصاعدة. وبات الميزان التجاري خاسراً، إذ بلغ حجم الدين العام ما بين عشرة إلى اثني عشر مليون قرشاً عثمانياً لمصلحة أوروبا وخصوصاً بريطانيا من أجل شراء بضائعها المصنعة، وكان هذا الدين يتراجع في سنوات الغلال الجيدة حيث يتم تصدير الحبوب عوضاً عن الدفع نقداً. وبالمقابل اعتمدت بريطانيا سياسة خفض أسعار العملات المتبادلة معها مقابل الجنيه الاسترليني حيث تراوحت قيمة العملة العثمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر حوالي مئة وخمسة قروش للجنيه الاسترليني الواحد. ولم تستطع الحكومة العثمانية منع تداول هذه العملات لأن النقد العثماني لا يغطي الصفقات التجارية التي يعقدها السوريون سنوياً مع أوروبا[1]. والجدول التالي يوضح تأثيرات الثورة الصناعية البريطانية على حركة التجارة على صعيدي الاستيراد والتصدير في الموانئ الشامية الرئيسية:

الجدول (٢) واردات وصادرات موانئ سوريا– الشام الرئيسية[2] :

السنة	الميناء	الواردات مقدرة بالجنيه الاسترليني	الصادرات مقدرة بالجنيه الاسترليني
١١٩٨هـ/١٧٨٤م	**إسكندرونة**	٢٠٠,٠٠٠	٢٠٨,٠٠٠
	طرابلس	١٦,٠٠٠	٢٠,٠٠٠
	صيدا وعكا	١٢٠,٠٠٠	١٤٤,٠٠٠
١٢٤٠هـ/١٨٢٥م	**اسكندرونة**	٢٢٠,٠٠٠	١٠٨,٠٠٠
	بيروت	١١٢,٠٠٠	٨٠,٠٠٠
	صيدا وعكا	٢٣٦	١٦٠

ويبين الجدول السابق انخفاض نسبة صادرات سوريا– الشام تدريجياً، وبالمقابل ارتفعت نسبة الواردات. كما يلاحظ بروز ميناء بيروت الذي لم يكن له ذكر عام ١٧٨٤.

هـ_ تأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية وردّ فعل التجار والحرفيون عليها في سوريا _ الشام في فترة الاحتلال العثماني حتى بداية دولة محمد علي فيها عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م :

إزاء تحدي الثورة الصناعيّة وانعكاساتها، كيف ردت القطاعات الاقتصادية في سوريا _ الشام على ذلك ؟

(١) _ ريجينكوف، نسكايا، سوريا ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ص٣٦٩_٣٧٣.

(٢) _ بني هاني، تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري، ص٢٣٤-٢٣٥.

بالرغم من سيطرة الاقتصاد الأوروبي الصناعي الرأسمالي في القرن التاسع عشر، استطاع تجار وحرفيو سوريا _ الشام معتمدين على خبراتهم ووعيهم لخطورة المنافسة الخارجية في ظل غياب أي إجراءات من حكومة الاحتلال العثماني، استطاعوا ابتكار بعض الطرق في مجال التجارة والصناعة، وكما يذكر الكاتب القساطلي المعاصر للأحداث "أما الآن فقد نكبت دمشق أعظم نكبة ولا سيما صنعة النسيج لسبب غلاء الحرير وكثرة انتشار البضائع الإفرنجية مع عدم متانتها. وهذا ما دعا الحاذق السيد عبد المجيد الأصفر أن يقلد ألالاجه بالغزل ليتمكن أبناء الوطن من استعماله"[١]. وسمي هذا النسيج (الديما) الذي لاقى رواجاً لدى العامة وكان يصنع من القطن وبسعرٍ رخيص وجودةٍ عالية[٢].

ولأن النساج عبد المجيد لا يملك المال الكافي لمشروعه، لجأ إلى المشاركة في العمل واعتمد على دعم رأس المال من أجل إنتاج سلعة منافسة وهذا ما ذكره القساطلي بقوله: "ولضيق ذات يده انضمَّ إلى السيد حسن الخانجي فأمده وبعد الجهد نال مراده ... ، واقتدى به بعض العملة وزادوا عمله إتقاناً فأضحى نسيج الديما صناعة مهمة تعيش به ألوف"[٣].

وهذا التعاون بين النساج المخترع وأصحاب رأس المال يذكرنا بالثورة الصناعيّة البريطانية حيث دعم الأثرياء الاختراعات الجديدة وآمنوا بها، ولكل هذا أصول في التراث الاقتصادي العربي في العصور الوسطى.

ولكن محاولة سكان سوريا _ الشام لم تجد نفعاً في ظل التغيرات الجذرية التي أحدثتها الثورة الصناعيّة البريطانية على مستوى العالم والدولة العثمانية وسوريا _ الشام التي تعرضت فيها النظم الاقتصادية للتراجع والتدمير، ومع انعدام سياسة عثمانية اقتصادية واعية لم تتغير الأوضاع الاقتصادية إلاّ مع تغير الأوضاع السياسية في المنطقة وقيام دولة محمد علي في مصر وسوريا – الشام.

---

(١) _ نعمان قساطلي، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، الطبعة الأولى ١٩٧٩، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٢، ص١٢٣ .

(٢) _ رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، ص١٦١.

(٣) _ قساطلي، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ص١٢٣.

الفصل الرابع

تأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية في التطور الاقتصادي التاريخي لسوريا _ الشام في فترة حكم دولة محمد علي

منذ بدايتها عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م حتى نهايتها عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م_١٢٥٧هـ/١٨٤١م

أولاً): دولة محمد علي باشا وسوريا _ الشام منذ بدايتها وحتّى نهايتها عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م-١٢٥٧هـ/١٨٤١م :

١_ موجز عن حكم محمد علي باشا: وصوله لحكم مصر وأهمّ إنجازاته الداخلية والخارجية .

أ_ محمد علي ووصوله إلى حكم مصر :

محمد علي هو تركي ولد في مدينة (قولة) في مقدونيا[١]. جاء وهو في الثلاثين من عمره إلى مصر، كضابط في الفرقة الألبانية التي جاءت برفقة القوات العثمانية لمواجهة الحملة الفرنسية عام ١٢٤١هـ/١٧٩٩م. وسطع نجمه بعد ذلك، مستفيداً من اضطراب السلطة في مصر وتنازع عدة قوى عليها. حيث تواجدت في مصر في الفترة بين ١٢١٨هـ/١٨٠٣م و ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م ثلاث فئات: الباشا العثماني(خسروا باشا) وتدعمه القوات العثمانية، والقوات الألبانية بقيادة "طاهر باشا" و"محمد علي"، والمماليك الذين انقسموا بين فريقين البرديسي والألفي[٢]. واتَّحد الألبان والمماليك ضد الأتراك وتخلصوا من خسروا باشا الذي أصبح الصدر الأعظم في السلطنة فيما بعد وظلَّ حاقداً على محمد علي[٣].

استفاد محمد علي من نقمة الشعب المصري على الحكم المملوكي الجشع وكثرة الضرائب التي يفرضونها وساند الأهالي وعلماء مصر في رفض ممارسات المماليك، مما دفع المصريين للمطالبة بتعيين محمد علي والياً عليهم. وصدر الأمر من السلطان العثماني بتعين محمد علي حاكماً لمصر عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م . عمل محمد علي على توطيد سلطته ضد المماليك وحلفائهم البريطانيين، الذين كانوا يخشون وقوع مصر تحت النفوذ الفرنسي مرة ثانية، وخصوصاً بعد انتصارات نابليون الساحقة في أوروبا بين عامي ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م و ١٢٢١هـ/١٨٠٥م واعتراف السلطان العثماني بنابليون إمبراطوراً. وبتشجيع من حزب الألفي المملوكي احتلَّت بريطانيا الاسكندرية عام ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م، ولكن محمد علي مدعوماً من الشعب استطاع إخراجهم من مصر بموجب ميثاق ١٤ أيلول عام ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م، ودعّم هذا النصر سلطة محمد علي. الذي استكمل القضاء على أعدائه المماليك ليصبح صاحب الكلمة العليا في مصر[٤]، وليؤسس مصر الحديثة مستفيداً من

---

(١) _ Afaf Lutfi Marsot, Egypt in The Reign of Muhammad Ali, Cambridge University Press, UK, 1984, P24 .

(٢) _ عبدالكريم رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، دار الوحدة ، دمشق، ١٩٨١، ص٢٨٥ .

(٣) _ Henry Dodwell, The Founder of Modern Egypt : Astudy of Muhammad Ali, Cambridge University Press, UK, 1931, P14-15 .

(٤) _ رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، ص٢٨٦-٢٨٧ .

إمكانياتها الهائلة. مما أثار مخاوف السلطنة العثمانية الضعيفة، والدول الأوروبية الطامعة في تحقيق مصالحها السياسية والاقتصادية في السلطنة، وأدَّى ذلك إلى سلسلة من الأزمات الدولية .

ب_ موجز عن أبرز إنجازات محمد علي الداخلية :

يذكر المؤرخ كردعلي أنَّ محمد علي " رأى من المصريين قبولاً لدعوته، واستعداداً للمدينة، وهو لم يقاوم الطبيعة كما قاومها الترك العثمانيون في السياسة التي استخدموها للقضاء على العناصر، بل استعرب وتمصَّر وألف بطانته من كل من يخدم مصر دون عصبية "[١]. وكانت أهم إنجازاته الداخلية التخلص من المماليك عام ١٢٢٦هـ/١٨١١م وتعزيز علاقته مع السلطان العثماني بإرسال الأموال والهدايا إليه. وإيجاد حليف أوروبي له وهي فرنسا في وجه العداء والأطماع البريطانية في مصر. وشملت الإنجازات جميع نواحي الحياة الاقتصادية والسياسية والتعليمة والعسكرية[٢].

على الصعيد الزراعي ضرب الإقطاع المدني والديني، وألغى نظام الالتزام والأوقاف وأوجد نظام جديد لتوزيع الأرض والضرائب[٣].

وعلى صعيد الصناعة أدرك محمد علي تأخر مصر عن ركب التطور الأوروبي والثورة الصناعيّة البريطانية، مما دفعه ولأول مرة في تاريخ الإمبراطورية العثمانية إلى شراء مصانع النسيج، وتأسيس طواحين لصناعة الورق، ومراكز لتكرير السكر. وبالرغم من أن صناعة مصر لم تستطع المنافسة أمام الصناعة الأوروبية إلا أنّها كانت خطوة أولى في الطريق الصحيح[٤].

ومن الناحية السياسية ولأول مرة في تاريخ مصر الحديث بدأ العنصر المحلي يشغل وظائف في جهاز الدولة، وعرفت مصر تجربة المجالس المنتخبة من سكان المدن لإدارة شؤون مدنهم، وتمَّ تشكيل (ديوان المشورة) للفض في الدعاوي وأمور المدن[٥]. وبالتالي شارك الشعب في اتخاذ القرار والدفاع عن مصالحه[٦] .

---

(١) _ كردعلي، خطط الشام، ج٣، ص٥٠ .

(٢) _ بني هاني، تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري، ص٢٥١.

(٣) _ نجاح محمد، وقفة جديدة عند سوريا _ الشام في عهد محمد علي(١٢٤٧هـ/١٨٣١م-١٢٥٦هـ/١٨٤٠م)، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العددان ٦٧-٦٨ كانون الثاني-حزيران، ١٩٩٩، ص١٧٤ .

(٤)_ Lee T.Wyatt III, The Industrial Revolution, Green Wood Press, London, 2009,p144 .

(٥) _ محمد عمارة، العروبة في العصر الحديث، الكتاب الثاني، دار الوحدة، بيروت، ١٩٨٤، ص١٤٩ .

(٦) _ المرجع نفسه، ص١٨٨.

وبالنسبة للتعليم كان محمد علي أول من أنشأ معاهد للتعليم على النمط الأوروبي معتمداً على اللغة الفرنسية وأحياناً الإنكليزية. واستعان بعدد من الرجال المخلصين والحريصين على خدمة البلاد ورفع مستواها العلمي[١].

وفي المجال العسكري أدرك محمد علي أن تثبيت حكمه لا يمكن أن يتحقق إلاّ بإنشاء جيش نظامي وقوي يدين بالولاء له. ووجد ضالته في الجنود السودانيين الذين يتميزون بالشجاعة والقوة، واعتمد في تدريبهم على الضابط الفرنسي الذي كان أحد ضباط نابليون، ولم يغادر مصر بعد هزيمة الفرنسيين واعتنق الإسلام وعُرف باسم(سليمان باشا). ولكن الجنود السودانيون لم يتحملوا مناخ مصر ومات منهم الآلاف، ولذلك قرر محمد علي تأسيس جيش وطني بالرغم من معارضة الأتراك هذا، وتهيب الفلاحون من التجنيد الإجباري[]. وجرى تحسين صناعة الأسلحة النارية الخفيفة والمدافع، وأنشئت المدارس الحربية. وبالرغم من أن الاهتمام بالقطاع العسكري أرهق اقتصاد الدولة في مصر، إلاّ أنَّ الجيش شارك في إنشاء المدارس والمشافي والمصانع الحكومية، وأصبح الجيش عنواناً لوحدة البلاد وتعزيز الشعور الوطني والانتماء حيث شمل جميع العناصر الاجتماعية من الطوائف الدينية والطبقات الاجتماعية من فلاحين وعمال وتجار وحرفيين[٢].

ومن خلال الاطلاع على الإصلاحات التي أنجزها محمد علي على جميع الأصعدة الداخلية، ندرك فهمه لتكامل عملية الإصلاح والتطوير، وضرورة الاعتماد على العناصر البشرية المتنوعة في بناء دولة من عرب وأتراك وألبان وشركسة بغض النظر عن الدين والأصل، والدمج بين الروابط الثلاث: الرابطة الإسلامية، الرابطة العروبية، والرابطة الوطنية[٣]، وهذا ما يوضح سياسته الخارجية .

ج_ أبرز إنجازات محمد علي الخارجية :

جاءت سياسته العربية من خلال توجهه للقضاء على الدولة السعودية الوهابية الأولى بتكليف من السلطان بعد أن عجز ولاة الشام والعراق عن ذلك. ولأن محمد علي أدرك غايات السلطان العثماني ومن خلفه بريطانيا في ضرب القوتين العربيتين معاً لإضعاف جميع الأطراف، لم يقض على الوهابيين وبشكل نهائي رغم رفضه لهم ولتكفيرهم، ولم يدمر عاصمتهم الدرعية في حربه الأولى ضدهم عام ١٢٢٦هـ/١٨١١م. ولكنه عاد واضطر إلى ذلك عام ١٢٣٣هـ/١٨١٨م. ونتج عن هذا إعجاب المسلمين بمحمد علي الذي أعاد الحجيج إلى مكة بعد انقطاعه سنوات. وكان محمد علي يطمع في السيطرة على الحجاز وبعده اليمن ومن أجل إعادة إحياء طريق البحر الأحمر وطريق البر التجاري

---

(١) _ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب العربية، ترجمة أمين فارس ومنير بعلبكي، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين، بيروت،١٩٦٨، ص٥٤٦ .

(٢) _ أحمد طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ١٩٨٨، ص٥٦-٥٨ .

(٣) _ محمد، وقفة جديدة عند سوريا _ الشام في عهد دولة محمد علي(١٢٤٧هـ/١٨٣١م-١٢٥٦هـ/١٨٤٠م)، ص١٧٥ .

عبر الخليج وهذا ما يعطي فرصة للتجارة العربية والبرجوازية الوطنية الناشئة لتوسيع مناطق نفوذها خارج مصر واستعادة النظام العربي الإسلامي العالمي، ويشكل ضربة للهيمنة البريطانية على التجارة الدولية ويسقط نظامها، مما أثار مخاوف بريطانيا التي سعت للحصول على امتيازات تجارية في اليمن[١] وبدأت تعمل بالخفاء أولاً ثمّ في العلن للتخلص من دولة محمد علي العربية .

كان هذا إنجازه العربي الأول، أما بالنسبة لإنجازه العربي الثاني فكان توجهه للسيطرة على السودان مابين عامي ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م _ ١٢٣٧هـ/١٨٢٢م وكان هدفه توحيد وادي النيل، والوصول إلى منابع النيل وتفويت الفرصة على بريطانيا بالسيطرة عليها وبالتالي تحرم مصر من شريان الحياة الرئيسي[٢]. إضافة إلى تنمية التجارة مع السودان، والحصول على مناجم الذهب، وتجنيد السودانيين في الجيش المصري، والتخلص من بقية المماليك الهاربين إلى السودان[٣].

وكان الإنجاز العربي الثالث لمحمد علي السيطرة على بلاد الشام وكانت البداية عندما طلب السلطان منه إخماد الثورة اليونانية عام ١٢٤١هـ/١٨٢٥م مقابل حصوله على ولاية الشام ونجح محمد علي في إخماد الثورة في قبرص وكريت وتصدى للأسطول اليوناني. ولكن القوى الأوروبية وفي مقدمتها بريطانيا حطَّمت الأساطيل العثمانية والمصرية في معركة (نفارين) عام ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م ونشبت حرب بين العثمانيين وروسيا انتهت بمعاهدة (أدرنة) عام ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م[٤].

ومع أن محمد علي أوفى بجميع التزاماته تجاه السلطنة العثمانية، وخسر أسطوله في حرب اليونان، تنصَّل السلطان من وعده بمنحه ولاية سوريا _ الشام ولم يمنحه سوى حكم جزيرة (كريت)[٥] وهذا ما أغضبه وجعله أكثر إصراراً بضمها إلى دولته، وخصوصاً بعد عودة السلطنة للتحالف مع البريطانيين الذين كانوا يعتبرون دولة محمد علي تهديداً لمصالحهم الاقتصادية في المنطقة وعلى طريق الهند وعقبة في وجه استمرار بناء ثورتهم الصناعيّة[٦] .

٢_ سوريا _ الشام وحملة إبراهيم باشا وتدويل المسألة السورية :

أ_ الأسباب البعيدة والقريبة لحملة إبراهيم باشا على سوريا _ الشام :

أظهر محمد علي اهتمامه ببلاد الشام منذ لجوء الأمير بشير الثاني ووالي صيدا عبد الله باشا إليه خوفاً من غضب السلطان، وتوسط لهما وأعادهما للحكم.وكان محمد علي يهدف للتوسع في

---

(١) _ طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، ص٨٦-٨٧ .

(٢) _ عمارة، العروبة في العصر الحديث، الكتاب الثاني، ص١٤٠ .

(٣) _ طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، ص٨٩ .

(٤) _ رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، ص٢٩٨ .

(٥) _ الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص٢٦٥ .

(٦) _ طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، ص٨٧.

سوريا _ الشام لعدة أسباب اقتصادية وأمنية وسياسية. وسنبحث في أهم الأسباب الغير مباشرة لهذه الحملة :

_**الأسباب الاقتصادية:** تتعلق بإدراك محمد علي أن مصر وسوريا _ الشام تتكاملان اقتصادياً[١]. وطمعاً بالثروة الزراعية السورية التي تدر مالاً من قطن وحرير وتبغ، إضافة إلى الرغبة في الحصول على الخشب لأسطوله من الغابات السورية[٢]. كما أنَّ سوريا _ الشام بتعداد سكانها الذي يقدر بحوالي مليوني شخص تشكل مصدراً هاماً للرجال للاستفادة من طاقاتهم في العمل والإنتاج والجيش[٣].

_**الأسباب الأمنية:** لقد عمد محمد علي للتوسع في سوريا _ الشام من أجل حماية مصر من الأعداء ولاسيما من التهديد العثماني لذلك تعد حملته هجومية دفاعية في وقت واحد، لأن مصر عبارة عن سهل مفتوح دون تضاريس طبيعية صعبة تحميها. وتاريخياً كل من أراد إحكام السيطرة على مصر عليه السيطرة على سوريا _ الشام. كما أراد تأمين طرق التجارة بين جنوب سوريا ومصر وحمايتها من قطاع الطرق وهجمات البدو[٤].

_**أسباب تتعلق بطموحات محمد علي:** " التوسع بالملك والشام هي مفتاح كل مفتاح وفيها من العمران ما يوازي العناء في استصفائها، وبينها وبين سكان مصر ما لا ينكر محله" [٥]. وكان محمد علي يطمح لدولة عربية تشمل مصر والسودان وشبه الجزيرة العربية وبلاد الشام وكان يطلق عليها اسم عربستان[٦].

بيد أنَّ بعض المؤرخين رأى في دوافع محمد علي لإقامة تلك الدولة إنمَّا تعود لتأثير ابنه (إبراهيم باشا) عليه لأنه كان يؤمن بالعروبة ويتحدث بلسان عربي، والبعض الآخر يعيد دوافعه إلى تشجيع حليفته فرنسا التي ترغب في بسط نفوذها على حساب منافستها الأولى بريطانيا[٧].

ولكنَّ دراسة خطوات محمد علي السابقة لحملته على سوريا _ الشام توضح إدراكه لأهمية مشروع الوحدة العربية النهضوي وأهميته في مواجهة المخاطر الخارجية الأوروبية والعثمانية. ودفعته إلى شن

---

(١) _ طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، ص٩٣ .

(٢) _ رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، ص٢٩٦ .

(٣) _ Khaled Fahmy, All Pasha's Men, The American University in Cairo Press, Prented in Egypt, 2002, p50-51 .

(٤) _ رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، ص٢٩٦ .

(٥) _ كردعلي، خطط الشام، ج٣، ص٥١ .

(٦) _ محمد غربال، محمد علي الكبير، مؤسسة هنداوي للنشر، القاهرة، ٢٠١٤، ص٩٣ .

(٧) _ الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص٢٤٦ .

حروبه في شبه الجزيرة العربية والسودان ورغبته في التوسع في الشمال الإفريقي وخصوصاً الجزائر لولا تدخل الاستعمار الفرنسي هناك[١].

إضافة إلى كل ما سبق كانت السياسة العثمانية والتراجع والضعف الذي أصاب السلطنة وبلغ ذروته عند احتلال فرنسا للجزائر عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م ولم تحرك ساكناً للقيام بواجبها لحماية الرابطة الإسلامية والمسلمين[٢].

أما بالنسبة للأسباب المباشرة للحملة فهي تتعلق باقتناع محمد علي باستحالة حصوله على ولاية سوريا _ الشام بطريقة شرعية من السلطان مقابل مساعدته له في حروب اليونان، ورفض السلطان طلبه مراراً لأنَّه يخشى اتساع نفوذه وقوته، رغم عرض محمد علي ستين ألف كيس سنوياً مقابل حكم سوريا _ الشام[٣].

لذلك اتَّخذ محمد علي قراره بأن يأخذها عنوة، وأن يخوض حرباً لأول مرة ضد السلطان وليس معه. ولعل الشرارة الأولى لحملة إبراهيم باشا على سوريا _ الشام كانت عندما رفض والي صيدا عبدالله باشا أن يعيد الفلاحين المصريين الذين هربوا من التجنيد والضرائب إلى غزة والبالغ عددهم ستة آلاف، محتجاً بدعوة أن أرض البلدين تعود لسلطان واحد[٤]. إضافة إلى قيام والي صيدا أيضاً بمصادرة بضائع تجار مصريين بحجة أنها تعود لتجار من نابلس. مما أثار غضب محمد علي وهو الذي أعاده إلى ولاية صيدا ودفع عنه الغرامة المالية للسلطان[٥].

واستغل محمد علي الظروف الدولية المناسبة، حيث كانت دول أوروبا منشغلة بأمورها الداخلية، ولاسيما بريطانيا التي كانت مهتمة بالإصلاح الداخلي، خوفاً من اندلاع الثورات فيها مثل فرنسا عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م كما شغلت فرنسا باحتلال الجزائر، بينما نجد إمبراطورية النمسا مهددة بثورة في بولونيا[٦].

أما فيما يخص السلطنة العثمانية، فقد كانت تعاني من ضعف شديد بعد قضاء السلطان محمود الثاني عام ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م على الانكشارية وسعيه لتشكيل جيش جديد على النمط الأوروبي، وتحطيم الأسطول العثماني في معركة " نفارين "[٧]. وبالمقابل فإن أوضاع مصر الداخلية كانت مواتية

---

(١) _ الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص٢٦٤ .

(٢) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث(بلاد الشام والعراق) ص٣٣٧ .

(٣) _ داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتحه الشام ١٨٣٢م، مؤسسة هنداوي للنشر، القاهرة، ٢٠١٤، ص٢٢ .

(٤) _ كردعلي، خطط الشام، ج٣، ص٥١ .

(٥) _ العطار، تاريخ سورية في العصر الحديث، ص١٥٩ .

(٦) _ رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، ص٢٩٧ .

(٧) _ عامر، تاريخ الدولة العثمانية(سياسية اجتماعية)، ص٣٠٢ .

مواتية حيث استطاع محمد علي إعادة بناء أسطوله بعد حرب اليونان، وبلغت مصانعه الحربية أقصى إنتاجها، وكانت سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م سنة جيدة زراعياً حيث بلغ محصول القطن أعلى إنتاج له[١].

في حين كانت أوضاع سوريا _ الشام متردية أمنياً واقتصادياً وكثرة الفتن والثورات فيها، مثل ثورة نابلس وثورة دمشق التي انتهت بقتل الوالي من قبل السكان عام ١٨٣١ .

ب_ مجريات حملة إبراهيم باشا على سوريا _ الشام وبداية دولة محمد علي سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م :

تحرك الجيش المصري براً وبحراً، بقيادة إبراهيم باشا إلى سوريا _ الشام في ٢٩ تشرين الأول سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م، وكان يقاتل ضد القوات المملوكية بقيادة الوالي المملوكي عبدالله باشا وضد القوات العثمانية[٢]. دون أن يحارب أي قوة عربية بل على العكس كانت أخباره الجيدة عاملاً مهماً في حربه هذه حيث تلهف العرب لقائد يخلصهم من ظلم العثمانيين وولاتهم، ونال بذلك تعاطف السوريين معه[٣]، وهو القائد الذي يفتخر بالعرب وانتمائه لهم .

فإن كان هناك من يشكك بنوايا محمد علي لإقامة دولة عربية، فإن ابنه إبراهيم كان واضحاً في هذا عندما سُئل بعد وصوله أسوار عكا في بداية حملته إلى أين ستصل بفتوحاتك أجاب: "إلى مدى ما يتكلم الناس وأتفاهم وإياهم باللسان العربي". وكان إبراهيم باشا في منشوراته ومخاطبة جنوده يركز على إعادة إحياء الأمة العربية وتراثها وإعطاء العرب حقوقهم، وقد سأله أحد جنوده كيف يطعن بالأتراك وهو منهم فقال على الفور: "أنا لست تركياً، جئت مصر صبياً، ومنذ ذلك الحين قد مصَّرتني شمسها، وغيرت دمي، وجعلته دماً عربياً"[٤].

ونتيجة لهذه الأقوال والأفعال استقبل أهالي سوريا _ الشام قوات إبراهيم باشا بالزغاريد والحفاوة[٥]. والحفاوة[٥]. وهو من أمر جنوده بإطلاق النار في الهواء بدلاً من تصويبها على سكان دمشق مباشرة فأدى ذلك لاستقطاب الناس حوله[٦]. وفي مقابل الدعاية الحربية النفسية لحملة إبراهيم باشا، حاول العثمانيون سحب الشرعية من محمد علي وإبراهيم حيث أصدر المجلس الشرعي العثماني في ٢٧ نيسان ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م فتوى تقضي بتجريدهما من جميع المناصب والرتب الممنوحة لهما من

---

(١) _ رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، ص٢٩٨ .

(٢) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث(بلاد الشام والعراق)، ص٣٤٠ .

(٣) _ William Miller, The Ottoman Empire and It's Successors 1801-1927, Published by Frank Gass and Coltd, New York, 1966, p146 .

(٤) _ عبدالرحمن الرفاعي، عصر محمد علي، دار الكتاب للنشر، القاهرة، ١٩٨٩، ص٢١٩-٢٢٠ .

(٥) _ الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص٢٦٥ .

(٦) _ كردعلي، خطط الشام، ج٣، ص٥٢ .

السلطان وذلك لخروجهما عن طاعته، وأصدر السلطان أمراً بتعيين (حسن باشا) حاكماً على مصر[١].

ومن الناحية العسكرية كانت الحملة مؤلفة من ستة آليات من المشاة وأربعة من الفرسان، وكان الجيش المصري أول جيش مشرقي سار على النظام الحديث إذ بلغ تعداده نحو مئة ألف مقاتل[٢] وانطلق إبراهيم باشا على رأس أسطوله حتَّى يافا ففتحت أبوابها له مثل ما فتحت القدس ونابلس أبوابها دون قتال، وفي ذلك الحين حاصرت القوات البرية مدينة عكا ذات الأهمية المعنوية والعسكرية، وهي التي هُزم نابليون على أسوارها، حصاراً برياً وبحرياً في تشرين الثاني ١٢٤٧هـ/١٨٣١م لمدة سبعة أشهر[٣].

وفي أثناء الحصار أرسل محمد علي إلى حاكم جبل لبنان (بشير الثاني) لمساعدة إبراهيم باشا مهدداً إيَّاه بالعقاب إذا لم يستجب، وانحاز الأمير للقوات المصرية وانطلق على رأس جنوده إلى عكا وقد منحه محمد علي ولاية صيدا مكافأة له. وهذا ما أخاف خصومه الدروز ودفعهم للانضمام إلى الصف العثماني، وقد تمَّ فتح عكا في شهر أيار ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م واستسلم واليها عبدالله باشا[٤].

وتوجه إبراهيم باشا بعدها إلى دمشق حيث أمر جنوده بعدم استهداف سكانها بالنيران ودخلها دون مقاومة تذكر، ثمَّ اتَّجه إلى حمص بصحبة الأمير بشير وسحق القوات العثمانية فيها، وتابع مسيره شمالاً حتى دخل حلب التي رفض أهلها تزويد الجيش العثماني بالمؤن[٥]. وتمركزت القوات التركية بقيادة حسين باشا في مضيق (بيلان) حيث ألحق الجيش المصري الهزيمة بالأتراك. ولقد طلب محمد علي من ابنه إبراهيم التريث وعرض الصلح على السلطان الذي رفضه وهكذا دخل إبراهيم باشا (أضنة) وانتصر على الجيش العثماني في (قونية) ومن ثمَّ انتصر في (كوتاهية) وهدد (بورصة) وهكذا أصبح طريق العاصمة استانبول مفتوحاً أمام القوات المصرية[٦].

وهنا شعر السلطان بالخطر الذي يتهدد دولته ووجودها، خصوصاً بعد يأسه من مساعدة بريطانيا له[٧]. فجمع أعوانه ووزراءه وقرروا جميعاً ضرورة التفاهم مع محمد علي، وتدخلت روسيا وأرسلت سفنها لمساعدة السلطان[٨]. وهذا ما أقلق الدول الأوروبية على مصالحها في السلطنة، فتحولت

---

(١) _ العطار، تاريخ سوريا في العصور الحديثة، ص١٦٢-١٦٣ .

(٢) _ بركات، البطل الفاتح إبراهيم وفتحه الشام ١٨٣٢، ص٢٥ .

(٣) _ كردعلي، خطط الشام، ج٣، ص٥٢ .

(٤) _ بركات، البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتحه الشام ١٨٣٢، ص٢٨ .

(٥) _ رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، ص٣٠ .

(٦) _ العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ص١٦٤-١٦٥ .

(٧) _ بركات، البطل الفاتح إبراهيم وفتحه الشام ١٨٣٢، ص٨٩ .

(٨) _ بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٥٤٦ .

المسألة السورية من صراع بين القوات المصرية والعثمانية إلى مسألة دولية تدخلت فيها القوى الأوروبية الكبرى .

ج_ تدويل المسألة السورية ومواقف الدول الأوروبية منها :

اختلفت مواقف الدول الأوروبية من توسع محمد علي في أراضي السلطنة العثمانية فكانت فرنسا حليفته ومشجعة له، وتعتبر أن توسع محمد علي امتداداً لنفوذها على حساب عدوتها بريطانيا[١].

أما بريطانيا كانت تدرك خطورة محمد علي على مصالحها في السلطنة العثمانية، وعلى طريق الهند، لكنها لم تتدخل في المرحلة الأولى بسبب انشغالها بمشاكل بلجيكا واستقلالها عن هولندا. وبسبب عدم رغبتها بمواجهة جديدة مع فرنسا حليفة محمد علي[٢]. وخشيتها من تقسيم السلطنة العثمانية وحصول روسيا على أجزاء هامة منها ووصولها إلى البحار الدافئة. لذلك لم يبق أمام السلطنة سوى الاستنجاد بعدوتها التقليدية روسيا التي أرسلت سفنها إلى مضيق البوسفور، وعبر عن ذلك السلطان العثماني محمود الثاني بقوله: "الغرقان يستنجد بالثعبان"[٣].

وتحركت كل من فرنسا وبريطانيا لدى محمد علي لتسوية الأوضاع مع السلطان وأبرمت اتفاقية (كوتاهية) في ٣ أيار ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م، حيث تمَّ بموجبها انسحاب إبراهيم باشا من الأناضول ما عدا ولاية أضنة[٤]. وهكذا حاز محمد علي وابنه على ولاية مصر والسودان والحجاز وسوريا _ الشام وأضنة .

وانسحبت السفن الروسية من البوسفور، بعدما حقَّقت نصراً دبلوماسياً هاماً، انتهى بتوقيع الاتفاقية الدفاعية (هنكار اسكله سي) الروسية _ العثمانية في ٨ تموز ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م. وبموجبها تعترف السلطنة بحق مرور السفن الحربية الروسية في المضائق، والتزام السلطنة بإغلاق المضائق في وجه أعداء روسيا. مقابل إرسال روسيا جيشاً للدفاع عن السلطنة في حالة الحرب مع أي دولة أخرى. ومدة المعاهدة ثماني سنوات. أعطت هذه المعاهدة بعداً استراتيجياً كبيراً للأسطول الروسي القوي في البحر الأسود بالنسبة للأسطولين الفرنسي والبريطاني في شرق البحر المتوسط. وشعرت بريطانيا بتهديد روسي حقيقي لمصالحها. واعتبرت بريطانيا محمد علي هو الذي أزّم الأوضاع ورمى السلطنة

---

(١) _ قاسم سمحات، محمد علي والمشروع الفرنسي في بلاد الشام ١٨٠٤-١٨٥٠، مكتبة بستان المعرفة للنشر، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٢٠٦ .

(٢) _ محمد، أبوجبل، تاريخ الوطن العربي الحديث(بلاد الشام والعراق)، ص٣٤٦ .

(٣) _ أزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مجلد ثاني، ص١٧ .

(٤) _ بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٥٤٨ .

العثمانية في أحضان روسيا. ولهذا بدأت بريطانيا بتهديد محمد علي والضغط عليه للتراجع وبالتالي إضعاف التدخل الروسي[١].

٣_ الواقع السياسي في سوريا _ الشام وإنجازات دولة محمد علي السياسية ونتائجها بين أعوام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م _ ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م :

اعتبر كل من الطرفين السلطان العثماني ومحمد علي أن معاهدة (كوتاهية) ليست سوى هدنة حرب وأدرك الأخير أن السلطنة سوف تنقض هذه المعاهدة في أول فرصة سانحة لها وتعيد ما أخذ منها عنوة[٢]. ولذلك ركز محمد علي وابنه إبراهيم باشا على توطيد السلطة في سوريا _ الشام وبناء دولة حديثة تواجه التحديات الخارجية وسوف نستعرض أهم الإنجازات السياسية .

أ_ الواقع السياسي في سوريا _ الشام وأهم الإنجازات السياسية لحكم محمد علي فيها :

١"_ الإنجاز الإداري :

كان أهم إنجاز توحيد سوريا _ الشام في دولة واحدة باسم عربستان بعد أن كانت مقسمة إلى ولايات منفصلة، وكان مركزها دمشق وحاكمها (إبراهيم باشا)، ثم عين محمد علي حاكماً مدنياً عليها هو (شريف باشا)، وترك للأمير بشير الشهابي إدارة لبنان وساحله كونه حليفاً وشريكاً في الانتصار. واختار إبراهيم باشا أنطاكية مقراً له لمراقبة تحركات ومكائد السلطنة العثمانية عن كثب. ثم عمد محمد علي إلى تقسيم سوريا إلى ست مديريات هي : دمشق_الشام وأضنة وحلب وصيدا وطرابلس الشام ويافا[٣]. ويذكر كردعلي أن "من أول أعمال إبراهيم باشا الجليلة في الديار الشامية ترتيب المجالس الملكية والعسكرية، وإقامة مجلس الشورى"[٤]، والتي ضمت أناس من مختلف المذاهب، وجعل قراراتهم نافذة[٥]. كما طلب محمد علي من شريف باشا استخدام أهل سوريا _ الشام في شغل الوظائف الإدارية ومنها وظائف المتسلمين لأنهم يعرفون البلد وتقاليد سكانها[٦].

---

(١) _ جورج خوري، المصالح الاستعمارية البريطانية والحفاظ على الإمبراطورية العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العددان ٤١-٤٢ آذار – حزيران، ١٩٩٢، ص٩٤-٩٥ .

(٢) _ بركات، البطل الفاتح إبراهيم وفتحه الشام ١٨٣٢م، ص١١٣ .

(٣) _ محمد، وقفة جديدة عند سوريا _ الشام في عهد دولة محمد علي، ص١٨٥ .

(٤) _ كردعلي، خطط الشام، ج٣، ص٥٧ .

(٥) _ بركات، البطل الفاتح إبراهيم وفتحه الشام ١٨٣٢م، ص١١٦ .

(٦) _ بني هاني، تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري، ص٨٩ .

وكانت أهم المشاكل التي تواجه الإدارة المصرية في الشام هي انتشار الرشوة بين موظفي الجهاز العثماني السابق، لذلك كانت الإدارة تنزل أقسى العقوبات بحق المرتشين ومختلسي الأموال من الدولة[١].

٢"_ إصلاح القضاء :

كان القضاء فاسداً زمن الحكم العثماني ، حيث كان السلطان يعين المفتي الذي يقوم باختيار القضاة في كثير من الأحيان على أساس من يدفع أكثر. فعمد إبراهيم باشا إلى إصلاح القضاء على النمط الفرنسي حيث أصبحت الدعاوى تقدم إلى الحاكم الذي يحيلها إلى المحكمة، وكانت القضايا الدينية والشخصية تحال إلى القاضي الشرعي. أما قضايا الضرائب والتجارة فهي من اختصاص ديوان المشورة، وكان بالإمكان استئناف الأحكام لدى قاضي القضاة، كما خصصت رواتب ثابتة للقضاة من خزينة الدولة بعد أن كانت أجورهم تستوفى من رسوم القضايا. ويعد أهم إنجاز لإبراهيم باشا إطلاقه الحرية الدينية، والتأكيد على مساواة جميع المواطنين أمام القانون، وألغى الفروق بين الطوائف، ورفع القيود عن المسيحين كارتدائهم الملابس الزرقاء والسوداء لتمييزهم عن المسلمين و ولاهم الوظائف الحكومية [٢].

٣"_ الاهتمام بالتعليم والبحث العلمي:

افتتحت المدارس بكثرة بتوجيه من الحكومة المصرية أو من قبل الإرساليات التبشيرية. وأنشأ عدداً من المدارس وأرسل بعضهم لإكمال تعليمهم العالي في مصر، وعمل على تطوير البحث العلمي[٣].

٤"_ تأسيس جيش وطني :

رغب محمد علي في بناء جيش من أبناء سوريا _ الشام، بعيداً عن الطائفية والمعتقدات الدينية، كما أنه اهتمَّ بإنشاء أسطول بحري لحماية سواحل سوريا _ الشام من أعدائها الكثر[٤].

٥"_ وضع أول نظام جدّي لإدارة الضرائب وجبايتها :

قام محمد علي بإلغاء الإقطاع العسكري، وفرض ضريبة على كل فرد بما يتناسب مع ثروته[٥]. وعمل بعلميَّة وجديَّة على زيادة وتطوير رأس المال الوطني فانتعشت البرجوازية العربية[٦].

---

(١) _ بني هاني، تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري، ص٩٢ .

(٢) _ العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ص١٦٨ .

(٣) _ المرجع نفسه، ص١٦٩ .

(٤) _ محمد، وقفة جديدة عند سوريا _ الشام في عهد دولة محمد علي، ص١٨٤ .

(٥) _ المرجع نفسه، ص١٨٧ .

(٦) _ عمارة، العروبة في العصر الحديث، الكتاب الثاني، ص١٤٨.

ولكن طموحات محمد علي وابنه إبراهيم بالإصلاح واجهت العديد من الصعوبات أولها يتعلق في الافتقار إلى رجال الدولة الوطنين والمدربين، حيث سيطر الفساد منذ قرون على الجهاز الحكومي العثماني، واعتاد الموظفون سلوك طرق ملتوية بالية في تسيير شؤون الدولة والسكان[١]. وثانيها انخفاض دخل البلاد نتيجة الحروب التي خاضتها، وكثرة نفقات الجيش من جهة، والحاجة إلى الجنود بسبب تحركات السلطنة العسكرية على الحدود من جهة ثانية، مما دفع محمد علي إلى البحث عن الموارد المالية من خلال القروض، وقد حاولت فرنسا استغلال الوضع، وعرضت عليه قرضاً طويل الأمد عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م مقابل ضمانات لربط دولة محمد علي بمصالح فرنسا[٢]. لكنّه رفض طلب حليفته، وإن دلَّ ذلك على شيء إنمّا يدل على حرص محمد علي على استقلال دولته وقرارها الداخلي. ولم يبق أمامه سوى فرض المزيد من الضرائب، والاحتكار التجاري، وتجنيد السكان، لمواجهة متطلبات دولتهم الحديثة. لكن سوريا _ الشام شهدت العديد من الثورات ضد الحكم المصري منذ عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م .

ب_ الثورات في سوريا _ الشام ضد الحكم المصري :

أكد المؤرخون على الابتهاج الذي عمَّ سكان سوريا _ الشام إبان دخول القوات المصرية إليها. حتّى أنَّ السفير البريطاني (غيز) لم يستطع تجاهل مشاعر الفرح لدى السكان عند دخول إبراهيم باشا البلاد حيث ذكر في كتابه " إنَّ الغبطة التي شعر بها أبناء سورية عندما احتلَّ المصريون هذا البلد لم تعمر طويلاً "[٣]. وإذا كان البريطاني (غيز) يعتبر القوات المصرية احتلال فإن كثير من الثورات التي اندلعت كانت ثورات وطنية ضد قرارات وسياسة الحكومة المصرية لا ضدَّ الحكم نفسه، باستثناء ثورة الدروز الجنبلاطيين عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م الذين تحالفوا مع القوات العثمانية ضد الشهابيين وحكمهم الظالم[٤].

وكانت الثورات التي قامت بين أعوام ١٢٥٠هـ/١٨٣٣م و ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م موزعة بين ثلاث فئات من الشعب هي :

الفئة الأولى: هي فئة الفلاحين والفقراء في جبال العلويين، وطرابلس، وعكا وصافيتا والحصن وكانت ثوراتهم موجهة بالتحديد ضد بعض الأمراء الإقطاعيين الملتزمين الذين بقوا في مناصبهم، وأعلنوا ولائهم لإبراهيم باشا واعتمد عليهم في تحصيل الضرائب، وسوق المواطنين إلى التجنيد

---

(١) _ العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ص١٧٠ .

(٢) _ بركات، البطل الفاتح إبراهيم وفتحه الشام عام ١٨٣٢م، ص١١٩-١٢٠ .

(٣) _ هنري غيز، بيروت ولبنان منذ قرن ونصف، ترجمة مارون عبود، مؤسسة هنداوي للنشر، القاهرة، ٢٠١٤، ص٣٤٤ .

(٤) _ محمد، وقفة جديدة عند سوريا _ الشام في عهد دولة محمد علي، ص١٨٩ .

الإجباري، وقد تكررت ثورات هذه الفئة حتّى قام إبراهيم باشا بمعرفة أسبابها فعزل (مصطفى بربر) وخفَّف الضرائب[١].

الفئة الثانية: ضمت فئات شعبية من جنوب فلسطين، ولاسيما يافا ونابلس والقدس، ومن جنوب سوريا. وكانت أسباب هذه الثورات الاحتجاج على ضريبة(الفردة)[٢]، والتجنيد الإجباري الذي لم يألفوه من قبل لأنهم لم ينضموا إلى السلك العثماني العسكري سابقاً. إضافة إلى احتجاجهم على الأمر الصادر بنزع السلاح من الجميع. وعندما حاول إبراهيم باشا إخماد هذه الثورات حوصر في القدس وأسرع والده محمد علي على رأس جيش لفك حصاره[٣].

الفئة الثالثة: تمثل الاضطرابات التي قام بها بعض كبار تجار دمشق وحلب وبيروت وغيرها، رفضاً لسياسة الاحتكار التي تتبعها الحكومة المصرية وتضرّ بمصالحهم[٤].

ويمكن إرجاع هذه الثورات بشكل عام إلى سوء التفاهم بين الحكومة المصرية وحاجات الشعب من جهة وإلى التزامات الحكومة المصرية الملحة من جهة أخرى. حيث كان إبراهيم باشا غير راضٍ عن كثرة الضرائب المفروضة على الشعب. إلاّ أنَّ الإدارة في القاهرة كانت تصرّ على هذه الضرائب، وذلك لافتقارها للأموال اللازمة للإنفاق في سوريا _ الشام. كما أنَّ الإدارة المصرية كانت تسعى إلى التغيير والإصلاح، وإيجاد جيش وطني بسرعة غير مدركة أنَّ السكان اعتادوا نمط الحكم العثماني منذ مئات السنين، ويتطلب الإصلاح وقتاً طويلاً[٥] .

أما بالنسبة للثورات المضادة لوجود الحكم المصري أو ما يمكن تسميتها بالثورات العميلة لأنها لم تقم من تلقاء نفسها، بل كانت نتيجة تحريض خارجي من السلطنة العثمانية وبريطانيا اللتان دأبتا على استمالة المشايخ والزعماء التقليديين بالأموال والوعود بالمناصب[٦]. فقد كانت هذه الثورات تهدف إلى الإطاحة بالحكم المصري وإعادة الحكم العثماني. وكما يؤكد كردعلي على أنَّ "الأمراء والمشايخ

---

(١) _ محمد، وقفة جديدة عند سوريا _ الشام في عهد دولة محمد علي، ص١٨٩.

(٢) _ الفردة: هي ضريبة يدفعها كل رجل من سن الخامسة عشر إلى سن الستين، أقلها قيمة خمسة عشر قرشاً على الفقير، وأعلاها قيمة خمسمائة قرش على الغني وكانت تحصل على سنتين. أنظر داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص١٢٠ .

(٣) _ مؤلف مجهول، مذكرات تاريخية من حملة إبراهيم باشا على سوريا، تحقيق أحمد سبانو، دار قتيبة للنشر، دمشق، ١٩٨٢، ص٧٥-٧٦ .

(٤) _ محمد، وقفة جديدة عند سوريا _ الشام في عهد دولة محمد علي، ص١٩٠ .

(٥) _ حنا، ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري، مجلد ٣، ص١٢٧.

(٦) _ كردعلي، خطط الشام، ج٣، ص٦٣ .

وأرباب النفوذ اشتغلوا ضد الدولة المصرية، وتمنوا رجوع العثمانيين ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية يمتص دماء الضعفاء"[١].

ومن أهم هذه التحركات، تلك التي قام بها بعض الزعامات الإقطاعيّة المارونية والدرزية ضد الحكم المصري عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م، حتّى أن الأمير بشير الشهابي كان في الظاهر مع الحكم المصري ولكنَّه كان يراقب الأوضاع ليقف مع الجانب الأقوى الذي يضمن له ولايته[٢].

وعملت بريطانيا أيضاً على مراقبة الأوضاع عن كثب، فقامت عام ١٢٥١هـ/١٨٣٥م بإرسال جاسوس بريطاني إلى بيروت، كان يعمل في السفارة البريطانية في استانبول، ويذكر الكاتب (ميخائيل مشاقة) في كتابه "فجاءها جاسوس من قبل الدولة السكسونية ونزل في كسروان واسمه الحقيقي وود"[٣]. وكانت مهمته إثارة الفتن والقلاقل بهدف زعزعة الحكم المصري وتقويضه، وإبعاد بشير الشهابي عن محمد علي وإيقاع الخلاف بين الحليفين، ومحاولة إبعاد الموارنة عن حليفهم فرنسا، وتشجيع الدروز على الثورة في عام ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م[٤].

ومن أخطر تحركات السياسة البريطانية في تلك الفترة، هي دعمها للحركة اليهودية وتوظيفها لمصلحتها من أجل تنظيم المعارضة ضد الحكم المصري من جهة، وتثبيت اليهود في فلسطين دعماً لأطماعها الاستعمارية في المنطقة وتوطيداً لنفوذها وعرقلة إمكانية قيام دولة عربية موحدة من جهة أخرى، وفي عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م عينت أول قنصل لها في القدس، وحثت السلطان العثماني على السماح بالهجرة اليهودية إلى فلسطين بما يعود بالموارد على السلطنة من الثروة التي يحملونها[٥].

ولقد نجحت بريطانيا في مساعيها بالمشاركة مع السلطنة العثمانية والقوى الرجعية في تحقيق أهدافها من الثورات وإخراج محمد علي من سوريا _ الشام عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م. وبالرغم من فترة الحكم المصري القصيرة فقد تركت نتائج سياسية هامة .

ج_ أهم النتائج السياسية للحكم المصري في سوريا _ الشام :

١"_ المساهمة في اليقظة العربية من خلال دعوة إبراهيم باشا إلى ضرورة إحياء الأمة العربية وأمجادها، لذلك عمل إبراهيم باشا على تحقيق النهضة في المجالات الإدارية والاقتصادية والقانونية

---

(١) _ كردعلي، خطط الشام، ج٣، ص٥٧ .

(٢) _ المصدر نفسه، ص٦٥ .

(٣) _ ميخائيل مشاقة، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، نشره ملحم عبده وأندراوس شخاشيري، القاهرة، ١٩٠٨، ص١٢٦ .

(٤) _ عبدالعزيز عمر، تاريخ لبنان الحديث ١٥١٦-١٩١٥، ص١٠١-١٠٢ .

(٥) _ عمارة، العروبة في العصر الحديث، الكتاب الثاني، ص١٨١-١٨٢ .

والتعليمية كافة، كما استطاعت المدارس التي أنشأها في سوريا _ الشام ومدارس البعثات التبشيرية التي زاد نشاطها في عهده أن تسهم في إحياء اللغة العربية لتعود وسيلة للتعبير عن الفكر[١].

٢"_ انكشاف التآمر الدولي ضد القومية والوحدة العربية، والارتباط بين مصالح أوروبا والقوى الإقطاعيّة والزعامات الإقطاعيّة واليهود الناشطين في المنطقة[٢].

٣"_ سقوط الرابطة العثمانية، حيث ظهر السلطان بمظهر المتآمر مع أوروبا ضد الدولة العربية الإسلامية وسقطت هيبته كحامي للرعية، وساهمت فكرة التسامح الديني والمساواة أمام القانون التي أوجدتها حكومة محمد علي في تعزيز التآخي بين الطوائف، والنظر للجميع كمواطنين[٣].

٤"_ كان قيام الحكومة المصرية في سوريا _ الشام والإصلاحات الشاملة التي قامت بها خلال فترة قصيرة، فرصة للمقارنة بينها وبين الحكم العثماني الذي رغم طول أمده لم يجدد أو يغير في سياسته المستبدة البالية. وأظهرت للسكان قدرة العرب على حكم أنفسهم دون وصاية إسلامية عثمانية[٤]. وكما قال المؤرخ كردعلي: " أثبتت حكومة محمد علي في فتوحاتها أن المصري بل العربي إذا تهيَّأ له زعيمٌ عاقل لا يقل عن الغربيين في سيرته وجلادته ، وأنه لم يضره في القرون الماضية إلا فناؤه في الحكومة التركية"، وذكر أيضاً " كانت حسنات حكومة محمد علي في الشام أكثر من سيئاتها" [٥].

ثانياً): تأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية في تطور الواقع الاقتصادي لسوريا _ الشام في فترة حكم دولة محمد علي باشا منذ بدايتها عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م وحتى نهايتها عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م :

١_ تأثير متطلبات السياسة البريطانية الاقتصادية في هذه الفترة(١٨٣١-١٨٤١)

والتحالف البريطاني_العثماني ضد دولة محمد علي العربية: معاهدة بلطة ليمان:

أ_ تأثير متطلبات السياسة البريطانية الاقتصادية في هذه الفترة(١٨٣١-١٨٤١) :

ارتقت بريطانيا إلى صدارة الرأسمالية الغربية، بفضل ثورتها الصناعيّة وأخذت دور المركز والزعامة في النظام الغربي الرأسمالي الاستعماري العالمي. وكانت سياستها الخارجية تهدف إلى استمرار هذا التفوق الرأسمالي الصناعي، عبر تأمين حاجات ثورتها الصناعيّة من مواد أولية وأسواق

---

(١) _ جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٩، ص١٠٢-١٠٣ .

(٢) _ محمد، وقفة جديدة عند سوريا _ الشام في عهد دولة محمد علي، ص٢٠٧ .

(٣) _ رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، ص٣٠٥ .

(٤) _ الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص٢٧٢ .

(٥) _ كردعلي، خطط الشام، ج٣، ص ٦٧-٦٨.

تصريف وحماية طرق تجارتها الدولية. لكن سياستها تلك اصطدمت بمحاولة محمد علي بناء دولة عربية في آسيا وإفريقيا. ففي عام ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م حاول محمد علي التوسع في أراضي السودان ومعاقبة المتمردين فتلقى إنذاراً من بريطانيا تذكره بمناطق نفوذها هناك، وحمايتها للملكة المسيحية الوحيدة هناك أيّ الحبشة. وعندما أراد التوسع باتجاه العراق انتبه وزير الخارجية البريطاني (بالمرستون) إلى هذا وصرح أنَّ حكومة جلالة الملكة تخشى من نوايا مصر بسط سلطتها على الخليج الفارسي وولاية بغداد، وهذا ما لا تستطيع بريطانيا تجاهله[١]، ولكي تقطع الطريق على محمد علي حاولت بريطانيا القيام بمشروع الملاحة في نهري الفرات ودجلة، وهذا ما سمح لها بتثبيت نقاط عسكرية لحماية قواربها في المنطقة[٢]. وتوثق لنا رسالة هامة عام ١٢٥١هـ/١٨٣٥م من إبراهيم باشا إلى والده محمد علي تبحث في موضوع بعثة الفرات البريطانية ويوضح قلة ثقته بالأستانة، ومخاوفه من روسيا وبريطانيا، وأنَّه كان يخشى أن تكون البعثة مقدمة لعمل عسكري عظيم ضد دولة محمد علي[٣].

وممَّا أغضب بريطانيا أيضاً تساهل محمد علي مع قيام الدولة السعودية الثانية، التي استطاع السيطرة عليها من خلال الأمير خالد، وقيامه برفض صعود السفن البريطانية القادمة من الهند إلى ميناء جدة في البحر الاحمر، مما دفعها إلى تعزيز موقعها في بحر العرب والبحر الأحمر باحتلالها عدن عام ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م ثم احتلال جزيرة (الخرج) لتقوية نفوذها في البصرة سنة ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م[٤].

ب_ التحالف البريطاني _ العثماني ضد دولة محمد علي العربية: معاهدة بلطة ليمان:

وجدت السلطنة العثمانية في بريطانيا أفضل حليف لها في ظل أطماع روسيا (العدو التقليدي للعثمانيين) وخصوصاً بعد اضطرارها لتوقيع اتفاقية (هنكار اسكه سي) التي فتحت المضائق أمام روسيا، ولذا فضَّل العثمانيون التحالف مع بريطانيا على التفاهم مع محمد علي، وهذا ما عبر عنه إبراهيم باشا في إحدى الرسائل التي بعثها لوالده، قائلاً على لسان العثمانيين_ : "إذا نحن اتفقنا مع الإنكليز بقيت لنا على الأقل بورصة واستانبول، ولا تتهدم السلطنة العثمانية، أما الاتفاق مع محمد علي فهو الفناء التّام"[٥].

---

(١) _ بركات، البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتحه الشام ١٨٣٢م، ص١٣٠ .

(٢) _ خوري، المصالح الاستعمارية البريطانية والحفاظ على الإمبراطورية العثمانية، ص٩٦ .

(٣) _ أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، أربعة مجلدات، المجلد الثالث طبعة ثانية، منشورات المكتبة البولسيّه، لبنان، ١٩٨٦، مجلد ثالث، محفظة عابدين٢٥١، رقم ٧، ص٢ .

(٤) _ محمد، وقفة جديدة عند سوريا _ الشام في عهد دولة محمد علي، ص١٩٧-١٩٨ .

(٥) _ بركات، البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتحه الشام ١٨٣٢م، ص١٢٨ .

ووجدت بريطانيا في التحالف مع السلطنة العثمانية ضالتها لمواجهة سياسة محمد علي الاقتصادية والتي شكلت تهديداً مباشراً على الاقتصاد البريطاني. لأن محمد علي أدرك بثاقب نظرة الخطرين الاقتصاديين المتلازمين التي غدت دولته العربية معرضة لهما وهما :

أولاً: خطر أن تتجاوزها الثورة الصناعيّة التي كانت تنطلق بكامل سرعتها في الغرب.

ثانياً: خطر الإبقاء في ظل هذه الظروف على سياسة الباب المفتوح مما يُعرّض اقتصاد دولته لخطر تعديات أوروبا وبريطانيا المنطلقة نحو التصنيع(١).

ولمواجهة هذين الخطرين اعتمد محمد علي الاقتصاد المخطط له القائم على سيطرة الدولة على الفائض المتاح من الإنتاج، وإنشاء قطاع دولة كبير، وخطة تصنيع طموحة. ومنذ منتصف ثلاثينيات القرن التاسع عشر بدأت بريطانيا تشعر أنَّ ثمَّة شيء يتغير في مناطق حكم دولة محمد علي لا يتفق مع الامتيازات التي تمتع بها في أنحاء الولايات العثمانية. وهذا يؤثر على الصناعة وعلى تدوير رأس المال البريطاني ممَّا يؤدي إلى انتكاسه خطيرة لاقتصادها. لذلك لجأت الحكومة البريطانية إلى وسيلة تجبر محمد علي على فتح الأسواق أمام منتجاتها عبر إبرامها معاهدة (بلطة ليمان) التجارية عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م نسبة إلى مكان عقدها بجانب استانبول(٢)، والمتضمنة البنود الآتية :

١"_ السماح لرعايا بريطانيا بالاتجار في المنتجات الزراعية والصناعيّة بأنفسهم، وفي جميع أنحاء السلطنة، بما في ذلك مصر والمناطق المتحدة معها في الشام أو السودان وذلك دون قيد أو شرط.

٢"_ إلغاء الحظر المفروض على تصدير السلع بمقتضى نظام الاحتكار الحكومي.

٣"_ يمتع رعايا بريطانيا بامتياز الدولة الأولى بالرعاية، بحيث تسري عليهم وفي الحال ودون مقابل أيَّة امتيازات تجاريَّة أو جمركية، تمنح لرعايا دولة أخرى.

٤"_ تحدد الضرائب على الواردات على أساس ٣% بالإضافة إلى ضريبة قدرها ٢% على تجارة التجزئة، وتلغى الضرائب الإضافية على الواردات.

٥"_ تحدد الضرائب على الصادرات ١٢% ، منها ٣% يدفعها المصدرون الأجانب(٣).

ومن خلال دراسة بسيطة لبنود هذه المعاهدة المجحفة ندرك مدى خطورتها اقتصادياً وسياسياً إذ فتحت أبواب السلطنة والولايات العربية أمام الرعايا البريطانيين ومنحتهم حرية التنقل والتجارة دون قيد أو شرط مما سهل لبريطانيا عملية التجسس في الوطن العربي وحماية نفوذها. كما ألغت الحماية

---

(١) _ عبدالمجيد راشد، الكارثة والوهم: مستقبل سياسة الإصلاح للاقتصاد بمصر في ظل نظام العولمة، نشر مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٧، ص٧ .

(٢) _ المرجع نفسه، ص١٢-١٣ .

(٣) _ عمارة، العروبة في العصر الحديث، ص١٧٧-١٧٨ .

الجمركية للبضائع المحلية عندما حددَّت الضرائب على الصادرات ١٢% في حين حددت ضرائب الواردات ٣% فقط[١]، لأنه وفق المعاهدة تمّ إعفاء التجار الأوروبيين من دفع الضرائب على البضائع المنقولة ضمن أراضي السلطنة والتي كانت تبلغ ٨% في حين استمر التجار المحليون في دفعها[٢].

وبالتالي كانت اتفاقية (بلطة ليمان) وسيلة لدمج اقتصاد المنطقة العربية في الاقتصاد الأوروبي ولاسيما البريطاني الذي كان يتوسع باستمرار، وبموجب هذه الاتفاقية اختلَّ الميزان التجاري السوري بين سوريا _ الشام وأوروبا، واستمرّ الوضع كذلك حتّى نهاية القرن التاسع عشر[٣].

وبالنسبة لموقف السلطنة العثمانية من الاتفاقية، كانت تدرك مدى خطورتها كونها تجعل من السلطنة العثمانية سوقاً مريحاً ومربحاً للبريطانيين، غير أن عدوة السلطان وخوفه من محمد علي دفعه إلى ذلك، لأن محمد علي كان يجمع ٦٠% من إيرادات جيشه وأسطوله من الضرائب التي جاءت الاتفاقية لتمنع جبايتها، وهذا ما سيضعف الدولة المصرية اقتصادياً ويعيق بناء قوتها العسكرية[٤].

أما موقف محمد علي فكان واضحاً حيث رفض تنفيذ بنود هذه الاتفاقية في دولته[٥]. مدركاً المضمون القاتل لهذه الاتفاقية لأنها تستهدف الصناعة الوطنية، والتجارة الوطنية، وتجربة محمد علي الجديدة في بناء الدولة بشكل عام[٦]. وتقوض دعائم سياسته الاقتصادية التي بدأ عودها يشتد، فما كان من السلطان العثماني إلاّ أن أعطاه مهلة عام لتنفيذها، وفي آب عام ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م انتهت المهلة دون أن يتراجع محمد علي عن موقفه الرافض، فما كان من بريطانيا سوى تشكيل تحالف دولي للإيقاع به[٧]. وهكذا نلاحظ أن سياسة محمد علي الاقتصادية كانت السبب في التآمر البريطاني والدولي عليه، ولطالما كان الاقتصاد محركاً للسياسة .

---

(١) _ عمارة، العروبة في العصر الحديث، ص١٧٨-١٧٩ .

(٢) _ Sevket Pamuk , The Ottoman Empire and European Capitalism 1820 - 1913 , Cambridge University Press, London,1987, p20.

(٣) _ شيلشر، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ص٨١ .

(٤) _ أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الثاني، ص١٧-١٨ .

(٥) _ رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، ص٣٠٢ .

(٦) _ عمارة، العروبة في العصر الحديث، ص١٧٩ .

(٧) _ راشد، الكارثة والوهم: مستقبل سياسة الإصلاح للاقتصاد بمصر في ظل نظام العولمة، ص١٣ .

٢_ سياسة محمد علي باشا الاقتصادية ومتغيرات الواقع الاقتصادي لسوريا _ الشام وتأثيرات الثورة الصناعيّة البريطانية (١٢٤٧هـ/١٨٣١م _ ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م) :

أ_ الواقع الاقتصادي والتأثيرات على قوى الإنتاج وأدواته وعلاقاته في سوريا _ الشام في فترة حكم دولة محمد علي فيما بين (١٢٤٧هـ/١٨٣١م _ ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م) :

استعرضنا سابقاً قوى الإنتاج وأدواته وعلاقاته في فترة الاحتلال العثماني في سوريا _ الشام وكيف ساد النظام الإقطاعي وعلاقاته المفككة، والتي تشجع الاستبداد واستغلال الفلاحين. ومع بداية الحكم المصري في سوريا _ الشام تلقى الإقطاع ضربات قاسية فقد أزاحته السلطة العصرية الجديدة من مراكز النفوذ(١). حيث قضى الحكم المصري نهائياً على نظام الالتزام العثماني الذي كان فيه الملتزم يلتزم قرية واحدة أو أكثر ليدفع مبلغاً من المال إلى الوالي ويحتفظ بالباقي لنفسه. وهكذا ألغى الحكم المصري الوساطة بين الشعب والحكومة(٢). وبدأت تتصدع العلاقات الإقطاعيّة القديمة والقوى الرجعية المسيطرة على وسائل الإنتاج وأدواته سواء في الريف أو في المدن في سوريا _ الشام(٣)، لصالح قيام التجربة البرجوازية التي خطت بالمجتمع من النظام الإقطاعي إلى المجتمع الرأسمالي(٤). وقد بدأت تتكون طبقة برجوازية جديدة ظهرت في لبنان والساحل وامتدت بالتدريج إلى الداخل السوري، وعلى الرغم من أن هذه الطبقة ولدت ضعيفة نوعاً ما وكانت تابعة للغرب الرأسمالي، إلاّ أنها دفعت عجلة التطور الاقتصادي في البلاد والذي نما بقوة وخاصة بعد تشكل ونمو رأس المال الوطني السوري والمصري. وبدأت تظهر علاقات اقتصادية جديدة أدت إلى الانتقال من الاقتصاد الطبيعي ومعادلة سلعة بسلعة إلى المبادلة الجديدة (الرأسمالية) : سلعة _ نقود _ سلعة(٥). كما تطورت وسائل الإنتاج في المدن التي بدأت بإنشاء المعامل وخاصة في مجال إنتاج الحرير(٦).

إلاّ أن بريطانيا بمساعدة السلطنة العثمانية كانت تضع العراقيل في وجه إصلاحات دولة محمد علي التقدمية لبناء برجوازية وطنية، وعمدت إلى دس الدسائس، واستمالة رؤساء العشائر والزعامات الإقطاعيّة والأعيان(٧) الذين تضررت مصالحهم من الحكم المصري الجديد، لخلق الفتن والثورات. ونتيجة لواقع الفلاحين الغارقين في الأمية والجهل لم يدركوا أن التغيرات التي حدثت كانت لصالحهم

---

(١) _ عمارة، العروبة في العصر الحديث، ص١٤٩ .

(٢) _ عبدالعزيز عمر، تاريخ لبنان الحديث، ص٩٦ .

(٣) _ حنا، ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري، مجلد ٣، ص١٣٠ .

(٤) _ عمارة، العروبة في العصر الحديث، ص١٧ .

(٥) _ حنا، ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري، مجلد٣، ص١٣٠ .

(٦) _ سمحات، محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بلاد الشام ١٨٠٤-١٨٥٠، ص١٣٧ .

(٧) _ كردعلي، خطط الشام، ج٣، ص٦٣ .

وفي سبيل خلق ظروف عمل وواقع معاشي أفضل[١]، ثاروا ضد الحكم المصري، مما أسهم في نجاح جهود إعادة سوريا _ الشام إلى الحكم العثماني المتخلف من خلال التآمر وفرض الحصار الاقتصادي ضد هذا الحكم.

ب_ الواقع الاقتصادي والتأثيرات على الزراعة في سوريا _ الشام في فترة حكم دولة محمد علي فيما بين (١٢٤٧هـ/١٨٣١م _ ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م) :

مع دخول المصريين إلى سوريا _ الشام، حاولوا أن يزيدوا من إنتاجها الزراعي لما له من أهمية حيوية في زيادة دخل الحكومة والمزارعين وتحسين أحوالهم، مستفيدين من تجربة الإصلاح الزراعي في مصر[٢]. لذا اتَّخذت حكومة محمد علي عدة إجراءات لوقف انهيار الزراعة لما عانته زمن الحكم العثماني وذلك من خلال ضرب أصول الإقطاع العسكري والعمل على تحديد الضرائب المقرر جبايتها من خلال موظفين مختصين وبذلك تخلص الفلاح من الالتزامات الإضافية وأساليب النهب والأتاوات التي كان يفرضها الملتزمون عليهم[٣]. إضافة إلى فساد المرابين الذين كانوا يأخذون فوائد بمعدل يصل يصل إلى (١٠٠%) على القروض المقدمة للفلاحين[٤]. لذلك أنشأ إبراهيم باشا مصرفاً زراعياً لتسليف لتسليف المزارعين ما يساعدهم على تهيئة محصول زراعي أكبر، وتمَّ العمل على تنقية المياه الجارية من عينتاب إلى حلب وإكثارها وتجفيف مستنقعات الاسكندرية، وتمَّ استيراد أنواع النباتات والأشجار من أوروبا كما أدخلت زراعات جديدة إلى سوريا _ الشام[٥]. وقدمت الحكومة المصرية البذور، والمحاريث والدواب للحرث ونقل الفلاحين وحاربوا الآفات التي تصيب الزراعة حيث قام إبراهيم باشا بنفسه بحملات القضاء على يرقات الجراد الضارة[٦]. كما استخدم الجيش الوطني في تحسين الزراعة ومساعدة الفلاحين لدرء خطر الجراد في حوران[٧]. وعملت الدولة المصرية على حماية القرى من غزوات البدو التي سعت إلى توطينهم، وكانت تقوم بتخفيض الضرائب على الفلاحين الذين يقومون بإحياء الأراضي والمزارع المهملة[٨].

---

(١) _ حنا، ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري، مجلد٣، ص١٢٧ .

(٢) _ بني هاني، تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري، ص٩٥ .

(٣) _ حنا، ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري، مجلد٣، ص١٢٤ .

(٤) _ بني هاني، تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري، ٩٥ .

(٥) _ العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ص١٦٨ .

(٦) _ بني هاني، تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري، ص٩٦-٩٧ .

(٧) _ حنا، ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري، مجلد٣، ص١٢٤ .

(٨) _ نسكايا، الحركات الفلاحية في لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ص٧٣ .

قد اهتمَّ المصريون بالزراعات السلعية ذات الدخل المرتفع وخاصة الحرير والقطن والتبغ. فقد شجعت الفلاحين على زراعة ثلاث آلاف وسبعمئة شجرة توت جديدة في بيروت وطرابلس وصيدا[١]، مروراً باللاذقية وحلب حتى أنطاكية وكانت تمنح الفلاحين مقابل الاعتناء بشرانق دودة القز ربع الإنتاج من الحرير. إضافة إلى تشجيع زراعة القطن الذي احتكرت الحكومة المصرية إنتاجه بالكامل. كما زاد إنتاج الحبوب والذرة لإطعام الجيش. وتمَّت تجارب لزراعة النيلة وقصب السكر والبن في مناطق الساحل من سوريا _ الشام[٢]. كما شجع إبراهيم باشا زراعة الأشجار المنتجة للأخشاب للاستفادة منها في بناء الأسطول، وبالتالي أصبحت الزراعة موجهة لتلبية حاجات البلاد والاقتصاد[٣]. والاقتصاد[٣]. وكذلك جرى تحسين وتطوير الإنتاج الحيواني، وتمَّ استيراد أصناف من الأغنام الأوروبية الأوروبية من جزيرة كريت وإسبانيا لتربيتها في سوريا _ الشام، لكونها أغزر عطاءً في إنتاج الألبان. وتمَّ جلب أنواع من الأغنام ذات إنتاج وفير من الصوف، وقد ساعد على ذلك كلّه كثرة المراعي الشامية وملائمة المناخ، وتمَّ الاهتمام بتربية الدواجن التي استحضر لها خبراء من مصر، لزيادة إنتاجها[٤].

هذا الإصلاح الزراعي، واحتكار حكومة محمد علي للمحاصيل الزراعية النقدية لاستخدامها في بناء الاقتصاد، إضافة إلى تطوير النظام الجمركي لزيادة عائدات الصادرات الزراعية[٥]، أغضب بريطانيا التي اعتبرت ذلك تهديداً مباشراً لمصادر المواد الأولية اللازمة لصناعتها. وجعلها حريصة على توقيع اتفاقية (بلطة ليمان) مع السلطنة العثمانية لضمان استمرار صادرات المواد الزراعية إليها دون دفع ضرائب كبيرة عليها كما نصَّت عليها المعاهدة كما رأينا.

ومع عودة الحكم العثماني إلى سوريا _ الشام، حدث انكماش في مساحة الأراضي الزراعية عما كانت عليه أيام المصريين، نتيجة عودة هجمات البدو على القرى وفقدان الأمن[٦]. وأوقفت عودة السيادة العثمانية مخاض التطور الرأسمالي، ودعمت مجدداً القوى الإقطاعيّة في الزراعة، وعلى الرغم من ذلك صدّع الحكم المصري لسوري _ الشام خلال تسع سنوات أوصال المجتمع الإقطاعي وخلخل جذوره[٧].

---

(١) _ سمحات، محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بلاد الشام ١٨٠٤-١٨٥٠، ص١٣٤ .

(٢) _ بني هاني، تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري، ص٩٨-٩٩ .

(٣) _ سمحات، محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بلاد الشام ١٨٠٤-١٨٥٠، ص١٣٥ .

(٤) _ بني هاني، تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري، ص٩٩ .

(٥) _ سمحات، محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بلاد الشام ١٨٠٤-١٨٥٠، ص١٣٩ .

(٦) _ بني هاني، تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري، ص٢٣٣ .

(٧) _ حنا، ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري، مجلد٣، ص١٣١ .

ج_ الواقع الاقتصادي والتأثيرات على القطاع الصناعي في سوريا _ الشام في فترة حكم دولة محمد علي فيما بين (١٢٤٧هـ/١٨٣١م _ ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م) :

اهتمَّت الحكومة المصرية في سوريا _ الشام بتطوير الصناعة، كونها تشكل قاعدة لبناء البرجوازية الحديثة، وسبباً في التقدم نحو الحداثة كما حدث في أوروبا، وكان الهدف من تطوير الصناعة تغطية احتياجات السوق الاستهلاكية المحلية من جهة، وتصدير الفائض من الإنتاج إلى أوروبا من جهة ثانية. وقام إبراهيم باشا باستيراد الآلات والمصانع، وأنشأ معملاً لنسيج الصوف والغزل في زمن الحكومة المصرية ورخصت أسعاره، ولا سيما صناعة العباءات والأجواخ والطرابيش التي لبسها أهالي الشام تقليداً للمصريين. وأقيمت معامل للقماش في منطقة صور، وزاد الاهتمام بصناعة خيط الحرير في جبل لبنان(١). ولكي يحمي الصناعة الوطنية من منافسة البضائع الأجنبية رفع محمد علي التعرفة الجمركية على مثيلاتها ٣% مما أدى إلى انتشار الصناعة السورية في البلاد العربية وإيران شرقاً(٢). وأنشأ المصريون في طرابلس (مصلحة قطع الاخشاب) للمساهمة في صناعة السفن البحرية(٣). كما أنشأ إبراهيم باشا معاصر للزيت في طرابلس واستوردت آلاتها وأجهزتها من فرنسا، وأعطت أفضل النتائج من حيث الكم والنوع، وعليه قامت صناعة الصابون في طرابلس، والقدس، ونابلس، والرملة، كما اهتمت الحكومة بصناعة الزجاج. كما بدأت الحكومة بفتح المدابغ لإنتاج الأحذية للجنود والأهالي، باستخدام جلود المواشي المحلية وأقيمت مصانع لهذه الصناعة في كل من دمشق وحلب وأنطاكية(٤).

وكانت هناك محاولات مصرية لإقامة صناعة تعدينية وتوفير المواد الأولية من أراضي سوريا _ الشام، فطُلب من الفرنسيين البحث عن الرخام، ومن البريطانيين استخراج الفحم الحجري من لبنان وفلسطين، ومن النمساويين استخراج الرصاص والذهب والحديد(٥). وأنشئت المصانع التي تقوم على هذه المواد في لبنان(٦).

وعلى الرغم من ذلك كله فقد عانى العمال الصناعيين من قسوة الحكومة المصرية وارتفاع ضرائبها تدريجياً ومن سياسة الاحتكار من جهة، ومن إغراق الأسواق بالمنتجات الصناعيّة الأوروبية من جهة ثانية. ويلاحظ تأخر في مجال الأعمال الصناعيّة الحرفيّة، فبعد أن كانت الصناعات الحرفيّة

---

(١) _ سمحات، محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بلاد الشام ١٨٠٤-١٨٥٠، ص١٣٧-١٣٨ .

(٢) _ بركات، البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتحه الشام ١٨٣٢م، ص١٣٧ .

(٣) _ سمحات، محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بلاد الشام ١٨٠٤-١٨٥٠، ص١٣٨ .

(٤) _ بني هاني، تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري، ص١٠٠ .

(٥) _ العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ص١٦٩ .

(٦) _ بني هاني، تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري، ص١٠١ .

في سوريا _ الشام تكفي سكانه، وتزيد عنه للتصدير، أصبح هؤلاء الحرفيون لا يجدون مجالاً لتسويق منتجاتهم، وذلك بسبب إغراق الأسواق بالصناعات الأوروبية التي تفوقت على الصناعات المحلية من حيث الأسعار، وذلك لأن بريطانيا طالبت بدفع ٣% فقط على الواردات إلى ولايات السلطنة العثمانية. ففي حلب انخفضت قيمة إنتاج الأقمشة القطنية والحريرية من مئة مليون قرش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلى سبعة أو ثمانية مليون قرش في النصف الأول من القرن التاسع عشر(١). وبالتالي تحول بعض الحرفيين إلى أعمال الزراعة أو التجارة. وهذا الأمر حوّل الاقتصاد السوري إلى اقتصاد زراعي _ تجاري(٢). ولا بدّ من توضيح أن سياسة محمد علي القائمة على دعم احتكار الدولة لقطاعات الاقتصاد والتجارة الخارجية كانت محاولة منه لحماية الاقتصاد الوطني من المنافسة الأوروبية المتزايدة، ودليل على ذلك إلحاح بريطانيا على السلطنة العثمانية في اتفاقية بلطة ليمان عام ١٨٣٨ إلغاء نظام محمد علي القائم على الاحتكار في التجارة الخارجية لأنه أضر بمصالحها بالمنطقة، وأعاق استيرادها للمواد الأولية الضرورية لصناعتها(٣). لكن لم تستطع سياسة محمد علي الحمائية للصناعة الوطنية الصمود أمام الضغوط البريطانية والتآمر العثماني، ولم يطل أمد بقائها في سوريا _ الشام لتؤسس صناعة حديثة تنافس البضائع الأوروبية المصنعة .

د_ الواقع الاقتصادي والتأثيرات على التجارة في سوريا _ الشام في فترة حكم دولة محمد علي فيما بين (١٢٤٧هـ/١٨٣١م _ ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م) :

سعت الحكومة المصرية لتنشيط التجارة مستغلة موقع سوريا _ الشام على الطرق التجارية الرئيسية المتجهة إلى العراق شرقاً، وأوروبا غرباً، والأناضول شمالاً، والحجاز جنوباً، وتشجيعاً للتجارة أمر إبراهيم باشا بتعبيد الطرق وخصوصاً الساحلية منها، واستقدم ثلاثين مركباً لنقل البضائع إلى (أنطاكية) عبر نهر العاصي(٤). وأسهمت خطوات تطبيق المساواة بين الطوائف التي اتخذها إبراهيم باشا في دعم التجارة حيث كان القسم الأعظم من التجار السوريين يعتنقون المسيحية(٥). وازدهرت تجارة الاستيراد والتصدير، فاستوردت شبه الجزيرة العربية وإيران وتركيا المنسوجات السورية، وأصبحت حلب ودمشق مركزيين تجاريين هامين على خطوط التجارة مع الشرق(٦). كما عملت الإدارة المصرية على تنظيم إدارة المرافئ في سوريا _ الشام، وتجديد النظام الجمركي بشكل يساعد على جمع الضرائب الجمركية عن البضائع المستوردة والمصدرة، حيث أصبحت الدولة تعيّن موظفي الجمارك

---

(١) _ هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، ص٩٥.

(٢) _ بني هاني، تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري، ص٢٣٧ .

(٣) _ Pamuk, The Ottoman Empire and European Capitalism 1820–1913, p20.

(٤) _ العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ص١٦٩ .

(٥) _ نسكايا، الحركات الفلاحية في لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ص٧٣ .

(٦) _ العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ص١٦٩ .

لجبايتها بعد أن كانت تتمّ بواسطة الملتزمين الذين يتلاعبون بالرسوم الجمركية لمصالحهم زمن الإدارة العثمانية[١]. وقد لاحظت الإدارة المصرية تراجع حسابات إيرادات جمارك بر الشام وذلك بسبب لجوء التجار المحليين إلى مشاركة التجار الأوروبيين في متاجرهم مقابل مبالغ زهيدة كي يستفيدوا من الامتيازات الجمركية التي يتمتع بها التجار الأجانب[٢]. أو يقوم التجار المحليين بتصدير بضائعهم باسم تجار ورعايا الدول الأوروبية للتهرب من الرسوم الضريبية مما دفع مجلس شورى بيروت إلى إنذار قناصل فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا بوجوب امتناع رعاياهم عن فعل ذلك[٣].

وقد حاولت الحكومة المصرية تشجيع التجار المحليين على المشاركة بالأعمال التجارية عبر معاملتهم معاملة التجار الأجانب ذوي الامتيازات، وذلك بأخذ رسوم الجمارك منهم لمرة واحدة وبنسبة (٣%) بعد أن كان التجار المحليون يدفعون نسبة جمارك أعلى وأكثر من مرة[٤]. وازداد عدد التجار الذين يتعاملون مع أوروبا، وقد بلغ عدد بيوت التجارة للمسلمين في دمشق والذين يتاجرون مع الغرب (٦٦) بيت تجاري برأسمال حوالي عشرين إلى خمسين مليون قرش، وعدد بيوت التجارة للمسيحيين (٢٩) بيت برأسمال (٤) إلى (٥) ملايين قرش، وعدد بيوت التجارة لليهود (٢٤) بيت برأسمال قدره (١٦) إلى (١٨) مليون قرش[٥]، وكانت أهم علاقات بريطانيا التجارية في فترة الحكم المصري هي مع مع التجار اليهود في سوريا _ الشام[٦].

ومع تدفق التجار الأوروبيين إلى سوريا _ الشام عملت الحكومة المصرية على احتكار بضائع هامة للتصدير بغية دعم خزينة الدولة وخصوصاً الحرير والقطن، وهذا أضرَّ بالتجار المحليين[٧]، وبشكل عام كان الميزان التجاري رابحاً بالنسبة للاستيراد والتصدير في سوريا _ الشام حيث بلغت مداخيلها ثلاثة وأربعين مليون قرشاً ومصروفاتها وصلت إلى ثمانية وثلاثين مليون قرشاً[٨]. وساعدت الإدارة المصرية الحازمة على نشر الأمن وحماية طرق التجارة الداخلية في سوريا _ الشام ولم تعد تتعرض لهجمات البدو. ويذكر السفير الروسي قسطنطين بازيلي " أنَّه من السنة الثانية للحكم المصري بدأ التجار ينقلون الذهب من حلب والقدس إلى بيروت دون حراسة"[٩]. ولأهمية قوافل الحج في تنشيط

---

(١) _ سمحات، محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بلاد الشام ١٨٠٤-١٨٥٠، ص١٣٨-١٣٩ .

(٢) _ رستم، المحفوظات الملكية المصرية، مجلد٣، محفظة عابدين ٢٥٤، رقم ٢٦٧، ص١٦٨ .

(٣) _ المصدر نفسه، مجلد٣، محفظة عابدين ٢٥٣، رقم ١٥٢، ص١٤٣ .

(٤) _ بني هاني، تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري، ص١٠١-١٠٢ .

(٥) _ Youssef M.Chouiri, Aconpanion to The History of The Middle East, Published by Black Well, UK, 2005, P242-243 .

(٦) _ الحسيني، تاريخ سوريا الاقتصادي، ص٢٠١ .

(٧) _ شوفالييه، مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعيّة في أوروبا، ص٤٠١ .

(٨) _ سمحات، محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بلاد الشام ١٨٠٤-١٨٥٠، ص١٣٦ .

(٩) _ ريجينكوف، نسكايا، سوريا ولبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ص٣٥٣ .

التجارة، عملت الحكومة المصرية على توفير أسباب الأمن والراحة للحجاج، وأصلحت القلاع والحصون على طريق الحج، ووفرّت ما يلزم من مؤن وقوة عسكرية لمنع أعمال التعدي على الحجيج[١].

وفي سبيل تطوير التجارة الداخلية، عملت الحكومة على منع أعمال الشغب في الأسواق والتي كانت تؤدي إلى تعطيلها، كما تمَّ تنظيم الأسواق الموسمية لمنع عمليات الاحتكار ورفع الأسعار، وقامت بتحديد الأسعار، ولجأت إلى ذبح الأغنام وبيع لحومها _على حسابها_ إلى الناس مباشرة، في سبيل الضغط على الجزّارين من أجل السير على خطاها وتنزيل أسعار اللحوم. ولمنع عمليات الغش في الأسواق تمَّ تعيين محتسب لمراقبتها، للتأكد من الالتزام بالأسعار المحددة من قبل الحكومة، ومنع التلاعب بالموازين التي سعت الحكومة المصرية إلى فرض نظام موحد لها[٢].

أما بالنسبة لبريطانيا فقد اعتبرت إصلاحات الحكومة المصرية على الصعيد التجاري وإلغاء امتيازات التجار البريطانيين واحتكار المصريين بعض المواد المصدرة التي تشكل أهمية استراتيجية للصناعة البريطانية مثل القطن والحرير، تهديداً مباشراً لاقتصادها مما دفعها أيضاً إلى توقيع الاتفاقية التجارية مع السلطنة العثمانية (بلطة ليمان) والتي تضمن حرية التجارة والإعفاء من الرسوم الجمركية للبريطانيين في كافة ولايات السلطنة ومن ضمنها سوريا _ الشام .

والجدول التالي يوضح ميزان التجارة الخارجية الخاسر في سوريا– الشام لأعوام ١٢٥٦هـ–١٨٤٠م/ ١٢٥٧هـ–١٨٤١م أي بعد دخول اتفاقية بلطة ليمان حيز التنفيذ، وعودة الحكم العثماني إلى سوريا الشام بعد خروج الحكومة المصرية منها.

الجدول (٣) ميزان التجارة الخارجية لسوريا– الشام لأعوام

١٢٥٦هـ–١٨٤٠م/ ١٢٥٧هـ–١٨٤١م[٣]:

تصدير	قرش عثماني	استيراد	قرش عثماني
حرير	٢٥,٠٠٠,٠٠٠	**منسوجات**	٤٠,٠٠٠,٠٠٠
قطن	٥,٠٠٠,٠٠٠	**قهوة**	٨,٠٠٠,٠٠٠
صوف	٢,٠٠٠,٠٠٠	**قمح**	٧,٠٠٠,٠٠٠

وقد بلغت صادرات سوريا– الشام (٦٢,٠٠٠,٠٠٠) مليون قرش، أما وارداتها (٨٣,٥٠٠,٠٠٠) مليون قرش وكانت (٩٠%) من المنسوجات المصنوعة يتمّ استيرادها من بريطانيا[١].

---

(١) _ بني هاني، تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري، ١٠٢ .

(٢) _ المرجع نفسه، ص١٠٢–١٠٣ .

(٣) _ ريجينكوف، نسكايا، سوريا ولبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ص٣٦٤،ص٣٦٦.

هـ_ الواقع الاقتصادي والتأثيرات على النقد والنقل في سوريا _ الشام في فترة حكم دولة محمد علي فيما بين (١٢٤٧هـ/١٨٣١م _ ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م) :

على صعيد النقد ورغم طموحات محمد علي بإقامة دولة قوية مستقلة، إلا أنّه لم يضرب السكة باسمه، وبقيت العملة العثمانية هي المتداولة. وقد عرف النظام النقدي العثماني في فترات عديدة تخفيضاً لقيمة العملة المتداولة، نتيجة للتلاعب بأوزان العملات، وانتشار التهريب إلى خارج البلاد، مما أثر سلباً على القوى الشرائية لهذه العملات. وكان التجار الأوروبيون وأهالي الشام يرسلون هذه النقود إلى الأستانة التي ترسلها إلى أوروبا لقاء المعاملات التجارية، أو يرسلونها على السفن المنطلقة إلى أوروبا مباشرة. وكان هناك تفاوت في قيمة السكة الأوروبية والسكة الاستانبولية، والسكة المصرية. وكان يتم تهريب السكة المصرية العالية العيار والقيمة إلى الخارج . ومنعاً لعملية تهريب السكة العثمانية عمد الباب العالي إلى إصدار الأوامر بأن تُضرب النقود الفضية والذهبية المختلفة كلها ناقصة بمقدار أربعة في المئة من فضتها أو ذهبها، حتى لا يكون هناك جدوى من تهريبها. وأرسلت السلطنة إلى إبراهيم باشا نماذج من المسكوكات التي ضربت، ليتولى سك النقود المطلوبة على هذا الأساس[٢]. ولقد اعتمد إبراهيم باشا على المسيحي (حنا البحري) في إدارة المالية المصرية في الشام وقد برع في ذلك من خلال سن تشريعات تدعم الخزينة معتمداً العدل والمساواة بين الجميع[٣].

وبالنسبة للنقل ثمة ثلاثة عوامل ساعدت على تطور النقل هي: موقع المنطقة وتنافس القوى الكبرى، ونمو الملاحة البخارية. ومنذ سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م كانت الخطوط الملاحية الأوروبية تتشابك في البحر المتوسط. وفي أواخر سنة ١٨٣٠م خصص البريطانيون والفرنسيون والنمساويون خدمات ملاحية منظمة إلى مصر وسوريا _ الشام والدولة العثمانية[٤]. واستعرض البحث محاولة بريطانيا مدَّ نفوذها التجاري الاستعماري عبر مشروع الملاحة في نهري دجلة والفرات.

وبالنسبة للنقل الداخلي ذكرنا اهتمام إبراهيم باشا بتعبيد الطرق الساحلية، وتوطيد الأمن على الطرق بين المدن، وتوسيع المرافئ من أجل تسهيل نقل البضائع والأشخاص.

و_ الواقع الاقتصادي والتأثيرات والوعي الاقتصادي في سوريا _ الشام في فترة حكم دولة محمد علي فيما بين (١٢٤٧هـ/١٨٣١م _ ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م) :

---

(١) _ المرجع نفسه،ص٣٦٦.

(٢) _ سمحات، محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بلاد الشام ١٨٠٤-١٨٥٠، ص١٤١ .

(٣) _ المرجع نفسه، ص١٤٣ .

(٤) _ ألبرت حوراني ، فيليب خوري وآخرون، الشرق الأوسط الحديث، ترجمة أسعد صقر، مجلدان، دار مدارات للأبحاث والنشر،القاهرة، ٢٠١٦،المجلد الأول، ص٢٥٥ .

لاحظنا غياب الوعي الاقتصادي في سياسة الحكومة العثمانية الاقتصادية وبرز ذلك من خلال نظام الامتيازات الممنوح للأجانب، ومن خلال غياب أيَّ سياسة لحماية الاقتصاد الوطني. وعلى العكس من ذلك كانت سياسة الحكومة المصرية الاقتصادية عموماً وفي سوريا _ الشام خصوصاً سياسة واعية برزت من خلال الإصلاحات الاقتصادية التي نفذتها، ومن خلال فرضها الحماية الجمركية لحماية الاقتصاد الوطني، وإتباعها سياسة الاكتفاء الذاتي[١]، عبر تطوير مصادر الإنتاج ووسائله، حيث تمَّ الربط بين الزراعة والصناعة مثل زراعة الزيتون وإقامة معاصر الزيت ومصانع الصابون عليها، وزراعة الأشجار لتوفير الأخشاب لبناء الأسطول. وأكبر دليل على الوعي الاقتصادي لدى الحكومة المصرية تمثل في رفض محمد علي القاطع لاتفاقية (بلطة ليمان) التجارية التي شكلت تهديد مباشر للاقتصاد الوطني الذي بناه محمد علي في دولته العربية. وأدت إلى تداعيات خطيرة على قطاعات الاقتصاد السوري عندما وضعت حيز التنفيذ عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م[٢] .

ثالثاً): تأثيرات الثورة الصناعيّة: الحصار الاقتصادي والتآمر البريطاني وتدويل المسألة السورية حتى نهاية دولة محمد علي العربية عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م _ ١٢٥٧هـ/١٨٤١م :

١_ الحصار الاقتصادي والتآمر البريطاني على دولة محمد علي :

تمثلت ذروة الحصار الاقتصادي البريطاني العثماني باتفاقية (بلطة ليمان) التي رفض محمد علي تطبيق بنودها في أراضي دولته، لذلك سعت بريطانيا من خلال عملائها في سوريا _ الشام لتحريض الثورات ضد الحكومة المصرية من جهة، وتشجيع العثمانيين على تجهيز جيش لقتال إبراهيم باشا والقضاء على قواته من جهة أخرى. مؤكدة للعثمانيين دعمها لهم ووقوف أسطولها إلى جانبهم، مما دفع السلطنة العثمانية لإعلان الحرب على محمد علي في ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م، فالتقى الجيشان عند (نزب) قرب (عينتاب) وانتهت المعركة في ٢٤ حزيران ١٨٣٩م بانتصار قوات إبراهيم باشا وانهزام العثمانيين، كما عزز إبراهيم باشا انتصاره بانسحاب الأسطول العثماني بكامله بقيادة (أحمد فوزي) إلى الاسكندرية وانضمامه إلى محمد علي[٣]. توفي السلطان محمود الثاني قبل أن تصله أخبار الهزيمة، وهكذا فقد السلطان محمود الثاني حياته وجيشه وأسطوله[٤]، وصعد إلى عرش السلطنة ابنه عبدالمجيد ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م _ ١٢٧٧هـ/١٨٦١م وكان عمره ثمانية عشرة سنة[٥]. وأبدى السلطان الجديد ميلاً

---

(١) _ العطار، تاريخ سوريا في العصور الحديثة، ص١٩٢ .

(٢) _ عمارة، العروبة في العصر الحديث، الكتاب الثاني، ص١٧٩.

(٣) _ محمد، وقفة جديدة عند سوريا _ الشام في عهد دولة محمد علي، ص١٩٩ .

(٤) _ بركات، البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتحه الشام ١٨٣٢م، ص١٥١ .

(٥) _ عامر، تاريخ الدولة العثمانية، ص٣٠٥ .

للتفاوض مع محمد علي وصرح أنه لا يرغب في الحرب معه[١]. وهذا ما أقلق بريطانيا التي خشيت من اتفاق عثماني _ عربي، أو من تدخل روسي للدفاع عن السلطنة العثمانية بذريعة تطبيق اتفاقية (هنكار اسكله سي) مما دفع بريطانيا إلى تشكيل تحالف دولي وتدويل المسألة السورية[٢] .

٢_ التحالف الدولي وتدويل المسألة السورية :

استطاعت بريطانيا تشكيل تحالف دولي ضد دولة محمد علي ضمَّ كل من (بريطانيا، النمسا، بروسيا، فرنسا، روسيا) ولم ترغب روسيا في معاداة التحالف الدولي وهي تعلم أن سنوات معاهدتها مع السلطنة أوشكت على النهاية لذلك أعلنت التنازل عن تنفيذ بنود المعاهدة، بحجة أن السلطان هو الذي بدأ الهجوم على الجيش المصري. وأرسلت دول التحالف الأوروبي مذكرة تفاهم مشتركة إلى السلطان في ٢٨ تموز ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م تطلب منه فيها: "بأن لا يبرم صلحاً مع محمد علي من غير موافقة هذه الدول"[٣]. وإن كان اشتراك فرنسا في هذه المذكرة مستغرباً، إلا أنه جاء ليمنع انفراد روسيا بحماية الدولة العثمانية[٤].

استغلت بريطانيا هذه التحالف الدولي، وسعت من خلال جواسيسها ولا سيما (وود) لنشر شائعات في لبنان تتعلق بقدوم سفن دول روسيا والنمسا وبريطانيا وبروسيا لإجلاء القوات المصرية من سوريا _ الشام[٥]. وجرت عملية توزيع السلاح على السكان المحليين في السواحل اللبنانية[٦]. مما دفع إبراهيم باشا إلى القضاء على هذه الفتن والثورات بأي ثمن، استعداداً لمواجهة التحالف الدولي، لذا استخدم أساليب قمع وتعذيب جماعية كقلع الأشجار وتسميم الآبار. ومع اشتداد الفتن زاد الانقسام في جبل لبنان حتى بين الموارنة أنفسهم، وبين مؤيدي بريطانيا بعد أن أغراهم (وود) بإمارة مارونية مستقلة وبضرائب منخفضة[٧]، في حين كان الأمير (بشير) ومؤيدوه يحضون الناس على الصمود في الظاهر، مما دفع إبراهيم باشا إلى حرق قرى في جبل لبنان ونفى إلى السودان أربعين من أمراء الشهابيين ممن كانوا يحرضون ضد الحكم المصري[٨].

---

(١) _ مؤلف مجهول، حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، تحقيق أسد رستم، المطبعة السورية، مصر الجديدة، ١٩٨٦، ص٥٨ .

(٢) _ محمد، وقفة جديدة عند سوريا _ الشام في عهد دولة محمد علي، ص ٢٠٠.

(٣) _ الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص٢٦٩ .

(٤) _ عبدالعزيز عمر، تاريخ لبنان الحديث ١٥١٦-١٩١٥، ص١٠٣ .

(٥) _ محمد، وقفة جديدة عند سوريا _ الشام في عهد دولة محمد علي، ص٢٠٠-٢٠١ .

(٦) _ صالح، الدبلوماسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، ص٢٣١ .

(٧) _ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص٧٠ .

(٨) _ كردعلي، خطط الشام، ج٣، ص٦٥ .

وفيما يتعلق بالموقف الفرنسي من التصعيد الدولي ضد محمد علي، استمرَّ الفرنسيون بتأييد محمد علي ورفض التحركات الدولية بقيادة بريطانيا لإخراجه من سوريا _ الشام، إلا أن موقف فرنسا كان ضعيفاً بسبب عدم كفاية قواتها البحرية لدعمه من جهة، ولضعف حكومتها داخلياً واضطراب أوضاع حكم ملكها (لويس فيليب) من جهة أخرى[١]. واشتدَّ الخلاف بين فرنسا ودول التحالف الدولي، بالإضافة إلى السلطنة العثمانية، حيث كان وزير الخارجية البريطاني (بالمرستون) يسعى لحل المسألة السورية بمعزل عن فرنسا وموافقتها، لكن الملكة (فكتوريا) والوزارة البريطانية كانوا يفضلون إرضاء فرنسا وذلك عبر منحها ولاية عكا إلى محمد علي ما عدا قلعتها حيث تظل تحت الحكم العثماني لأنها مفتاح سوريا، وأن تظل مناطق طريق الحج بيد السلطان ومنح ولاية مصر وراثياً لمحمد علي[٢].

إلا أن فرنسا رفضت العرض معتمدة على قوة جيش محمد علي، وعلى أمل التوصل إلى اتفاق ثنائي بين محمد علي والسلطان العثماني بعيداً عن التحالف الدولي، وكان الرأي العام الفرنسي متعاطفاً مع انتصارات إبراهيم باشا ويرفض التنازل، ونتيجة لتوتر الداخل الفرنسي سقطت الوزارة الفرنسية، وجاءت وزارة (تيير) الداعمة بشدة لمحمد علي ولو كلفها ذلك إعلان الحرب[٣].

ولكن (بالمرستون) تجاهل مطالب فرنسا واستغلَّ ثورات جبل لبنان ضد الحكم المصري ودعا دول التحالف (النمسا، روسيا، بروسيا) إلى اجتماع لندن وفي ١٥ تموز ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م وأبرموا معاهدة (لندن) التي نصّت على منح مصر وراثية لمحمد علي وعكا مدى الحياة، وأمهلوه عشرة أيام للقبول بها وإلا ضاعت عكا من يده، وإذا بقي مصراً على رفضه عشرة أيام أخرى فإن السلطان سيتَّخذ ما يراه مناسباً لتأمين مصلحته بعد تشاوره مع الحلفاء[٤].

رفض محمد علي اتفاق لندن معتمداً على انتصارات جيشه على العثمانيين من جهة، وعلى تأييد فرنسا له من جهة أخرى التي لم تكن طرفاً في المعاهدة واعتبرتها إهانة لها، وفي هذه الأثناء بدأت ثورة جبل لبنان وكانت لها عدة أسباب أهمها:

١"_ تحريض قناصل الدول الأوروبية في بيروت السكان على الثورة ضد الحكومة المصرية .

٢"_ انتشار جواسيس بريطانيا والنمسا وتوزيعهم المال والسلاح على الثوار .

٣"_ سخط زعماء الإقطاعيين الموارنة والدروز من زوال نفوذهم .

٤"_ فرض إبراهيم باشا ضريبة الفردة عن سبع سنوات .

٥"_ إجبار اللبنانيين على تسليم السلاح بعد معركة (نزب) والعمل على تجنيدهم .

---

(١) _ رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، ص٣٠٣ .

(٢) _ بركات، البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتحه الشام ١٨٣٢م، ص١٥٣ .

(٣) _ محمد، وقفة جديدة عند سوريا _ الشام في عهد دولة محمد علي، ص٢٠١-٢٠٢ .

(٤) _ العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ص١٨١ .

٦"_ وصول الأسطول الأوروبي إلى سواحل لبنان[١].

٧"_ إصدار السلطان فرماناً يقضي بعزل محمد علي عن ولاية مصر بناءً على نصيحة بريطانيا وذلك ليفقد شرعية الحكم ويقوي المعارضة الثائرة ضده[٢].

ومع وصول الأسطول الأوروبي إلى بيروت وإمداد الثوار في (جونيه) بالسلاح والمال[٣]. ولقد استطاعت القوى الحليفة تنظيم اجتماع في (انطلياس) في ٨ حزيران ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م وانضمت لهم عناصر من الشيعة والسنة وأقسموا اليمين على مذبح القديس (مار الياس) على الوحدة وعدم الخيانة أو التسليم، ونشروا بياناً للثوار يوضحون سبب ثورتهم ضد الحاكم المصري الظالم وممارسته بحقهم[٤].

وكان هاجس بريطانيا الأعظم عدم اشتراك روسيا عسكرياً في المنطقة بصورة فاعلة، لذلك تولت قيادة عملية عسكرية أنزلت فيها القوات البحرية البريطانية، والنمساوية إلى جانب القوات العثمانية في بيروت وصور وصيدا[٥]، حيث سلَّم الأمير بشير الشهابي نفسه لهذه القوات وطلب الإقامة في (مالطة) ثم قصد استانبول حتى توفي فيها عام ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م، وهكذا خسر إبراهيم باشا حليفه القوي وضعف موقفه كثيراً أمام القوات المهاجمة والثوار[٦]. وانسحب بقواته إلى عكا حيث قام بتحصينها إلاّ أنَّها سقطت نتيجة قصف الأسطول البريطاني العنيف عليها في تشرين الثاني ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م فانقطعت الصلات البحرية بين القوات في مصر وسوريا وحوصرت قوات إبراهيم باشا[٧].

٣_ التسوية وانسحاب إبراهيم باشا ونهاية دولة محمد علي العربية :

في ظل كل ما سبق من ظروف وما رافقها من تآمر دولي وحصار عسكري لدولة محمد علي في سوريا _ الشام ومع استقالة وزارة (تيير) الفرنسية التي خلفتها وزارة (غيزو) المتخبطة المنقادة لأوامر الملك الفرنسي الساعية لحل توفيقي مع التحالف الدولي، طلب محمد علي من ابنه إبراهيم باشا الانسحاب من سوريا والعودة إلى مصر، كما انسحبت القوات المصرية من جزيرة (كريت) و(شبه الجزيرة العربية)[٨]. وبهذا تكون السياسة البريطانية قد نجحت في تحقيق أهدافها بالقضاء على دولة

---

(١) _ بركات، البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتحه الشام١٨٣٢م، ص١٥٩ .

(٢) _ محمد، وقفة جديدة عند سوريا _ الشام في عهد محمد علي، ص٢٠٢ .

(٣) _ العطار، تاريخ سورية في العصر الحديث، ص١٨١ .

(٤) _ فيليب وفريد الخازن، مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية، ثلاث مجلدات، لبنان، دار الرائد اللبناني، مجلد أول، ص٢-٣ .

(٥) _ صالح، الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام، ص٢٣٢ .

(٦) _ العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ص١٨٢ .

(٧) _ محمد، وقفة جديدة عند سوريا _ الشام في عهد محمد علي، ص٢٠٣ .

(٨) _ طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، ص١٠٢_١٠٣ .

محمد علي العربية في المنطقة وعلى وحدتها السياسية والاقتصادية والتي شكلت تهديداً لمصالحها الاستعمارية على طريق الهند وفي السلطنة العثمانية وقطعت الطريق على النفوذ الفرنسي، وعلى الأطماع الروسية في السلطنة العثمانية[١] .

وعند خروج إبراهيم باشا من دمشق وزع ذخائره ومتاعه على المساجد وبيوت الأيتام، وخرج أهالي دمشق لوداعه، فطلب منهم السكينة والهدوء حتّى تدخل القوات العثمانية المدينة التي كانت تنتظر قرب مدينة (الزبداني) وقد عينت السلطنة الوالي (علي باشا) على دمشق وكان شديد التعصب للعثمانيين، وفوضت الأمر للجاسوس البريطاني (وود) لمراقبة أعمال موظفيها فكان يعزل الموظفين العثمانيين حسب رغبته ومشورته[٢].

ومن أجل تثبيت انتصاراتها دعت بريطانيا إلى مؤتمر لندن الثاني عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م بمشاركة فرنسا من أجل تقرير مصير محمد علي. فحاولت إرضاء جميع الأطراف رغم اعتراض السلطنة العثمانية على الاتفاق، إلاّ أنَّ حكم محمد علي لمصر لمدة خمسة وثلاثين عاماً جعل من الصعب عزله عن الحكم إضافة للتأييد العربي والإسلامي والفرنسي له، فصدر فرمان يمنح بموجبه ولاية مصر والسودان وراثياً له، مقابل التزامه بالشروط الآتية :

١"_ يتنازل عن الولايات التي خرج منها، ويعيد الأسطول العثماني إلى استانبول .

٢"_ تبقى سواحل السودان المطلَّة على البحر الأحمر وإريترية خاضعة للحكم العثماني .

٣"_ تدفع مصر ضريبة سنوية قابلة للزيادة مقدارها أربع ملايين أقجة للسلطنة العثمانية .

٤"_ يكون تعداد الجيش المصري البري ثمانية عشر ألف جندي، ويشارك هؤلاء في حروب السلطنة ويرتدون الزي العسكري العثماني .

٥"_ تباع السفن الحربية ويلغى الأسطول المصري .

٦"_ لا يحق للحكومة المصرية معاقبة أي مصري من رعاياها إلا بموافقة السلطنة، والسلطان وحده هو من يمنح الرتب العسكرية والمدنيَّة في مصر .

٧"_ لا يجوز لوالي مصر أن يرتبط بأي علاقة خارجية أو يستدين من دولة خارجية، وتطبق في مصر التنظيمات والقوانين التي أعلنها وسيعلنها الباب العالي[٣].

ومن خلال دراسة نقدية لهذه البنود التي أشرفت بريطانيا على صياغتها تبدو مجحفة بحق محمد علي خاصةً والعرب عموماً وأهم هذه المآخذ :

---

(١) _ كردعلي، خطط الشام، ج٣، ص٧١.

(٢) _ المصدر نفسه، ص٦٦.

(٣) _ أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مجلد ثاني، ص٣٨-٣٩ .

١"_ تحجيم محمد علي في مصر، ومنعه من القيام بأي محاولة لضمِّ أراضٍ عربية لدولته تفادياً لتشكيل وحدة عربية مستقبلاً .

٢"_ تجريد مصر من أسطولها، وتحديد عدد جيشها، منعاً لتشكيل قوة عسكرية عربية في المستقبل، وهذا كان مقدمة لما نعيشه اليوم من غياب قوة عربية في ظلِّ دعمٍ دوليٍّ لتسليح إسرائيل لتبقى الأقوى في المنطقة(١).

٣"_ إضعاف مصر سياسياً، من خلال تجريدها من سلطتها. في إصدار أي قرار من دون موافقة الباب العالي(٢) .

٤"_ إبقاء سواحل البحر الأحمر تحت السيطرة العثمانية، لضمان مصالح بريطانيا الاقتصادية على طريق الهند .

٥"_ إضعاف مصر اقتصادياً، وفتح الباب أمام السيطرة الاقتصادية الغربية، خصوصاً مع الإصرار على تنفيذ الاتفاقيات والتنظيمات التي أعلنها الباب العالي في مصر، مما فتح الباب واسعاً لأطماع بريطانيا الاقتصادية والاستعمارية التي أدَّت إلى احتلالها عام ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م(٣).

وهكذا كانت نهاية أول دولة عربية موحدة ذات مضمون إعماري يهدف لبناء برجوازية حديثة في العصر الحديث، إذ واجهت هذه الدولة القوى الرجعية العثمانية وأطماع الغرب ولا سيما بريطانيا التي استطاعت حماية ثورتها الصناعيّة ومصادر استمراريتها على حساب إضعاف القوى الأخرى المنافسة ولا سيما القوى العربية وإعاقة نموها سياسياً واقتصادياً(٤) .

---

(١) _ محمد، وقفة جديدة عند سوريا _ الشام في عهد دولة محمد علي، ص٢٠٥ .

(٢) _ المرجع نفسه، ص ٢٠٥.

(٣) _ المرجع نفسه، ص ٢٠٥.

(٤) _ عمارة، العروبة في العصر الحديث، الكتاب الثاني، ص ١٩١-١٩٢.

الخاتمة :

من خلال العرض السابق لانعكاسات الثورة الصناعيّة البريطانية على سوريا _ الشام منذ انطلاقتها عام ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م حتى نهاية حكم دولة محمد علي في سوريا_ الشام، توصل البحث إلى مجموعة من النتائج تبين منها: أن التبعية الاقتصادية للاقتصاد الأوروبي الرأسمالي الاستعماري كانت هي السمة العامة للاقتصاد العثماني عموماً، والاقتصاد الشامي خصوصاً، في ظل غياب خطة استراتيجية اقتصادية لدى الحكومة العثمانية لمواجهة التغيرات الدوليّة منذ قيام النظام الاستعماري الأوروبي الرأسمالي ومع تغيّر طرق التجارة العالميّة في القرن الخامس عشر ميلادي والذي ضرب النظام الاقتصادي العربي الإعماري.

كرس قيام الثورة الصناعيّة البريطانية هذه التبعيّة السياسية والاقتصاديّة بشكل كلّي وجذري. وتعرضت سوريا_ الشام إلى هجمة استعمارية شرسة نتيجة للتنافس الرأسمالي بين بريطانيا وفرنسا، حيث شكلت حملة نابليون على مصر وسوريا عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م ذروة هذا التنافس، وأدى ذلك إلى اضطراب الأوضاع السياسية والاقتصادية في سوريا_ الشام.

آمل أنّ أهداف البحث قد تحققت من خلال الإجابة على الإشكاليات والأسئلة التي طرحها، إذ بينت ما يلي:

بالنسبة لدور الثورة الصناعيّة البريطانية في تخلف اقتصاد سوريا_ الشام: بالفعل أحدثت الثورة الصناعيّة تداعيات اقتصادية تدريجية على الاقتصاد السوري، وأدّت في القرن التاسع عشر إلى ضرب قطّاع صناعة النسيج العريقة في المنطقة، وتدهورت حالة الحرف الصناعيّة والقطاع الزراعيّ. وذلك مع غزو المنسوجات البريطانية المصنعة آلياً ذات الألوان الزاهية والأسعار الرخيصة وأصبحت الأسواق الشامية مستورد البضائع البريطانية، ومصدراً للمواد الأوليّة لسد حاجات الصناعة الأوروبية.

أما بالنسبة لدور الحكومة العثمانية في انهيار اقتصاد سوريا_ الشام أمام تلك التغيرات الحاصلة، فقد تمثل في عدم اتّخاذ إجراءات فاعلة لدعم هذا الاقتصاد في مواجهة الإنتاج الآلي البريطاني، وقامت هذه الحكومة العثمانية، على العكس، بتكبيل نفسها إلى حدٍّ كبيرٍ بالامتيازات الأجنبية والاتفاقات التجاريّة مع أوروبا، وعليه لم تفعل شيئاً لتقوية الاقتصاد الوطني، ووضع قوانين الحماية الجمركية. والسبب الأساسي كان الفساد العثماني وغياب روح الوطنية والالتزام واحترام مصالح الشعوب الخاضعة للسلطنة العثمانية مقابل سيادة الصراع والفوضى بين الولاة العثمانيين الذين كان همهم جمع المال، ودفع الهدايا والأموال للسلطان وغير ذلك للبقاء في مناصبهم .

رغم كل ما سبق امتلك الاقتصاد السوري عوامل قوة عديدة من تكامل اقتصادي بين قطاعيّ الزراعة والصناعة، وكانت غوطة دمشق مثالاً جليّاً على ذلك. إضافة إلى توفر اليد الحرفيّة الماهرة والقادرة على التجديد، وإيجاد الحلول لمواجهة منافسة البضائع البريطانية المصنعة آلياً، فكان التعاون

بين أصحاب رؤوس الأموال وحرفي النسيج وصنعوا نسيج (الديما) الرخيص والمتين من خيوط القطن والذي كان منافساً قوياً للنسيج البريطاني.

في المقابل أحدث قيام الحكم المصري في سوريا_ الشام منذ عام ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م وحتى عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م انقلاباً سياسياً واقتصادياً تاركاً علامةً فارقةً.

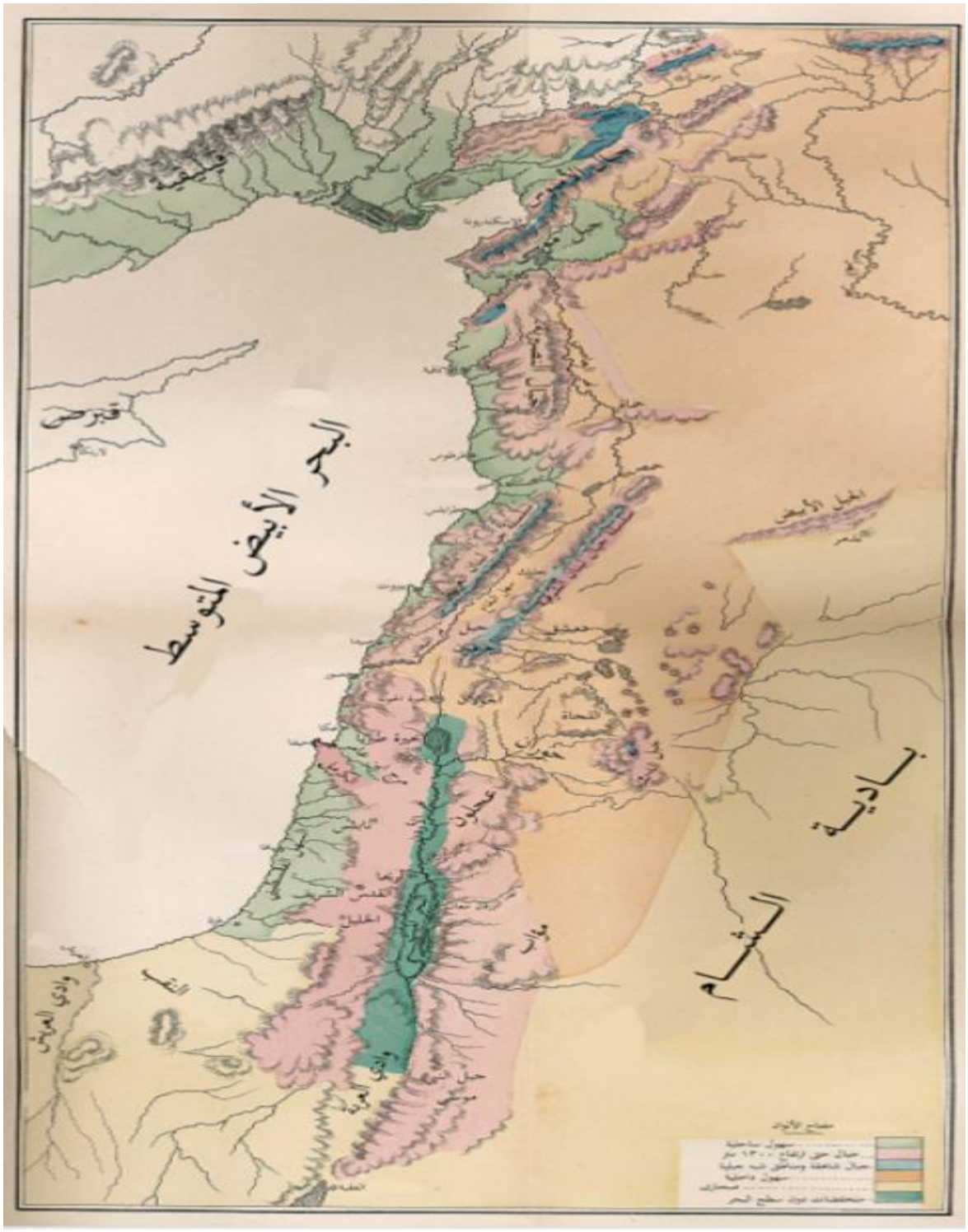
استطاع الحكم المصري في سوريا _ الشام بقيادة إبراهيم باشا توجيه ضربات قاسية للنظام الإقطاعي العثماني السائد منذ قرون ، مما أسهم في تحقيق تحولات اقتصادية واجتماعية أدت إلى بناء طبقة برجوازية حديثة .

عرفت سوريا_ الشام خلال الحكم المصري معنى السياسة الاقتصادية الاستراتيجية، ومعنى الانفتاح الواعي على أوروبا، وتمثّل ذلك عبر اتباع سياسة حماية جمركية تدعم بناءً اقتصاديّاً حديثاً قائماً على التكامل الاقتصادي. وبلغت ذروة تلك السياسة الحمائية عندما رفض محمد علي تطبيق الاتفاقية التجارية (بلطة ليمان) العثمانية البريطانية عام ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م .

وعليه تحالفت كل من السلطنة العثمانية وبريطانيا بشكلٍ خاصٍ والقوى الأوروبية بشكلٍ عام من أجل إسقاط الحكم العربي المصري في سوريا _ الشام، والذي مثّل تهديداً حقيقياً لمصالح هذه القوى جميعها في المنطقة .

في الختام لا بد أن نؤكد أنّ الثورة الصناعية البريطانية كان لها تأثيرات سلبية عميقة وطويلة الأمد في اقتصاد سوريا والوطن العرب، وهذا أسهم في تأخر العرب عن مجاراة الغرب والعالم فيما حققوه من ثورات صناعية وعلمية متلاحقة، مما يجعلنا في حاجة ملحة إلى يقظة عربية تقودنا إلى وضع استراتيجية اقتصادية عربية متكاملة لمواجهة المتغيرات والتكتّلات الاقتصادية العالمية، وتحقيق المشروع النهضوي العربي.

الملاحق



خريطة بلاد الشام [1]

(1)_ https://ar.m.Wikipedia.org/wiki%D9%85%D9%84%D9%81:Syria_physical_map-2-ar.png

مركز الوثائق التاريخية

رقم المجلد	رقم الصحيفة	رقم الوثيقة	المصدر	تاريخ الوثيقة	الملاحظات	ترجمة الوثيقة وخلاصتها
(١٧)	(١٥)	(١٨)	صدرت عن مشتى كمني	حررت في/اواسط صفر/سنة عام /١١٨٨/ وقيدت في/١٦/ جمادالثاني/سنة /١١٨٨/		«العنوان» أمر سامي بإحضار شيخ التجار في حلب إلى «الآستانة» عند رفضه بدفع ما بذمته من الضرائب

الى وزيرنا والي حلب (عثمان باشا) والى قاضي حلب ... نخبركم علماً انه سقيفه الصدر الأعظم «الحاج محمد طاهر» تقدم بعرض إلينا يقول فيه أنه عندما قام متصرفاً لولاية حلب بقي في ذمة شيخ التجار «الحاج محمد مصطفى آغا» لحساب ضريبة عام/١١٨٤/ مبلغ /٩٢٠٠/ قرشاً وقد امتنع عن دفعه حينذاك ويترتب اجراء اللازم عليه اوفدنا المباشر ... اليكم ليقوم بتحصيل هذه المبالغ وقبضها وتأمينها الى الجهة اللازمة وانه في حال رفض شيخ التجار الدفع ارساله الى «الآستانة» وعدم قبول أي عذر منه وبدون أي تأخير للنظر في أمره وقد اصدرنا أمرنا السامي بهذا الخصوص للاطلاع والامتثال للأمر.

حررت/اواسط/صفر/١١٨٨

وقيدت ن/١٦/ جمادالثاني/١١٨٨

صدرت عن
مشتى كمني

سهيلا يمليخا

مركز الوثائق التاريخية

رقم المجلد	رقم الصحيفة	رقم الوثيقة	المصدر	تاريخ الوثيقة	الملاحظات	ترجمة الوثيقة وخلاصتها
(١٢)	(٩٤)	(١١٧)	صدرت عن أدرنة الى ولاية حلب		العاصمة القديمة للدولة العثمانية سابقاً كانت (أدرنة)	«العنوان» (إصدار براءة شريفة بتعيين (جورجي زرك) ترجماناً للقنصلية النمساوية في طرابلس الشام بدلاً من المدعو (انطون زرك) واعطائه ذات الامتيازات

الى قاضي حلب والقضاة والحكام ومعاونيهم في طرابلس الشام - والاسكندرون وانطاكية) وفي الأقضية التابعة على طريقه هذه المناطق والى قواد الأمن وضباط الانكشارية والى الضباط المكلفين بالعمل في ديوان الجزية . ليكن معلوماً لديكم أنه على أثر تقديل المراسيم والاحكام التي تمت بمساعدتنا سدة الحكم في الممالك العثمانية قام المقيم الانكليزي العام للملة المسيحية في «الآستانة» المدعو «جان مور أسقبور» فرفع الينا عرضاً يشرفنا فيه بأنه الترجمان الحالي للمدعو (انطون زرك) بسبب أعذار خاصة يرغب المعهدة بمهمته الى (جورجي زرك) وايفاده الى (طرابلس الشام) والمناطق التي كان يقوم فيها بوظيفة الترجمة برجو اصدار براءة شريفة بهذا التقسيم والأمر بحماية وصيانة حياة وأموالهم في مهمته المعاونيه والتزم عند مغادرتهم حلب الى طرابلس الشام وانه كان سبق وان صدرت إرادة سنية سجلت في قيودنا بتأمينه سلامة حياة وأموال التجار الانكليز ووسطائهم في ذهابهم وايابهم في الأماكن التي يضطرهم العمل فيها للبيع والشراء من قبل الحكام والقضاة ورجال الضابطة والعساكر بيه المتواجدين في تلك المناطق كما نرجو اعطاء المترجم الجديد نفس الامتيازات

مركز الوثائق التاريخية

رقم المجلد	رقم الصحيفة	رقم الوثيقة	المصدر	تاريخ الوثيقة	الملاحظات	ترجمة الوثيقة وخلاصتها
(١٠)	(٩٧) ٩٨	(١٠٠)	من القسطنطينية الى ولاية حلب	عرضت ٢٤/ذي الحجة/سنة عام ١١٨٨/ وقيدت في ٢٩/٢/سنة ١١٨٩		«العنوان» أمر سامي إلى والي حلب بلزوم تأمين الضرائب المترتبة على ولاية حلب كمجهود حربي لتأمين نفقات الجيش

الى والي حلب وزيرنا «محمد باشا» وقاضي حلب والى المباشر المعين لهذا الخصوص من معتمدي الصدر الأعظم السيد «أحمد» ليكن معلوماً لديكم أنه قد صدر أمر اليكم بتحصيل مبلغ /٤٠٠٠٠/ قرشاً محسوباً لعام /١١٨٨/ من المناطق والولايات الفرقا منه للحرب كمجهود لتأمين نفقات الحرب وكلف المأمور السيد (مصطفى) باستلام هذا المبلغ في حال حضوره بالاضافة الى مبلغ /٦٠٠/ قرشاً المطلوب من قبل قيادة الجيش في (عربستان) والموجه الى وزيرنا (عثمان باشا) عندما كان والياً لحلب والحاصل فيد السيد (محمد) الذي اضطرته الحكومة في امكنة التحصيل وتحمل نفقات كبيرة لتأمين جباية هذه الأموال ايضاً وباعتباركم الوزير المسؤول في حلب الرجوع الى سجلات الخزينة العائدة لأقضية الولاية لعام /١١٨٧/ بالاضافة الى /٥٠٠٠/ قرشاً كان سبق وانه طلب تحصيلها بالتقسيط قبل وقوع الحرب لمصلحة قيادة الجيش حيث لم يحصل من هذا المبلغ حتى الآن سوى /٢٢٨٠٠/ قرشاً وايصال ذلك بواسطة المباشر وتدارك التقصير الذي وقع سابقاً وبذل كل امكانياتكم وذلك بالسرعة المكنة طبقاً لأمرنا الأخير الصادر بهذا الخصوص. للاطلاع والتنفيذ

عرضت ٢٤/ذي الحجة/١١٨٨
وقيدت ٢٩/٢/١١٨٩

مركز الوثائق التاريخية

رقم المجلد	رقم الصحيفة	رقم الوثيقة	المصدر	تاريخ الوثيقة	الملاحظات	ترجمة الوثيقة وخلاصتها
(١٢)	(٢٠٢) (٢٠٣)	(٢٦١)	من القسطنطينية الى ولاية حلب	محرر في ٥/رجب/١١٨٩ وقيد ن ١٨/ش/١١٨٩		«العنوان» أمر سلطاني عاجل بوجوب تأمين /٥٠٠٠٠/ كيل من القمح و/٢٠٠٠٠/ كيل من الشعير من ولايتي (حلب - والرقة) وايصالها سريعاً الى القطعات العسكرية العاملة في (بغداد)

الى والي حلب وزيرنا ذو الجاه علي باشا والى قاضي حلب (...) والى محصل حلب «الحاج أحمد قنطارجي زادة» والى المباشر من معتمدي الصدر الأعظم السيد (حسن) الذي أوفد لهذا الغرض . نخبطكم علماً أنه لتأمين تحويل القطع العسكرية العاملة في (بغداد) على ولايتي (حلب - والرقة) مناصفة تقديم /٥٠٠٠٠/ خمسون ألف كيل من القمح كل كيل بقيمة /٥٠/ أقچة و/٢٠٠٠٠/ ثلاثون ألف كيل من الشعير قيمة كل كيل /٢٠/ ثلاثون أقچة لقاء مبايعة مستعجلة على أن يؤمن نقل وتحميل هذه الكميات من مالية (حلب - والرقة) سائكات بواسطة السفن براً أو نهراً أو بطريق البر على الحيوانات وبصفتكم والي حلب وبالتعاون مع (والي الرقة) اتصلا مع محصل حلب وكل من له علاقة في الموضوع حسب مضمون كتابنا المرسل اليكم مع المباشر الآنف الذكر لتلاوته والعمل بتعليماته وانه بناءً على العرض المرسل إليّ مع المباشر لوحظ شدة احتياج (بغداد) الى هذه المواد لذلك نطلب العمل بسرعة على تأمين هذه الكميات ونقلها براً ونهراً على أيسر الطرق وتسليمها في (بغداد) وفي حال التأخير فانه الحكام والأعيان وسائر الأهلين سيلقون الجزاء اللازم نأمل عدم التأخير وتنفيذ أوامرنا بحذافيرها. عن القسطنطينية

محرر في ٥/رجب/١١٨٩
وقيد ن/١٨/ش/١١٨٩

سهيل ياميا

مركز الوثائق التاريخية

رقم المجلد	رقم الصحيفة	رقم الوثيقة	المصدر	تاريخ الوثيقة	الملاحظات	ترجمة الوثيقة وخلاصتها
(١٠)	(٢٠٢ ٢٠٤ ٢٠٥)	(٢٦٢)	من المتصرفية الى ولاية حلب	صدرت في/ اواسط رجب/ ١١٨٩ وقيدت في/ ش/ من عام/ ١١٨٩/		«العنوان» أمر سامي بوجوب دفع رسوم الجمرك لمشتريات القطن من قبل تجار الإنكليز في أراضي المملكة العثمانية وتطبيقه التعليمات الصادرة بهذا الخصوص

الى والي حلب وزيرنا ... الباشا على قاضي حلب ... نيكلم علماً أنه المقيم العام (الانكليزي) بالوكالة في مدينة «الآستانة» المدعو (أنطونيوهيس) رفع إلينا كتاباً بتوقيعه يفيد بأنه الملحق التجاري (الإنكليزي) في مدينة (حلب) شكا إليه بأنه التجار والسماسرة الذين يشترون القطن من مدينتي (كلس وآدنة) يعاملون من قبل الملتزم خلاف التعليمات السلطانية لذلك نوجه انظاركم إلى أنه الأوامر التي اعطيت بهذا الخصوص تقضي أولاً بدفع رسم الجمرك لنقل البضائع من ميناء (الإسكندرونة) وتحميلها في السفن في طريقها إلى (مرسين) إلا أنه الملتزم في المنطقة «مصطفى آغا» ابتدع بدعة جديدة وأضاف على الرسوم ٢/ قروش رسم يدفع عن كل قنطار يؤخذ من مشتري القطن من اتباع (انكلترا) وحال دون نقل كميات القطن من ميناء (الاسكندرونة) إلى السفن وذلك بتهديد المستخدمين حيث تم إعلام قاضي حلب المدعو «فيض الله زادة» وتم إصدار اعلام شرعي يرد فيه على اعتراض الملتزم المذكور ويلزم تحميل الأقطان الى السفن لذلك فور وصول كتابي هذا يقتضي تبليغ الملتزم المشار اليه قرار المحكمة واعلام والي (جدة) ووزيرنا البقية في الخلف

المصادر والمراجع:

أولاً): المصادر والمراجع العربية:

١_ الوثائق الرسمية:

_ أرشيف مديرية الوثائق التاريخية في دمشق:

_ أوامر سلطانية (حلب من ١١٨٨/١٧٧٤ إلى ١١٩٧/١٧٨٢) وعدد سجلاتها ٦٧.

_ محافظ وثائق عابدين: أسد رستم، المحفوظات الملكية، أربعة مجلدات، طبعة ثانية، المكتبة البولسّية، لبنان، ١٩٨٦.

٢_ الموسوعات:

_ موسوعة التاريخ الإسلامي، أحمد شلبي، عشرة أجزاء، الطبعة السابعة، القاهرة، ١٩٨٦.

_ موسوعة المورد، منير بعلبكي، طبعة أولى، ١١ مجلد، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٢.

_ موسوعة تاريخ أوروبا، مفيد الزيدي، أربعة أجزاء، دار أسامة للنشر، عمان، ٢٠٠٤.

٣_ قواميس ومعاجم خاصة:

_ القاسمي، محمد، قاموس الصناعات الشامية، تحقيق ظافر القاسمي، جزءان، الطبعة الأولى، دار طلاس للنشر، دمشق، ١٩٨٨.

_ صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد، الرياض ،٢٠٠٠.

_ البعلبكي، روحي ومنير، قاموس المورد، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٤.

٤_ المصادر العربية من الكتب:

_ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، الطبعة الأولى، دار يعرب، دمشق، ٢٠٠٤.

_ أرسلان، شكيب، تاريخ الدولة العثمانية، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دمشق، ٢٠٠٠.

_ الاسطواني، محمد، مشاهد وأحداث دمشقية في منتصف القرن التاسع عشر، طبعة أولى، مطبعة دار الجمهورية، ١٩٩٤.

_ الترك، نقولا، الحملة الفرنسية على مصر والشام، تحقيق ياسين سويد، دار الفارابي للنشر، ١٩٩٠.

_ الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، أربعة أجزاء، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٩٩٨.

_ الحلاق، أحمد البديري، حوادث دمشق اليومية، تنقيح محمد سعيد القاسمي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٨.

_ الخازن، فيليب وفريد، مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية، ثلاث مجلدات، لبنان، دار الرائد اللبناني للنشر.

_ الدارنولي، عزت حسن أفندي، الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوطة ((ضيانامة))، ترجمة سعيد عبد الغني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٩.

_ الصباغ، ميخائيل، تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني، تحقيق قسطنطين الباشا، مطبعة بولس، لبنان.

_ العبد، حسن آغا، حوادث بلاد الشام والإمبراطورية العثمانية، تحقيق يوسف نعيسة، طبعة أولى، مطبعة الشام، دمشق، ١٩٨٦.

_ المرادي، محمد، سلك الدرر في أعيان القرن الثامن عشر، الطبعة الثالثة، ٤أجزاء، دار البشائر الإسلامية ودار ابن حزم، بيروت، ١٩٨٨.

_ قساطلي، نعمان، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، الطبعة الأولى ١٩٧٩، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٢.

_ كرد علي، محمد، خطط الشام، ٦ أجزاء، الطبعة الثانية، مكتبة النوري، دمشق.

_ مشاقة، ميخائيل، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، نشر ملحم عبده وأندراوس شخاشيري، القاهرة، ١٩٠٨.

_ مؤلف مجهول، تاريخ حوادث الشام ولبنان(تاريخ ميخائيل الدمشقي) تحقيق أحمد سبانو، الطبعة الثانية، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٢.

_ مؤلف مجهول، حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، تحقيق أسد رستم، المطبعة السورية، مصر الجديدة، ١٩٨٦.

_ مؤلف مجهول، مذكرات تاريخية من حملة إبراهيم باشا على سوريا، تحقيق أحمد سبانو، دار قتيبة للنشر، دمشق، ١٩٨٢.

٥_ المراجع العربية من الكتب:

_ أبو علية، عبد الفتاح، ياغي، اسماعيل، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار المريخ للنشر،الرياض، ١٩٨٥.

_ أحمد، محمد، الحضارة الأوروبية الحديثة والمعاصرة، جامعة دمشق، ٢٠٠٧-٢٠٠٨.

_ البرعي، حسن أحمد، الثورة الصناعيّة وآثارها الاجتماعية والقانونية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٢.

_الحسيني، الأمير عبد العزيز، تاريخ سوريا الاقتصادي، دمشق، ١٩٢٣.

_ الحويك، الياس، تاريخ نابليون الأول، ثلاث مجلدات، دار الهلال للنشر ، ١٩٨١.

_ الدليمي، مزيد مصعب مهدي، الطاقة الإشعاعية والاحتباس الحراري، دار غيداء للنشر، عمان، ٢٠١٤.

_ الرفاعي ، عبدالرحمن، عصر محمد علي، دار الكتاب للنشر، القاهرة، ١٩٨٩.

_ السني، محمد، الثورة وبريق الحرية، الأدهم للنشر، القاهرة، ٢٠١٧.

_ السيد، فؤاد صالح، أشهر الأحداث العالمية (١-١٨٩٩م)، مكتبة حسن العصرية، بيروت، ٢٠١٥.

_ الصباغ، ليلى، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر، جزءان، طبعة أولى، مؤسسة الرسالة للنشر، بيروت، ١٩٨٩.

_ _____ ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، منشورات جامعة دمشق، ١٩٨١_ ١٩٨٢.

_ _____ ، معالم تاريخ أوروبا في العصر الحديث، جامعة دمشق، ١٩٨٢.

_ الصطوف، عبد الكافي، دراسات في تاريخ أوروبة في العصر الحديث، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠٦-٢٠٠٧.

_ الصليبي، كمال ، تاريخ لبنان الحديث، الطبعة السابعة ، دار النهار، بيروت، ١٩٩١.

_ العبيدي، صلاح عريبي، الدور الاقتصادي للبرجوازيين الوطنيين في المشرق العربي حتى ستينات القرن العشرين، طبعة أولى، دار غيداء للنشر، عمان، ٢٠١٠.

_ العطار، نادر، تاريخ سورية في العصور الحديثة، مطبعة الإنشاء، دمشق، دون تاريخ.

_ العظم، عبد القادر، الأسرة العظمية، مطبعة الإنشاء، دمشق، ١٩٦٠.

_ المحامي، فريد بك، تاريخ الدولة العليا العثمانية، تحقيق إحسان حقي، طبعة أولى، دار النفائس، بيروت، ١٩٨١.

_ بركات، داود، البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتحه الشام ١٨٣٢م، مؤسسة هنداوي للنشر، القاهرة، ٢٠١٤ .

_ بعيو، غانيه، التنظيمات العثمانية وأثارها على الولايات العربية الشام والعراق نموذجاً، رسالة الماجستير، كلية العلوم الإنسانية، الجزائر،٢٠٠٨-٢٠٠٩.

_ بني هاني، خالد مفلح، تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري ١٢٤٦-١٢٥٦هـ/١٨٣١-١٨٤٠م، الطبعة الأولى، دار الأوائل للنشر، دمشق، ٢٠٠٥.

_حاطوم، نور الدين، تاريخ القرن السابع عشر في أوروبا، الطبعة الأولى، دار الفكر للنشر، دمشق، ١٩٨٦.

_ _____، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٨.

_ حنا، عبد الله فايز، ومجموعة من المؤلفين، ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري، خمس مجلدات، دمشق، ١٩٩٣.

_ راشد، عبد المجيد، الكارثة والوهم: مستقبل سياسة الإصلاح للاقتصاد بمصر في ظل نظام العولمة، نشر مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٧.

_ رافق، عبد الكريم، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، مكتبة نوبل، دمشق،٢٠٠٢.

_ _____ ، المشرق العربي في العهد العثماني، دار الوحدة ، دمشق، ١٩٨١.

_ سزكين، فؤاد، عرض موجز لمتحف استانبول لتاريخ العلوم والتكنولوجيا في الإسلام، تركيا، ٢٠١٠.

_ سمحات، قاسم، محمد علي والمشروع الفرنسي في بلاد الشام ١٨٠٤ _ ١٨٥٠، مكتبة بستان المعرفة للنشر، ٢٠٠٥.

_ طربين، أحمد، تاريخ المشرق العربي المعاصر، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ١٩٨٨.

_ عامر، محمود، تاريخ الإمبراطورية العثمانية دراسة تاريخية اجتماعية، الطبعة الأولى، دار الصفدي للنشر، دمشق، ٢٠٠٤.

_ _____، تاريخ الدولة العثمانية (سياسية_ اجتماعية) ، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٦-٢٠٠٧.

_ عبد الغني، عبد الرحمن، مدخل في تاريخ الديمقراطية في أوروبا، رام الله، مواطن المؤسسة الفلسطينية للدراسة الديمقراطية ، رام الله، ٢٠١٠.

_ عبد الله، فيصل، تاريخ الوطن العربي القديم بلاد الشام، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٣-٢٠٠٤.

_ عمارة، محمد، فجر اليقظة العربية، دار الوحدة، بيروت،١٩٨١.

_ _____، العروبة في العصر الحديث، الكتاب الثاني، دار الوحدة، بيروت، ١٩٨٤.

_ عمر، عبد العزيز عمر، تاريخ لبنان الحديث، دار النهضة العربية، القاهرة.

_عيساوي، شارل، تأملات في التاريخ العربي، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩١.

_ غرايبة، عبد الكريم، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر، بيروت، ١٩٨٤.

_ _____، سوريا في القرن التاسع عشر، دار الجيل للطباعة، دمشق، ١٩٦٢.

_ غربال، محمد، محمد علي الكبير، القاهرة، مؤسسة هنداوي للنشر، القاهرة، ٢٠١٤.

_ مصطفى، ناديا، التاريخ والعلاقات الدولية: منظور حضاري مقارن، جزءان، دار البشير للعلوم والثقافة، جزء أول، ٢٠١٥.

_ _____ ، العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦.

_ محمد، نجاح، أبو جبل، كاميليا، تاريخ الوطن العربي الحديث(بلاد الشام والعراق)، جامعة دمشق، ٢٠٠٥-٢٠٠٦.

_ نعيسة، يوسف، مجتمع مدينة دمشق، ١٧٧٢_ ١٨٤٠م، جزءين، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٦.

_ نوار، عبد العزيز، جمال الدين، محمود، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٩٠.

_ ياغي، اسماعيل، العالم العربي في التاريخ الحديث، دار العبيكان للنشر، الرياض، ٢٠٠٣.

٦_ دوريات وبحوث:

_ البحرة، (نصر الدين)، دمشق في أواسط القرن الثامن عشر كما يؤرخ لها البديري الحلاق، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد ٤٤،١٩٩١.

_ خوري، (جورج)، المصالح الاستعمارية البريطانية والحفاظ على الإمبراطورية العثمانية ، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العدادان ٤١ و٤٢ آذار _ حزيران، ١٩٩٢.

_ صالح، حبيب، الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العددان ٦٧-٦٨ كانون الثاني – حزيران، ١٩٩٩.

_ محمد، نجاح، وقفة جديدة عند سورية_الشام في عهد دولة محمد علي (١٢٤٧هـ/١٨٣١م _ ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م) مجلة دراسة تاريخية، دمشق، العددان ٩٣- ٩٤، حزيران ٢٠٠٦.

_ وهبي، صالح ، التطور الزراعي الصناعي في غوطة دمشق وأثره في الحياة الاقتصادية بين القرنين العاشر والثامن عشر، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العددان١٧-١٨، جامعة دمشق،٢٠١٢.

ثانياً): الكتب المترجمة من اللغات الأجنبية:

_ أبلبي، جويس، الرأسمالية ثورة لا تهدأ، ترجمة رحاب صلاح الدين، مؤسسة هنداوي للتعليم، القاهرة، ٢٠١٤.

_ انطونيوس، جورج، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، مطبعة دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٩.

_ أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان سلمان، مجلدين، منشورات مؤسسة فيصل لتمويل، استانبول، ١٩٨٨.

_ اينجاليك، خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد الأرناؤوط، الطبعة الأولى ٢٠٠٢، بيروت، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢.

_ بازيلي، قسطنطين، سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي، ترجمة يسر جابر، بيروت، دار الحداثة للنشر، بيروت، ١٩٨٨.

_ بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة منير البعلبكي، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين، بيروت.

_ حتي، فيليب، لبنان في التاريخ، ترجمة أنس فريحة، دار الثقافة، بيروت ، ١٩٧٨.

_ حوراني، ألبرت، تاريخ الشعوب العربية، ترجمة أسعد صقر، الطبعة الأولى، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٧.

_ حوراني، ألبرت، خوري، فيليب، وآخرون، الشرق الأوسط الحديث، ترجمة أسعد صقر، مجلدان، دار مدارات للأبحاث والنشر،القاهرة، ٢٠١٦،المجلد الأول.

_ روجان، يوجين، العرب من الفتوحات العثمانية إلى الحاضر، ترجمة عمر الجندي، طبعة أولى، دار كلمات عربية للنشر، القاهرة، ٢٠١١.

_ ريجنكوف، أيرينا نسكايا، سوريا ولبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ترجمة يوسف عطاالله، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٩٣.

_ شيلشر، ليندا، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة عمرو ودينا الملاح، طبعة أولى، دار الجمهورية، دمشق، ١٩٨٨.

_شوفالييه، دومينك، مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعيّة في أوروبا، ترجمة منى عاقوري، دار النهار، ١٩٩٤.

_ غيز، هنري، بيروت ولبنان منذ قرن ونصف، ترجمة مارون عبود، القاهرة، مؤسسة هنداوي للنشر، القاهرة، ٢٠١٤.

_ فشر، هـ. ا. ل. تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ترجمة أحمد هاشم ووديع الضبع، الطبعة السادسة، دار المعارف، مصر.

_ قرم، جورج، تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب، ترجمة رلى ذبيان، دار الفارابي، بيروت، ٢٠١١.

_ لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة عادل زعتير، الطبعة الثالثة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣.

_ نسكايا، أيرينا سميليا، الحركات الفلاحية في لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ترجمة عدنان جاموس. دار الفاربي، بيروت، ١٩٧٢.

_ هرشلاغ، ز. ي. مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، ترجمة مصطفى الحسيني، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٧٣.

_ هونكه، زيغرند، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، الطبعة الثانية، المكتب التجاري للتجارة والتوزيع بيروت، ١٩٦٩.

_هيز، كارلتون، الثورة الصناعيّة ونتائجها السياسية والاجتماعية، ترجمة أحمد عبد الباقي، الطبعة الثانية، منشورات المثنى، بغداد، ١٩٦٢.

ثالثاً): مصادر ومراجع أجنبية :

١_ موسوعات أجنبية:

- Gibb, H.A.R, The Encyclopedia of Islam, 7Volumes, Published by Brill Archive, Leiden, 1982 .
- Masters Bruce, Agoston, Encyclopedia of The Ottoman Empire, Infobase Publishing, New York, 2009 .
- Oslon, James Sluart, Encyclopedia of The Industrial Revolution in America, Green Wood Press, London, 2002 .
- The New Cambridge Modern History, War and Peace in an Age Upheavel 1793-1830, 12Volumes, Cambridge University Press, 1956

٢_ الكتب الأجنبية:

- Aclock, Antony, Ashort History of Europe from Greek and Romans to The Present Day, Published by Macnillan Press, London, 1998 .

- Aldcorft, Derek and Freeman, Michael, Transport in The Industrial Revolution, Manchester University Press, 1983 .
- Allen,C. Robert, Global Economic History: Avery Short Introduction, Oxford University Press, 2011 .
- Angelia, Vimala, History of Civies, First Published 2007, Published by Pearson Education, India, 2009 .
- Ashton,T.S, The Industrial Revolution 1760-1830,Oxford University Press, London, 1980 .
- _____ ,Iron and Steel in The Industrial Revolution, Manchester University Press, 1951 .
- Barbir, Karl and Hathaway, Jane, The Arab Lands Under Ottoman Rule 1516-1800, Published by Routledge, New York, 2013 .
- Baugh, Danial, The Global Seven Years War 1754-1763, Published by Routledge, London, 2014 .
- Beaud, Michel, History of Capitalism 1500-1980, Translated by Tom Dickman and Lefebvre, Monthly Review Press, New York, 1981 .
- Berenger, Jean, A History of The Habsburg Empire 1700-1918, Translated by C.A.Simpson, Published by Routledge, London, 2014 .
- Birine, Arthur, An Economic History of Europe 1760-1930, First Published 1930, Routledge Press, London, 2006 .
- _____, An Economic History of The British Isles, First Published 1935, Printed by Routledge, London, 2006 .
- Black, Antony, The History of Islamic Political Thought, Edinburgh University Press, Scoutland, 2011 .
- Black, Jermey, Eighteenth Century Britain, 1688-1783, Second Edition, Palagrave Macmillian Published, UK, 2008 .
- Blanning, T.C.W, The Eighteenth Century: Europe 1688-1815, Oxford University Press, Oxford, 2002 .

- Brezina, Corona, The Industrial Revolution in America, Rosen Publishing Groupe, New York, 2005 .
- Burnette, Joyce, Gender, Work and Wages in The Industrial Revolution in Britain, Cambridge University Press, 2008 .
- Burn, Ross, Aleppo : A History, Published by Routledge, New York, 2017 .
- _____, Damascus: A History, Published by Routledge, New York, 2007 .
- Burns, William, The Brief History of Great Britain, Routledge Publishing, New York, 2009 .
- Chouiri, M. Youssef, A Conpanion, to The History of The Midlle East, Published by Black Well, UK, 2005 .
- Cole, Matt_Deighan Helen, Political Parties in Britain, Edingburgh University press, 2012 .
- Collier, James, The Steam Engine, Published by Marshall Carendish, New York, 1928 .
- Connelly, Owen, Blundering to Glory: Napoleon's Military Campaingns, Rowman, and Little Field Publisher, USA, 2006 .
- Deans, Phyllis, The First Industrial Revolution, Cambridge Press, 1979 .
- Dodwell, Henry, The Founder of Modern Egypt: A Study of Muhammad Ali, Cambridge University Press, 1931 .
- Fahmy, Khaled, All Pashs's Men, The American University in Cairo Press, Prented in Egypt, 2005 .
- Fine, Jil, Writting in Ancient Phoenicia, The Rose Publishing Group, New York, 2003 .
- Grant, Edward, The Foundations of Modern Science in The Midlle Ages, Cambridge University Press, 1996 .
- Haine, W. Scott, The History of France, Green Wood Press, London, 2000 .

- Henderson, Otto William, The Rise of German Industrial Power 1834-1914, University of California Press, 1975 .
- Herlod, j. Chritopher, Bonaparte in Egypt, Pen and Sword Publisher, London, 2005 .
- Hill, Donald,, the Book of Ingenious Devices BY The Banu Musa Bin Shaker, Translated by Donald Hill, D. Reidel Publishing Company, Dordrecht, Holland, 1979 .
- Hillstorm, Keven and Collier, Industrial Revolution in America: Autombiles, Published by ABC-Clio, California, 2006 .
- Hitti, Philip, History of Syria, London, 1951 .
- Hughson, David, London: Being an Accurate History and Description of The British Metropolis, Five Volumes, Printed by W.Startford, London, 1806 .
- Hunt, E.K, Property and Prophets: The Evolution of Economic Institution and Indeologies, M.E Sharp Publisher, New York, 2003 .
- Imber, Colin-Kiyotaki, Keiko, Frontiers of Ottoman Studies, Tow Volumes, Published by Tauris, London, 2005 .
- Israel, I.Jonathon, The Anglo Dutch Moment: Essay on The Glorious Revolution, Cambridge University Press, 1991 .
- Issawi, Charles, An Economic History of The Midlle East and North Africa, London, 1982 .
- Jones, Colin, The Cambridge Illustrated History of France, Cambridge University Press, United Kingdom, 1994 .
- Kasaba, Resat-Fleet, Kate, The Cambridge History of Turky: The Later Ottoman Empire 1603-1839, 3Volumes, Cambridge Press, UK, 2006 .
- Khirfan, Luna, World Heritage: Urban Design and Tourism (Three Cities in The Midlle East) Published by Routledge, New York, 2016
- Kort, Michael, A Brief History of Russia, Boston University, 2006

- Mandel, Ernest-Navak, George, Can The Working Class Make a Socialist Revolution, Published by Resistance Book, Australia, 2002 .
- Marsot, Lutfi Afaf, Egypt in The Reign of Muhammad Ali, Cambridge University Press, UK, 1984 .
- Master, Bruce, The Arab of Ottoman Empire 1516-1918, Cambridge University Press, London, 2013 .
- Maw, Peter, Transport and Industrial City: Manchester and Canal Age 1750-1850, Manchester University Press, Manchester, 2013 .
- Mc Cormik, louise Anita, The Industrial Revolution in United States History, Enslow Publishers, U.S.A, 1998 .
- Miller, William, The Ottoman Empire and It's Successors 1801-1927, Published by Frank Gass and Colted, New York, 1966 .
- Mokry, Joel, The Economic of The Industrial Revolution, Rowman and Little Field Publishers, New York, 1985 .
- MC Nees, Tim, The Industrial Revolution, Miliken Published Company, Missouri, U.S.A, 2000 .
- Nester, R. William, The Great Frontiers War: Britain and France and The Emperial Struggles For North America, Praeger Publisher, London, 2000 .
- Norton, M. Grant-Carter, C. Barry, Cermaic Material Science and Engineering, Published by Springer, New York, 2002 .
- Pamuk, Sevket, The Ottoman Empire and European Capitalism 1820-1913, Cambridge University Press, London,1987.
- Paul, Balfoul Jenny, Indigo in The Arab World, Published by Routledge, London, 2004 .
- Philpp, Thomas, Acre: The Rise and Fall of Palestinian City 1730-1831, Columbia University Press, New York, 2002 .
- Quataert, Donal, The Ottoman Empire 1700-1922, Cambridge University Press, United Kingdom, 2000 .

- Rabushka, Alvin, From Adam Smith to The Wealth of America, Published by Transaction Book, United State, 1985 .
- Rosner Lisa, Thiebaut John, A Short History of Europe 1600-1815, Published by Rout ledge, London, 2000 .
- Sabillon, Carlos, on The Causes of Economic Growth: The Lessons of History, AlGora Publishing, New York, 2008 .
- Sajdi, Dana, Ottoman Tulips, Ottoman Coffee: Leisur and Life Style in The Eighteenth Century, IB Tauris Publishers, London, 2014 .
- Saliba, George, Islamic Science and Making of Europe Renaissance, M I T Press, United State, 2007 .
- Schmidt, Gold Arthur, Bigraphical Dictionary of Modern Egypt, Lynn Rienner Publishers, London, 2000 .
- See Henri Eugene, Economic and Social Conditions in France During Eighteen Century, Translated by Edwin Zeydel, Cooper Square Publishers, New York, 1968 .
- Sharp Paul, Persson Gunnar Karl, An Economic History of Europe, Cambridge University Press, UK, 2015 .
- Smith, Adam, Wealth of Nations, Originally Published in 1901, Classics Publisher, New York, 2007 .
- Smith, Robert, Industrial Revolution, M.S Publisher, U.S.A, 2007 .
- Talbot, Michael, British Ottoman Relations 1661-1807, Commerce and Diplomatic Practice, Boydell Press, UK, 2017 .
- Teich, Mikulas, Porter Roy, The Industrial Revolution in National Context, Cambridge University Press, UK, 1996 .
- Trevelyan, George, History of England, Third Edition, Ballantyne press, 1945 .
- Williams, Lionel, on The Supply Chain in The Fourth Industrial Revolution, Published by Grain Velag, 2018 .
- Wolf, Jame, The Industrial Revolution: Steam and Steel, Published by Britannica, 2016 .

- Wyatt tll, Lee.T, The Industrial Revolution, Green Wood Press, London, 2009 .

رابعاً): مواقع الإنترنت :

- WWW.Muslim heritage.com/article/.Salim,Al_Hassani,The Journey of Autmatic Machines in Muslim Civillization .
- WWW.Muslim hertitage.com.Salim Al_Hassani/100Years of Missing Islamic Industry .
- WWW.Politics_dz_com/Community, thread .علاقة علم الاقتصاد بالسياسة
- http//www.mse.iastate.edu/ news/john verhoeven mystery of Damascus Steel Sword Unveiled.
- https://ar.m.wikipedia.org/wiki%D9% 85%D9% 84%D9%81:Syria _physical_map-2-ar.png.